

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



https://facebook.com/groups/abuab/

شمر - جربا

والانتقال من الترحال إلى الاستقرار

«دراسة حول حياة البدو وتراثهم»

تأليف: لوثار شتاين

ترجمة: كامل إسماعيل

تنسيق جمال حتمل

تصوير أبو محمد

المؤلف

- **الدكتور لوثار شتاين** Lothar Stein
- أكاديمي ألماني متخصص في علم الأجناس «الإتنوغرافيا».
- تركزت أبحاثه الميدانية على دراسة حياة البدو في المنطقة العربية وبخاصة في العراق ومصر وغيرها.
- مدير سابق لمتحف علم الأجناس في مدينة لايبزغ - ألمانيا.

المترجم

- **كامل إسماعيل:** من مواليد منطقة الشيخ بدر - محافظة طرطوس - سورية ١٩٤٦م.
- ماجستير في الإتنوغرافيا من جامعة لايبزغ - ألمانيا.
- مدير التراث الشعبي السابق في وزارة الثقافة.
- له دراسات ومحاضرات حول التراث الشعبي في عدد من الدول العربية والأوروبية.
- عضو المنظمة الدولية للفن الشعبي IOV مقرها النمسا.
- عضو الهيئة العلمية لمجلة «الثقافة الشعبية» البحرين.

❖ **من أعماله :**

- «العلاقات الاجتماعية الاقتصادية في جبال الساحل السوري» صادرة عن دار النشر الأكاديمية في برلين (باللغة الألمانية).
- «أصل الأشياء» ترجمة عن الألمانية صادر عن وزارة الثقافة ١٩٨٨ ودار المدى ٢٠٠٦.

شمر - جربا

والانتقال من الترحال إلى الاستقرار

(دراسة حول حياة البدو وتراثهم)

وزارة الثقافة
مديرية التراث الشعبي
مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي
(١٦)



شمر - جربا

والانتقال من الترحال إلى الاستقرار

(دراسة حول حياة البدو وتراثهم)

تأليف : لوتار شتاين
ترجمة : كامل إسماعيل

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٧

العنوان الأصلي للكتاب

LOTHAR STEIN

DIE SAMMAR – GERBA

BEDUINEN IM UBERGANG

VOM NOMADISMUS ZUR SESSHAFTIGKEIT

مقدمة

يشكل هذا الكتاب (الدراسة) إسهاماً جدياً في عرض جوانب هامة من حياة البدو العرب الاقتصادية والاجتماعية والعادات والتقاليد من خلال قبيلة بدوية يعيش أبناؤها في العراق وسورية بعد أن هاجرت من جنوب شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن الثامن عشر لأسباب معينة.

وبذلك تشكل هذه الدراسة مرجعاً أساسياً في دراسة أحوال البدو في مرحلة انتقالية من البداوة إلى نصف البداوة ثم إلى الاستقرار وما رافق ذلك من تغيرات على الصعيد الاجتماعي والثقافي.

وتأتي أهمية هذه الدراسة بأن المؤلف الدكتور «لوثار شتاين»، وهو باحث انتروبولوجي ألماني، ومدير سابق للمتحف الاتنوغرافي في مدينة «لايبزغ»، قد عاش لفترة من حياته في العراق قضى قسماً منها مقيماً بين أفراد قبائل شمر- جربا يشاركهم حياتهم اليومية ويتعرف على نمط هذه الحياة ونشأت بينه وبينهم علاقة وطيدة. أي أن معلوماته مستقاة من الواقع الميداني ومن أفواه الناس الذين عاش بين ظهرانيهم في بداية ستينات القرن العشرين.

بالإضافة إلى ذلك اعتمد على أكبر عدد ممكن من الدراسات المتعلقة بالبدو وحياتهم، وضعها باحثون أجانب وعرب منذ القرن التاسع عشر وما بعد.

ونظراً إلى العدد الكبير لهذه المراجع وبلغات متعددة ارتأيت أن أضع هذه المراجع كما وردت في كتابه لمن أراد الاستزادة أو التحقق من المعلومات الواردة دون أن أترجم هذه العناوين إلى العربية، لأن هذه المراجع، أو معظمها، غير متوفرة بالعربية أصلاً.

أرجو أن تكون هذه الدراسة حافزاً للباحثين من مختلف المناطق السورية للإسهام في جمع وحفظ مكونات تراثنا الشعبي وأنماط التعبير عنه ليكون سجلاً للأجيال القادمة.

المترجم

الفصل الأول

معطيات طبيعية وتاريخية

١- الطبيعة والمناخ:

تشكل الجزيرة حالياً منطقة سكن عشائر شمر، وهي بادية تقع بين نهري الفرات ودجلة. والجزيرة من حيث طبيعة أرضها عبارة عن هضبة تنحدر قليلاً باتجاه جنوب- شرق، ذات طبقات كلسية من العصر الكريتاسي والثلاثي التي حفر كلا النهرين واديهما فيها. أطلق عليها أسم الجزيرة لوقوعها بين النهرين وتعرف في المراجع العلمية باسم «ميزوبوتاميا» **Mesopotamia**. استخدم هذا الاصطلاح بمعان عديدة، ولكن يفهم منه في هذا العمل على أنه منطقة ما بين النهرين العليا (الجزء الشمالي الغربي من الجمهورية العراقية والجنوبي الشرقي من الجمهورية العربية السورية).

. تتخذ المنطقة ذات الطبيعة المنبسطة بشكل عام ملامحها الخاصة من ثلاث سلاسل جبلية مختلفة، ترتفع بضعة مئات من الأمتار فوق السهل: من جبل عبد العزيز في الشمال الغربي، وشمالي جبل سنجار وفي الجنوب الشرقي على جانبي نهر دجلة، من جبل حمرين (**قارن الخارطة**). شمالي السلسلتين الأولى والثانية تكون الأرض ذات تموجات هادئة، تغطي تربتها الخصبة في الربيع طبقة كثيفة من النبات، أما جنوبي سنجار فتتخذ الطبيعة

طابعاً أقرب إلى البادية. تحتوي التربة على الجبس في العديد من الأماكن. أما في الأماكن المنخفضة فتشكل مستنقعات ملحية.

للجزيرة طبيعة ذات وتيرة واحدة تخترقها أحياناً بعض الأودية التي تشكلها الأنهار. وما عدا الفرات ودجلة اللذان يطلق عليهما اسم النهران لا تخترق هذه البادية إلا أنهار قليلة وثانوية. ففي الشمال الغربي يصب كل من نهري البليخ والخابور في نهر الفرات. كما تصب في نهر دجلة روافد أخرى من الاتجاه الشمال الشرقي، وهي من الشمال إلى الجنوب:

الزاب الكبير والزاب الصغير وشط العظيم ونهر ديالة. لكن هذه الروافد تقع خارج نطاق الجزيرة الأصلي. وهناك مجاري مائية أصغر تتحدر من سلسلة جبال سنجار لا يجري ماؤها إلا في الربيع وتتسرب مياهها في الجزيرة دون أن تصل إلى أي من النهرين الكبيرين. أهم الوديان النهرية هو وادي الطرطار.

للمناخ في هذه المنطقة طبيعة قارية واضحة المعالم. صيف حار، وشتاء بارد نسبياً، تتخللهما فترتان قصيرتان ربيعية وخريفية. تسقط معظم الأمطار- القليلة أساساً- خلال الشتاء، وتزداد كميات الهطول كلما اتجه المرء شمالاً.

تتراوح كمية الأمطار السنوية مابين ١٠٠ - ١٥٠ مم. فقط الطرف الشمالي من الجزيرة قد يتجاوز هذه الكمية لتصل إلى ١٥٠ - ٢٠٠ مم.

يتميز فصل الصيف بدرجة عالية من الجفاف، إذ تخلو الفترة الممتدة من نيسان (أبريل) حتى نهاية تشرين أول (أكتوبر) أو أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) من أية هطولات مطرية. تكون رطوبة الهواء النسبية منخفضة جداً، وبالتالي تكون كمية الغيوم، نتيجة لذلك، في أدنى الحدود.

اتجاه الريح السائد هو الشمال الغربي، كما في بقية المناطق العراقية. أما الشيء الذي يصعب على الإنسان والحيوان تحمله في الصيف فهو العواصف الغبارية، العجاج المتكرر الذي يهب بقوة غير عادية.

في كل الكتابات التي تناولت قبائل شمر تبرز ظاهرتان مناخيتان هامتان بشكل خاص بالنسبة لحياة البدو:

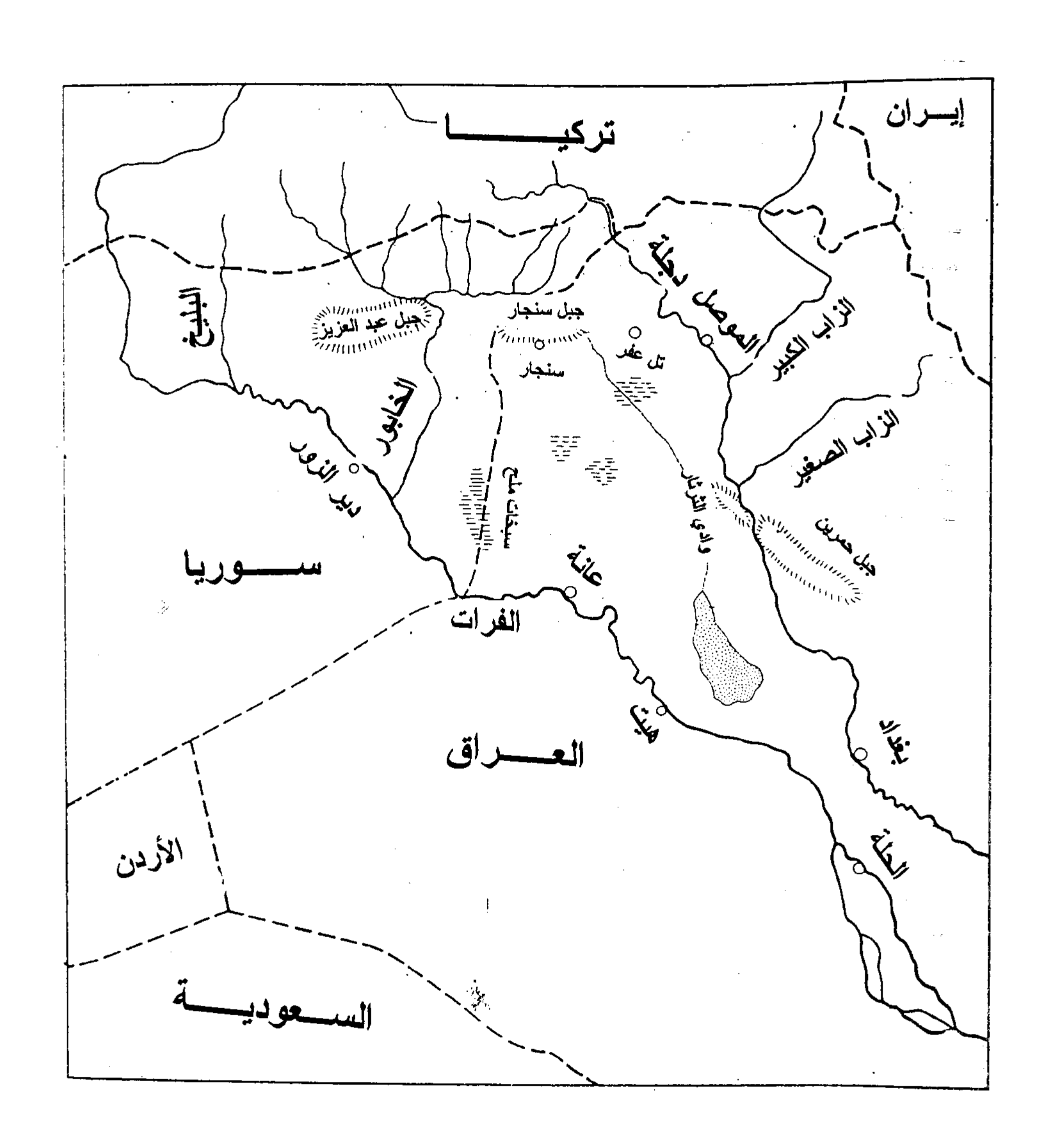
١- برودة الشتاء القاسية نسبياً والتي يعاني منها البدو، وبخاصة في الجزيرة الشمالية والتي قلما يستطيعون اتقاءها. فأثناءها قد تحدث هطولات ثلجية، وتشكل الضباب الذي لا تحمد عقباه. ويبدو أن البدو يتأقلمون مع درجات الحرارة المرتفعة في الصيف (والتي تبلغ حتى٥٠ درجة في الظل) ويفضلونها على درجات الحرارة الشتوية التي تصل حد نقطة التجمد.

٢- لتوزيع كميات الأمطار تأثير كبير على نمط الحياة البدوية، لأن هناك ارتباط مباشر بين الغطاء النباتي للبادية وسخاء الهطولات المطرية، نظراً لأن عوامل الإنبات الأخرى- مثل الضوء والحرارة والمواد الغذائية- متوفرة بكميات كافية. لذلك فالبدو يرحبون أشد الترحيب بالمطر، وبمزيد من السرور.

الشيء المميز لهذه المنطقة هو عدم انتظام الهطولات المطرية، حيث تأتي سنوات بكميات أمطار كافية تعقبها فترة جفاف واضحة. لكن المسافة الزمنية بين هاتين الفترتين غير منتظمة أيضاً.

قدم «عارف العارف» لمحة عن توزع السنوات الخصبة والأخرى غير الخصبة في المنطقة المحيطة ببئر السبع في فلسطين قبل مائة عام، ووصف تأثير إحدى سنوات الجفاف على الشكل التالي، وبشكل وصفي قاطع **(تعود المعلومات في هذا النص إلى عام ١٨٦٣)** «كان بدو منطقة شرق الأردن ومنطقة سيناء والحجاز مثل المجانين يرحلون من منطقة إلى أخرى إلى أن التهموا جلود حيواناتهم التي قضت (نفقت) جوعاً، ولذلك أطلق على تلك السنة اسم سنة الجلدة»(•).

(•) عارف العارف. «بدو بئر السبع» صدر عام ١٩٣٨ في لوتسرن (سويسرا) بالألمانية ص ١٦١.



المصور رقم (١)

مصور جغرافي للجزيرة وأماكن تواجد الأسواق التي يؤمها الشمريون

في مثل تلك السنين يعاني البدو من نفوق أعداد كبيرة من مواشيهم. وعن حالة كهذه يطلعنا «شاو» الذي قطع القسم الشمالي من الجزيرة في شتاء عامي ١٨٧٩- ١٨٨٠ بقوله: «منذ ثلاث سنوات... لم يسقط إلا النذر اليسير من المطر ولم ينم إلا القليل من النبات.

استهلك المخزون الغذائي بكامله، لأن موجة من البرد والثلج غير مسبوقة حرمت كل الحيوانات من الغذاء المتواضع الذي كانت تجود به تربة البادية، حتى في الشتاء، على الحيوانات القنوعة مثل الأغنام والماعز والجمال والخيول الشرقية، فنفقت الحيوانات الجائعة بالآلاف نتيجة هذه الموجة من البرد...»(•)

هناك دلائل عدة تشير إلى أن مناخ شمال الجزيرة العربية، وبالتالي منطقة الجزيرة لم يكن دائماً فقيراً بالهطولات المطرية. فقد توصل «فيلد» Field إلى نتيجة أن مناخ هذه المنطقة قد شهد خلال الـ /١٥٠٠/ سنة الأخيرة تغييراً ملحوظاً. ويشير إلى ذلك مضيفاً:

«هناك دليل واضح على أن الوديان، ومجاري الأنهار الجافة التي تسيل فيها المياه خلال فصل المطر فقط، كانت في السابق تخدق بالمياه خلال معظم أيام السنة، إن لم تقل خلال كل السنة».

يقوي وجود مستوطنات مدنية كبيرة في السابق، مثل هاترا وتدمر وغيرها، (ما تزال بقاياها حتى الآن وسط البوادي القاحلة)، مثل هذا الانطباع إلى حد كبير.

كما اهتم الباحث «عارف العارف» أيضاً بمسألة التغير المناخي ويخلص إلى وجهة النظر أن: «الجدب، وليست الحروب، كان مسؤولاً عن خراب معظم المدن التي قامت في منطقتنا».

(•) شاو: رحلات إلى سورية وبلاد ما بين النهرين. لايبزغ- ١٨٨٣ ص ٣٣٩.

٢- المجموعة النباتية والحيوانية:

تطور عالم النباتات في هذه البادية تطوراً يتناسب مع الظروف المناخية السائدة. فالأشجار أو الشجيرات لا تنمو في منطقة الجزيرة على الإطلاق تقريباً. أما شجيرة أو بالأحرى شجرة الرظا، التي ذكرها الباحث «موسيل» فلم يتطرق إليها مؤلفون آخرون، ولم يعثر مؤلف هذا الكتاب على أي منها خلال رحلاته عبر الجزيرة. وعلى المجاري المائية تنمو شجيرات الأثل.

وهناك أنواع مختلفة من الحشائش وكذلك البرسيم تجد شروطاً مناسبة لنموها في المنخفضات الأرضية الرطبة وفي قيعان الوديان، لكن بشكل عام تتألف معظم النباتات في البادية من أنواع نباتية قاسية وشوكية ومن أنواع متسلقة ممتدة على سطح التربة.

ففي الربيع، عندما تسقط كميات كافية من المطر، تغطى مساحات واسعة من الجزيرة بنباتات مزهرة وملونة بكثافة من أهمها: البابونج والشيغارة والهودان ورجل الغراب.(•)

معظم هذه النباتات لا يقاوم حرارة الصيف المرتفعة بل يجف من أواخر نيسان (أبريل) حتى بداية أيار (مايو) بحيث تعطي البادية الانطباع عن تلك الصورة القاسية الفقيرة بالغطاء النباتي إلى أن يحين موعد الموسم المطري القادم.

في السنوات المطيرة تنمو أيضاً أنواع عديدة من الكمأة يطلق عليها البدو اسم (فقع) أو (زبيدي) تحت سطح تربة أرض البادية. لكن قلما نعثر في

(•) سوف نأتي على ذكر أنواع النباتات في منطقة الجزيرة في جدول خاص في الفصل الثاني. ويذكر الباحث «بلونت» أن الصليبيين قد جلبوا معهم العديد من أنواع النباتات المزهرة من الصحراء السورية إلى أوروبا والتي أصبحت الآن تعتبر انكليزية أو أوروبية بشكل عام.

منطقة الجزيرة على تلك النباتات العلفية التي تعتبر خاصية من خصائص مناطق واسعة من السودان والمغرب، وهي عبارة عن حشائش ذات نمو قوي وتشكل مخزوناً علفياً مثالياً لفترات الجفاف.

لا يقتصر دور المجموعة النباتية في البادية على تأمين الأعلاف لقطعان الماشية، هذه المسألة الحياتية، بل توفر للبدو إمكانات غذائية أخرى للبشر مثل (بذور النباتات في أوقات الضيق ثم الكمأة كطعام فاخر) وكذلك للاستخدام الطبي حيث تقوم النساء وبنات البدو بجمع النباتات الجافة بحزم كبيرة لتستخدم كوقود يطلق عليه اسم (عرفج).

ورغم أن الغطاء النباتي في الجزيرة قلما تغير خلال القرون الماضية، إلا أن الأمر يختلف في العالم الحيواني، إذ دخلت عليه تغيرات كبيرة، حيث سجل تراجعاً كبيراً في تنوعه، حتى أن بعض أنواع الحيوانات قد اختفت الآن نهائياً.

لاحظت السيدة «بلونت» مثلاً منذ بداية السبعينات من القرن التاسع عشر قطعاناً من الغزلان يبلغ تعداد الواحد منها بالآلاف. ويذكر الباحث «شاو» أنه كان يرى يومياً عدة مجموعات من الغزلان تضم الواحدة منها من خمسة إلى ستة أو أكثر في الجزء الشمالي من الجزيرة. والمؤلف نفسه لاحظ أيضاً وجود بقر الوحش، وربما كان ذلك ظباء.. كما ذكر «بيترس» عن وجود الحمير البرية بالقرب من سلسلة جبال سنجار. والشيء نفسه ذكرته السيدة «بلونت». لقد انقرضت الآن الظباء والحمير البرية من منطقة الجزيرة. وعلى عكس ذلك فإن الغزلان تظهر، ولو بشكل متقطع ونادر جداً.

ومن أنواع الحيوانات التي سبق أن انقرضت في منطقة الجزيرة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر نذكر: الأسد والنعامة، وهذا الأخير لم يعد يظهر إلا في مناطق صحراوية منعزلة في أواسط آسيا. أما أنواع

الحيوانات التي ما تزال موجودة في الجزيرة فهي: الذئب، الضبع، الثعلب، ابن آوى، الأرنب، وفأر الصحراء، والقنفذ.

أما عالم الطيور فتمثله الأنواع التالية: الرهو والرهو القزم، الحجل، السمن، الكركي (ولكن لفترات قصيرة خلال الربيع)، الحمام البري، وأنواع مختلفة من الصقور التي تلعب دوراً هاماً كملتهمة للجيف، ثم أنواع من طيور الباز التي يروضها البدو كطيور قنص.

أما الزواحف فهي ممثلة بالحرادين والسحالي وأنواع مختلفة من الأفاعي ومنها السام. ومن الحشرات بالإضافة إلى العقارب ذات اللسعات الخطرة جداً، إذ يمكن أن تكون مميتة بالنسبة للأطفال، يأتي الجراد الذي له أهمية كبيرة بالنسبة للبدو، لأنه يستخدم أيضاً كغذاء، مثله مثل معظم أنواع الحيوانات المذكورة آنفاً. وهناك أنواع عديدة من الجراد منتشرة غالباً في منطقة الجزيرة.

نتيجة للأضرار الهائلة التي تتسبب بها هجمات أسراب الجراد وبخاصة على الزراعة، هناك مجموعات من الأخصائيين تعمل منذ عشرات السنين في بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بالمكافحة المنتظمة للجراد.

ففي العراق أنشئ عام ١٩٢٤ «قسم الجراد» حيث بدأ هذا القسم بمكافحة الجراد عن طريق استخدام المواد السامة والنفط والقنابل الدخانية وأعطى نتائج إيجابية. وتم استخدام الطائرات لاستطلاع الأماكن التي تتواجد فيها أسراب الجراد. وكان من نتيجة ذلك أن الجراد قلما يظهر حالياً، وإذا ما ظهر ففي حالات نادرة ومتفرقة.

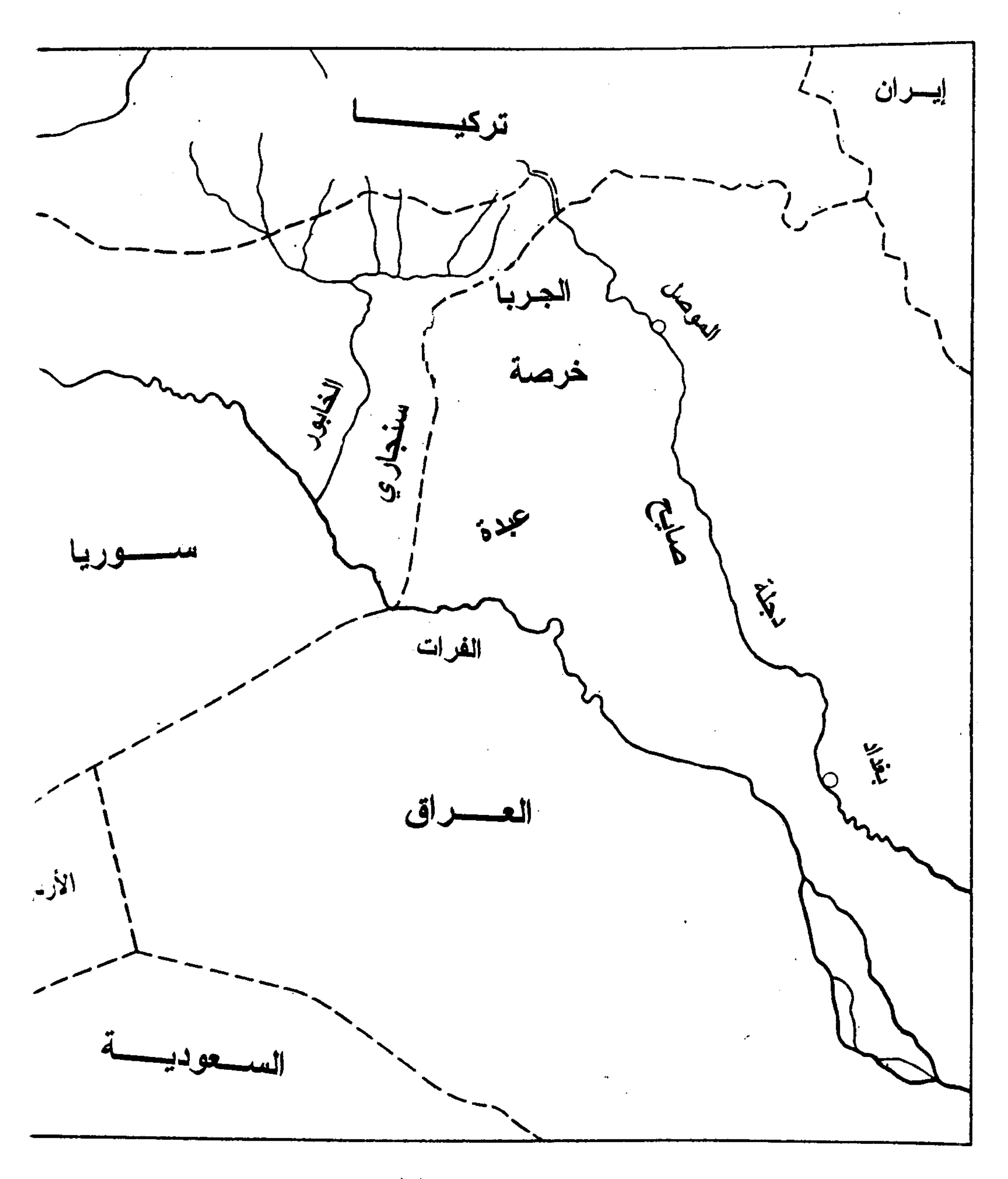
٣- هجرة عشائر شمر إلى الجزيرة:

ليس هذا هو المكان الذي نستعرض فيه المسألة الأساسية والتي تهمنا بشكل عام حول نشأة البداوة. ولكن يبدو أنه من المناسب أن نعالج مسألة هجرة شمر إلى منطقة استيطانهم الحالية وأن نجيب على السؤال المرتبط بذلك حول علاقتهم مع الشعوب والعشائر المجاورة، لأن فهم العلاقات الاقتصادية المطروحة للنقاش في هذه الدراسة يتضح إلى حد كبير من خلال معالجة المسائل الأتنوجينية والعلاقات القبلية.

لا تعد عشائر شمر من سكان منطقة الجزيرة الأصليين، بل هاجرت في وقت متأخر نسبياً إلى سورية والعراق. وحول الموطن الأصلي للشمريين ذكر "أوبنهايم" مايلي:

«إن موطن شمر هو المرتفع الأوسط لشمال الجزيرة العربية الذي يبلغ أوجه في جبال «أجأ» و«سلمى» والمعروفة على الخارطة باسم جبل شمر. والاسم ملتصق أصلاً بأجأ، وهذا يأتي من حقيقة أن إقامة العشيرة في القرون الوسطى كانت محصورة ضمن هذه البقعة الجبلية». وتعود نسبة الشمريين إلى عشائر «أصيل» وهي عشيرة قحطانية من جنوب شبه الجزيرة العربية.

حول زمن وظروف استقرار الشمريين في وحدة محدودة وواضحة المعالم قلما هناك معلومات تاريخية. المعلوم فقط هو أن هناك مجموعة من عناصر اثنية مختلفة قد ساهمت في قيام عشيرة شمر، في طليعتها «بني زهير» الذين يعودون في نسبهم إلى قبيلة «طي» في جنوب شبه الجزيرة العربية.



المصور رقم (٢)

توزيع عشائر شمرا - جربا الأربعة في الجزيرة

ويشير «أوبنهايم» إلى أن موروث شمر المحلي يعرض هذه العشيرة كشعب خليط، ويتابع قائلاً: «لقد امتصوا بالدرجة الأولى مجموعات تجمعهم بهم رابطة القرابة، كما تدل على ذلك أسماء مثل: نبهان وربيعة وغيث التي كانت تحملها قديماً عشائر طي والآن تحملها فروع من الشمريين».

من هذه المجموعات الاثنية التي ذكرناها، وأهمها قبيلة «طي»، تشكلت عشائر شمر في منطقة نجد خلال العصور الوسطى. ومن هذه المنطقة تقدمت بموجات هجرة عديدة إلى العراق ومنطقة الجزيرة. وكان الحديث في المصادر الأدبية الصادرة حوالي نهاية القرن السابع عشر عن حركة هجرة شمر نحو الشمال الشرقي، أي باتجاه العراق.

وتعلق «بلونت» أهمية كبرى على هجرات المجموعات الشمرية من نجد بحيث توصلت إلى التأكيد بقولها: «إن التاريخ الحديث لشمال الجزيرة العربية يمكن أن يبدأ بغزو هذه البلاد من قبل بدو شمر منطقة نجد بقيادة زعيمهم فارس قبل حوالي مائتي سنة... أي حوالي نهاية القرن السابع عشر».

ولم تكن مثل حركات الهجرة هذه لتشكل حالة استثنائية، بل كانت القاعدة بالنسبة للشعوب البدوية في المنطقة العربية منذ قديم الزمان. فاستيطان شمال إفريقيا من قبل مربي حيوانات عرب وهجرة «عنزة» إلى بادية الحماد وكذلك غزوات العشائر السامية في عصور سابقة إلى بابل، والكنعانيين في سورية والهكسوس في مصر والاستيلاء على فلسطين من قبل العبرانيين. كل هذه الهجرات يمكن مقارنتها بهجرة الشمريين.

كانت أسباب هجرة العشائر البدوية متنوعة وواضحة من حيث أوضاعها الاقتصادية، وهي البحث عن مناطق رعي لقطعان مواشيها وبخاصة في سنوات الجفاف، والبحث عن أسواق لمبادلة الحيوانات بمنتجات حيوية أخرى. وهناك

أيضاً دوافع سياسية بين مختلف العشائر. وهكذا قطعت عنزة في مطلع القرن الثامن عشر على الشمريين إمكانية الوصول إلى الأسواق السورية من خلال استيلائها على منطقة الحماد، فلم يبق أمامهم إلا أسواق العراق مفتوحة. لكن هذا الامتداد الأول للشمريين قلما أدى إلى تغييرات على خارطة تواجد العشائر في شمال الجزيرة العربية، حيث لم تغادر نجد إلا مجموعات متفرقة استوطنت غالباً بسلام بين العشائر المتواجدة هناك من قبل.(•)

أما الهجرة التي كانت لها نتائج أخطر فهي موجة الهجرة الشمرية الثانية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والمتعلقة بالحركة الوهابية.

يعتبر الشمريون من أعداء الحركة الحربية التي أسسها محمد بن عبد الوهاب «لتنقية الإسلام» ولتحرير شبه الجزيرة العربية من الحكم الاستبدادي التركي، التي أدت إلى حروب مريرة داخل منطقة نجد، خاصة بعد تحالف مؤسسها مع الأمير محمد بن سعود وابنه عبد العزيز. فأثناء تلك النزاعات وفي عام ١٧٩١ وقعت في منطقة حائل معركة بين شمر والوهابيين بقيادة زعيمهم العسكري سعود، هُزِم فيها الشمريون هزيمة ساحقة.

بعد ذلك بفترة قصيرة، وعلى أثر تلك المعركة، سيطر الوهابيون على منطقة شمر الأصلية، أي جبل شمر، حيث خضع قسم من السكان، بينما هاجر القسم الآخر بزعامة مطلق الجربا إلى منطقة الفرات لمواصلة الحرب من هناك ضد الوهابيين بدعم من الأتراك. وبذلك انفصل «شمر- جربا» عن «شمر نجد». حيث أدى هذا الانفصال الجغرافي فيما بعد إلى استقلال سياسي. تتوثق الوحدة الاثنية القديمة حالياً بشكل جلي من خلال وجود نفس الفرق والأفخاذ في نجد كما في الجزيرة.

(•) هناك مثال واضح على ذلك هو شمر «طوقه» الذين توغلوا خلال موجة الهجرة الأولى حتى أواسط العراق حتى أنهم عبروا دجلة واستوطنوا بين الكوت وبعقوبة كشبه مستقرين.

هناك تقارير متوفرة تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تفيد بأن فرقاً من شمر- جربا كثيراً ما تقصد مراع في نجد، وأن رؤساء عشائر يقومون بين الحين والآخر بزيارات شخصية إلى بيت ابن رشيد، زعيم شمر نجد. كما تؤكد «بلونت» حقيقة العلاقات القوية بشكل أو بآخر بين الشمريين الذين بقوا في نجد وأبناء عشيرتهم الذين هاجروا إلى الشمال.

هناك نتيجة حتمية للتوسع نحو الشمال تعرضها الصراعات الحربية مع العشائر – وهي بدوية أيضاً- التي كانت تسيطر على المناطق التي توغل فيها الشمريون.

وقع أول صدام حوالي نهاية القرن السابع عشر مع «الموالي» الذين طردهم الشمريون حتى حدود سورية الشمالية الشرقية. بعد ذلك بقليل ظهرت عشيرة قوية أخرى في شمال شبه الجزيرة العربية وهي أيضاً من وسط شبه الجزيرة العربية ورحلت نحو الشمال، ألا وهي «عنزة». وتشير «بلونت» إلى أن الموالي الذين دحرهم الشمريون قد أقاموا تحالفاً مع القادمين الجدد وقاموا معاً بإبعاد الشمريين بالقوة إلى ما وراء نهر الفرات، وهكذا وصلوا إلى المنطقة التي تسمى بالأصل الجزيرة.

إن التأكيد التالي الذي قدمته «بلونت» – والذي تقول فيه: «وجدوا أمامهم في بلاد ما بين النهرين أرضاً أكثر غنى من تلك التي فقدوها، فترك الشمريون الصحراء السورية لعنزة وبالتالي كان عبور دجلة قد نقل غاراتهم إلى الموصل وحدود بلاد الفرس».- لا يتوافق كلياً مع الأحداث التاريخية الحقيقية، لأن الجزيرة كانت في ذلك الوقت مستوطنة من قبل أقوى عشيرة آنذاك في الجزيرة وهي «العبيد» الذين كان على الشمريين في البدء أن يبحثوا عن اتصال معهم.

وقد عالج «أوبنهايم» الأوضاع التفصيلية للعلاقات بين عبيد وشمر وعرضها بشكل مفصل. ولكن نحن لا يهمنا هنا سوى النتيجة:

حقق الشمريون انتصاراً ساحقاً على عبيد عام ١٨٠٥ مما جعلهم يختفون سريعاً من الجزيرة وبالتالي انتقلت السيطرة من العبيديين إلى الشمريين.(•)

وجد الشمريون في الجزيرة ظروفاً حياتية أفضل بكثير من تلك التي كانت في موطنهم القديم نجد: فالأرض أغنى بالهطولات المطرية وبالتالي فيها مراعي أفضل من شبه الجزيرة العربية. وفي الجزيرة أسواق تصدير أكثر وأقرب، يمكن للشمريين أن يبادلوا بها منتجاتهم.

كما حصلوا هنا على عدة مزايا اقتصادية إضافية، نذكر منها فقط الأتاوات التي كانت تدفعها العشائر المستقرة وشبه المستقرة في أطراف الجزيرة. وبناء على هذه الحقائق فلا عجب أن جلب الشمريون دائماً أبناء عشيرتهم من نجد بين فينة وأخرى. وهكذا ثبتوا قوتهم التي استطاعوا الحفاظ عليها حتى العصر الحاضر.

إذن دخل شمر- جربا، أثناء فرارهم من أعدائهم الوهابيين، العراق كحلفاء للحكومة التركية، وقدموا لها خدمات كبيرة في حربها ضد الوهابيين، وفي تصفية صراعات داخلية كانت تتم بين حين وآخر، «لكنهم تسببوا بقلاقل مستمرة في الجو السلمي الذي كان يسود الجزيرة حتى ذلك الوقت» كما يقول أوبنهايم. كما نقل أيضاً شهادة لأحد المعاصرين آنذاك تظهر فيها نظرة الدوائر الحاكمة في العراق آنذاك إلى الشمريين وصفهم فيها عام ١٨٢٨ بقوله: «إنهم عقاب من الله مثلهم مثل الطاعون والجراد».

(•) عشيرة عبيد استوطنت مناطق عديدة في سورية والعراق ومعظمها على الضفة الشرقية لنهر دجلة بين الزاب الصغير وعظيم.

وقبل أن نتطرق إلى تفاصيل الحدث التاريخي في سورية والعراق، يبدو من المناسب أن نبحث في مسألة العشائر الشمرية المهاجرة من نجد والدور الذي لعبته عائلة شيوخ الجربا في ذلك.

في المراجع وردت ثلاث عشائر شمرية في نجد بالدرجة الأولى:

- العبدة في منطقة جبل أجأ.
- الأسلام في منطقة جبل سلمى.
- السنجاري في وادي عقدة الواقع بين هذين الجبلين.

يضاف إلى ذلك مجموعة أخرى ليست بذات الأهمية التي للمجموعتين السابقتين وهي «التومان» الذي يقول عنهم «مونتانييه» بشكل خاص «أنهم بدون مستوطنات مستقرة». هذه الإضافة تطرح السؤال هل كانت لبقية الشمريين، أو على الأقل لقسم منهم، أماكن استيطان ثابتة في مرتفعات نجد؟.

توصل عالم الأجناس الروسي بيرشيك، الذي تناول في بحثه حول **الاقتصاد والنظام الاجتماعي - السياسي لشمال الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين** والذي تطرق فيه أيضاً إلى الظروف الاقتصادية الاجتماعية لمنطقة نجد - إلى التأكيد بأن تأسيس إمارة ابن رشيد في جبل شمّر كان يتطلب درجة عالية من استقرار قبائل شمّر مقترناً باقتصاد الواحات ونشاط حرفي وتجاري قوي كشرط أساسي(•).

(•) حول مصير شمر في نجد، وبخاصة حول انهيار سيطرة بيت ابن رشيد، كتب ريحاني عام ١٩٢٨ تحت عنوان «مأساة شمر»

سبق أن ذكرنا أن عشائر بدوية شمرية قد هاجرت من منطقة جبل شمر إلى الشمال واستولت على منطقة الجزيرة حيث مارست حياة بدوية تعتمد على تربية الإبل. لكن مع الأسف لا تقدم المراجع الأدبية إشارات تتعلق بموضوع مدى حجم نسبة المستقرين والبدو بين سكان جبل شمّر وكيف كانت - بشكل عام الأسس- الاقتصادية الاجتماعية لسكان هذه المنطقة. لكن يغلب الظن بأن الأمر يمكن أن يتعلق - خلال الهجرات الكبيرة في نهاية القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر بالنسبة للعديد من المجموعات الشمرية - بتطور عكسي، أي من حياة الاستقرار إلى حياة البداوة. ويضيف بيرشيك حول هذه النقطة ما يلي:

«في نفس الوقت الذي سارت فيه عملية الاستقرار في شمال شبه الجزيرة العربية حصلت أيضاً عملية عكسية للانتقال إلى البداوة، فغارات العشائر البدوية والأتاوات المرهقة التي فُرضت على أماكن الاستيطان المستقرة على أطراف الصحراء ونضوب المجاري المائية وانعدام الري، والضرائب التي يجب أن تدفع للحكام الأتراك من جهة، ومن جهة أخرى لأمراء شمّر ونجد، كل ذلك أجبر السكان شبه المستقرين، بل حتى المستقرين، على ترك الأماكن الخصبة والعودة إلى حياة البداوة».

باستثناء «التومان» شارك أعضاء من جميع عشائر شمر الباقية بالهجرات نحو الشمال: عبدة والسنجاري وأسلام. هذه العشائر ما تزال حتى الآن تقطن منطقة الجزيرة في العراق وسورية (انظر الخارطة التي توضح أماكن سكناهم) وفروعهم العديدة موزعّة سواء في الشمال أم في نجد.

وهناك مجموعة تكونت حديثاً في العراق اسمها «خرصة» والتي سوف نتطرق إليها مستقبلاً بنوع من التفصيل. انضمت جماعة «أسلام» إلى جماعة «صبحي» المشكلة حديثاً ليشكلا معاً عشيرة «صايح» التي لا وجود لها في نجد.

كانت لبعض أعضاء عائلة شيخ الجربا مساهمة كبيرة في قيادة العشائر المهاجرة التي أول ما أشير إليها في معرض الحديث عن حروب شمّر ضد الوهابيين في نهاية القرن الثامن عشر. وعندما انتصر الوهابيون على شمر في نجد واستولوا على موطنهم الضيق، جبل شمر، رحل أنصار الشيخ مطلق الجربا إلى الفرات، بينما خضع القسم المتبقي من شمر بقيادة الشيخ ابن علي، للوهابيين المنتصرين.

توفي مطلق الجربا عام ١٧٩٨ وخلفه أخوه الأصغر فارس، ومنذ ذلك الوقت يُعتبر «الجد الأعلى لعائلة الشيخ التي تحكم القبيلة الآن». وقد ذكر المؤرخون العرب أن شمر جربا بقيادة الشيخ فارس كانت في شتاء عامي ١٨٠٢- ١٨٠٣ جنوبي جبل سنجار، أي في منطقة سكناها الحالية.

وحول نشأة تعبير «جربا» أخبرني شيخ «شمر جربا» الحالي «مشعان بن فيصل بن فرحان» التالي: كان جد عشيرة شمر، وهو شخصية أسطورية اسمه محمد، يتخذ منطقة سكنه في الحجاز بالقرب من جبل أقرع، أي أجرب، ومن اسم هذا الجبل اتخذ اسمه الثاني الإضافي أي «جربا» وقد احتفظت عائلة الشيخ بهذا اللقب كاسم لها(•).

مع الأسف لا يتضح من المراجع المتوفرة الموقع الذي كان يحتله أعضاء عائلة جربا آنذاك تجاه عشائر شمّر. ولا يمكن التحقق فيما إذا كانت وظيفة «شيخ المشايخ» موجودة في فترة الهجرة من نجد، وكيف مورست هذه الوظيفة فيما بعد في الجزيرة من قبل الأعضاء الذين قادوا جربا فيما بعد.

(•) يطلق اسم «بيت محمد» على كل نسل رؤساء عشائر جربا، من اسم هذه الشخصية الأسطورية.

وعلى أية حالة تقدم لنا الأحداث التاريخية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الجزيرة سبباً كافياً لافتراض أن جربا في ذلك الوقت كانت تمارس نفوذاً قوياً على عشائر شمّر، على الأقل إذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر القيادة السياسية.

وهكذا أصبحت شمّر تحت قيادة الشيخ صفوق بن فارس الذي لعب دوراً هاماً في الجزيرة، في الصراعات بين الولاة العثمانيين في العراق(•).

وقد لخص أوبنهايم الأحداث التاريخية في ذلك الوقت على الشكل التالي:

«كانت بغداد منذ بداية القرن الثامن عشر تُحكم من قبل سلالة باشوات قوامها مماليك جيورجيين، أراد السلطان أن يزيحها لصالح مطامحه بحكم مركزي. وبما أن الباشا آنذاك، داود (١٨١٧- ١٨٣٠) لم يكن يريد أن يتخلى عن منصبه، فقد تلقى خلفه المفترض، علي رضا، الأمر، بأن يزيحه بقوة السلاح. وقد انضمت شمّر بقيادة الشيخ صفوق إلى الحملة. وبعد الاستيلاء على بغداد (١٨٣١) أنكر علي رضا على الشمريين المكافأة التي وعدهم بها، مما حدا بهم للثورة على الحكومة. وخلال إقامتهم الشتوية في العراق نزلوا على أبواب بغداد وقطعوا الطرقات، فعمد علي رضا إلى الوسائل التركية المعهودة، فقد نصب شيخاً مضاداً (وهو شلاش ابن عم صفوق) وجندوا عنزة ضد شمّر عندما قطع هؤلاء الفرات في الخريف كالعادة. تراجع الشمريون ولكن مقابل ذلك كان على الحكومة أن تتحمل عنزة في عنقها طوال الشتاء، وقد برهن هؤلاء على أنهم عبء بحيث تم السماح لشمّر في شتاء العام التالي

(•) أطلق عليه الباحث شاو عام ١٨٨٣ اسم الزعيم الذي لا ينازع لكل شمر بين بغداد وأورفة والموصل والدير.

بعبور الحدود. ظلت القلاقل قائمة في شمّر طالما كان الشيخ صفوق على قيد الحياة. وعندما قتله الأتراك عام ١٨٤٧ نشب الشغب مرة أخرى بشكل جدي وتعرضت كل بلاد ما بين النهرين للنهب، بحيث لم يكن السكان يجرؤون على الخروج من بيوتهم».

كانت السياسة التي يتبعها الأتراك تجاه البدو، وهي سياسة «فرق تسد» هي الوسيلة المستخدمة في الغالب، والتي استمرت من خلالها الحالة غير المستقرة في البلاد.

قام باشا بغداد بتحريض العشائر ضد بعضها البعض بحيث كان يعد شيخ إحدى القبائل بمراعي قبيلة أخرى ويحصل بالتالي على هدايا لقاء ذلك.

ومن خلال هذه النزاعات العشائرية التي بزرها الباشا التركي، تناءى بكل حكمة وحقق فائدة مزدوجة من خلال هذه السياسة:

المال من زعيم العشيرة التي «وهبها» الأرض، **والراحة** من الخصوم الناشئين. كان الشمريون مصدر قلق دائم وعنصر إزعاج للحكومة التركية وبخاصة بعد وفاة الشيخ صفوق بن فارس، حيث حارب أبناؤه عبد الرزاق وعبد الكريم الأتراك بضراوة، وقد شاركت في هذه الحرب كل شمر تقريباً. وبذل الباشا جهوداً مضنية للانتصار بقواته على البدو «الذين كانوا يجيدون الفروسية أكثر من أفضل فرق الخيالة في أوروبا، حسب قول الباحث شاو».

سقط عبد الرزاق في الحرب ضد حاكم ماردين حسب ما ذكر «أوبنهايم» بينما استطاع أخوه عبد الكريم أن يفر أمام القوة التركية المتفوقة إلى «منتفيق» في أواسط العراق. ولكن سرعان ما تسرب إلى الأتراك عن مكان وجوده، فقاموا بإلقاء القبض عليه وأعدموه شنقاً حوالي عام ١٨٧٠ على جسر نهر دجلة بالقرب من الموصل.

الآن حصل الحدث السياسي الأهم من حيث نتائجه على شمر منذ هجرتهم من نجد، ألا وهو الانقسام إلى مجموعتين لكل منهما شيخها الأعلى من عائلة جربا:

فارس بن صفوق وهو أخ يصغر عبد الكريم الذي أعدمه الأتراك يتزعم شمر الغربية (المؤلفة بالدرجة الأولى من فروع السنجاري) وكان مقر إقامته الصيفي قرب نصيبين، بينما بقيت شمر الشرقية (صايح وعابدة وخرصة) بقيادة أخيه فرحان بن صفوق الذي ضرب خيامه في منطقة الموصل.

أدى هذا الانقسام إلى إضعاف كبير لموقع شمر، وزاد هذا الضعف عندما نشبت الحرب بين المجموعتين. فالتنافس بين أبناء عائلة الشيخ أدى أيضاً مرة أخرى فيما بعد إلى صراعات بين الشمريين.

سعى كل من زعيمي مجموعتي شمر لإقامة علاقة أفضل مع الأتراك. فقد سافر فرحان، شيخ شمر الشرقية ثلاث مرات إلى استنبول، إلى بلاط السلطان ليقدم له هدايا نفيسة (وبخاصة أحصنة من سلالة عريقة) وكان قبلها أي منذ السبعينات حصل لقاء ذلك على لقب باشا وصار يحصل على تقاعد شهري قدره /٢٤٠/ ليرة تركية، ومقابل ذلك كان عليه، كما ذكر "شاو" أن يكبح الشمريين التابعين له وأن يحرص على أن لا يطلقوا النار على العبارات العائمة في نهر دجلة نزولاً.

أيضاً حصل الشيخ فارس فيما بعد على لقب باشا، وبذلك صار يتمتع بنفس المرتبة التي يتمتع بها أخوه الأكبر. وبما أن فارس قد توفي دون أن يخلف أبناء، فقد انتقل منصب المشيخة إلى أبناء فرحان الذي توفي بدوره بعيد عام ١٨٨٠ مخلفاً وراءه ستة عشر ابناً (العدد الرسمي المسجل في قيود الدولة).

وفي خضم النزاعات على خلافة الشيخ استطاع أكبر أبنائه سناً، عاصي بن فرحان أن يظفر بها. وحتى عام ١٩١٧ كان أربعة من اخوته قد تناوبوا تباعاً على منصب الشيخ. وآخر واحد منهم حصل على اعتراف الأتراك كان الشيخ الأعلى لشمر الشرقية حميدي بن فرحان.

وخلال الحرب العالمية الأولى وقفت شمر بقيادة حميدي إلى جانب الأتراك وحاربت ضد الإنكليز. وقد ذكر «أوبنهايم» أن شيخ عايدة فقط، سعود الصالح تحول في نهاية عام ١٩١٦ إلى جانب الإنكليز. لذلك تم تجريد حميدي من سلطته بعد استيلاء قوات الاستعمار الإنكليزية على العراق وعين دحام بن هادي بن عاصي بدلاً عنه.

وبعد تنصيب الملك الهاشمي فيصل الأول على العرش من قبل الإنكليز عين ابن أخ عاصي وهو عجيل بن عبد العزيز بن فرحان في منصب شيخ المشايخ لكل الشمريين.

إذن وقع الشيخ عجيل تحت التأثير المباشر للبريطانيين وللحكومة العراقية التي نصبوها. لقد قام بتنفيذ إجراءات هامة لتغيير الوضع الاقتصادي للشمريين بتكليف مباشر من الإنكليز، سوف نتطرق إليها بالتفصيل في هذه الدراسة. سافر عام ١٩٣٧ إلى أوروبا حيث شارك في لندن في احتفال تنصيب الملك، كما كانت ألمانيا أيضاً إحدى محطاته.

ومقارنة مع منصبه فإن وضع شيوخ عشائر شمر الذين يعيشون في سورية كان مختلفاً جداً عنه من حيث الأهمية. حل محل عجيل الياور بعد وفاته ابنه أحمد في منصب شيخ مشايخ شمر العراق.

احتفظ أحمد بن عجيل بهذا المنصب حتى عام ١٩٥٩. ففي ١٤ تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ قامت في العراق ثورة مناهضة للإمبريالية ضد

حكومة الملك الموالية للبريطانيين قتل أثناءها الملك فيصل الثاني وتم طرد الإنكليز من البلاد.

أعلنت الجمهورية في العراق وتشكلت حكومة وطنية بقيادة عبد الكريم قاسم فتجمعت القوى الرجعية بكل توجهاتها المختلفة في شمال البلاد ونظمت في مطلع عام ١٩٥٩ انقلاباً بقيادة العقيد الشواف ضد حكومة قاسم، شارك فيه أحمد العجيل مع الشمريين المخلصين له.

ولكن تمرد الموصل هذا تم قمعه من قبل الجيش العراقي حيث تم اعتقال العقيد الشواف وزعماء آخرين للتمرد ومن ثم إعدامهم.

تمكن أحمد العجيل من الفرار إلى الأراضي السورية حيث لحق به معظم أتباعه. بذلك عانى الشمريون من خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات. وصدر حكم على شيخ مشايخ شمر- جربا آنذاك غيابياً بالإعدام من قبل محكمة ثورية في بغداد وتم تعيين ابن عمه مشعان بن فيصل بن فرحان في منصب شيخ مشايخ شمر بدلاً عنه.

وبعد أن هدأت الأمور في العراق ثانية عاد الشمريون بأفواج كبيرة من الأراضي السورية إلى الجزيرة. ومايزال مشعان بن فيصل حتى الآن زعيم عشائر شمر المعترف به من قبل الحكومة العراقية.(•)

ولم يكن لترسيم الحدود في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى بين سورية والأردن والعراق والمملكة العربية السعودية والكويت أي تأثير على حركة هجرة العشائر البدوية في تلك المناطق. فقد عبر بدو شمر مثلاً في هجراتهم الحدود الدولية بين سورية والعراق دون أية إشكالات.

(•) يجب الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الدراسة أجريت عام ١٩٦٢ (المترجم).

الوضع الحالي لشمر في الجزيرة هو على الشكل التالي تقريباً:

عبدة وخرصة وصايح تسكن فوق الأرض العراقية، بينما السنجاري بغالبيتهم في المنطقة الحدودية وعلى الجانب السوري. والعدد الأكبر من شمّر جربا يوجد ضمن أراضي العراق. أما مجمل عدد أفراد شمّر فلا يعرف بالضبط حتى الآن. مشعان بن فيصل قال أن عدد خيامهم يبلغ ٦٥ ألف خيمة، أي حوالي ٣٠٠ ألف نسمة، بمعدل خمسة أشخاص للخيمة الواحدة. وقد يبدو هذا الرقم مبالغ فيه.

بذلك نأتي على ختام هذه النظرة على الأحداث التاريخية المتعلقة بظهور شمّر جربا في منطقة الجزيرة، ولو أن هناك مجموعة من الأسئلة حول أسباب ودوافع الأحداث التاريخية في الفترة موضوع هذا البحث، لا يمكن الإجابة عليها. فاستعراض شامل ودقيق للتاريخ الحديث لشبه الجزيرة العربية متروك للأبحاث القادمة.

٤- العلاقة مع الجيران:

بعد أن تابعنا الخلافات التي قامت حتى ذلك الوقت بين شمّر والأتراك ومن جاء بعدهم من حكام، علينا الآن أن نتطرق إلى مسألة العلاقات مع المجموعات المجاورة. وسبق أن رأينا أن الشمريين قد جاءوا إلى الجزيرة كغزاة، كانوا من القوة بمكان، إذ استطاعوا طرد عشيرة «عبيد» وعشائر أخرى من أفضل مراعي منطقة الجزيرة وضمنوا لأنفسهم السيطرة على بلاد ما بين النهرين. وعلى أطراف الجزيرة كان هناك عدد من المجموعات الاثنية (العرقية)، تختلف عن بعضها البعض من النواحي الثقافية والاقتصادية الاجتماعية، أقاموا معها علاقات متنوعة.

ويمكن تصنيف جيران شمّر جربا على النحو التالي:

١- عشائر كردية في المناطق الحدودية الشمالية والشرقية للجزيرة وبخاصة يبرز هنا أكراد قبيلة ميلي. وهي مجموعة عرقية ذات مظهر ديني خاص وهم اليزيديون الذين يستوطنون بالدرجة الأولى جبل سنجار، وقد قاوم هؤلاء خطط الغزو الشمرية لفترات طويلة وبنجاح أيضاً.

٢- سكان المدن والأسواق التجارية السورية وشمال العراق بأغلبيتهم العربية.

٣- السكان المستقرون وشبه المستقرين في قرى شمال الجزيرة وعلى ضفاف الفرات، أي الفلاحين.

٤- ممثلين عن عشائر بدوية في شمال وغرب وجنوب الجزيرة، وبخاصة عشائر «عنزة» و«فدعان» و«سباع» والرولة والعمرات بالإضافة إلى مجموعات بدوية أخرى مثل بكارا والحديديين والجبور والحسينيين والموالي والعقيدات والمونطفق والدوليم.

٥- بعض عشائر من الطبقة الأدنى في الصحراء السورية وإلى حد ما في الجزيرة مثل الصليب أو الصلوبا والكولية.

٦- بعض العشائر من أصل غير عربية التي جاءت حديثاً إلى الجزيرة مثل (الشيشان والشركس).

كانت العلاقات بين شمر وهذه المجموعات العرقية المذكورة آنفاً والمجاورة لهم سلمية بشكل عام باستثناء بعض الحالات. حاول الشمريون غالباً إخضاع جيرانهم وأخذ الأتاوات منهم. وعندما لا يتم لهم ذلك فإن الغزوات والاعتداءات كانت دائمة واردة على جدول الأعمال.

والآن لنعالج مسألة علاقة عشائر شمر بجيرانهم حسب ترتيبهم آنف الذكر. ففي الأكراد وجد الشمريون شعباً يختلف عنهم ثقافياً ولغوياً واقتصادياً- اجتماعياً كل الاختلاف.

يلخص «أوبنهايم» اللقاء بين شمر والأكراد علىَ النحو التالي:

«.... في الشمال على أطراف الجبال شكل الأكراد الذين يعيشون هناك منعزلين، جداراً طالما حاول الشمريون- وغالباً دون جدوى- أن يتخطوه».

وبشكل خاص ألحقت عشائر قبيلة ميلي، التي تستوطن منطقة ما بين أورفة وماردين وجبل عبد العزيز هزائم قاسية بالشمريين. وشكل قائدهم إبراهيم باشا فرقة عسكرية غير نظامية من أكراد قبيلة ميلي اسمها «الحميدية» دخلت في خدمة الحكومة التركية التي كانت تقدم لها السلاح.

بهذه الفرقة استطاع الأكراد إفشال غزوات الشمريين والإغارة عليهم للاستيلاء على قطعان الماشية وممتلكاتهم الأخرى(•).

وعلى عكس ذلك كان وضع أولئك الأكراد الذين كانوا يعيشون في أماكن كانت قريبة من مجال سيطرة الشمريين، مثل أكراد سنجار (المعروفة في المراجع القديمة باسم بلد سنجار) وقد ذكر عنهم الباحث «شاو» ما يلي:

«هؤلاء أنفسهم كان لهم سيدان، عليهم أن يدفعوا لهما الضرائب، العشر للسلطان والخوة للشيخ فارس ... وكان فارس يحظى بالنصيب الأوفر، لأن السلطان بعيد وموظفوه يمكن شراءهم، بينما كانت الأمور في غاية الجدية مع شمر، فإذا ما امتنع الأكراد عن الدفع أو أهانوا البدو فعليهم أن لا يظهروا خارج حدود جبالهم» والحالة لم تكن مختلفة بالنسبة للموليا والدوكرية والشيشية. وهي عشائر كردية كانت لها قراها على أطراف الجزيرة وكانت ملزمة بدفع الضرائب لشمر.

(•) تحدث أوبنهايم عن حادثتين من حوادث الحروب بين شمر وأكراد ميلي حدثتا في بداية القرن العشرين وكلتاهما انتهت بانتصار الأكراد. اضطر فيها الشمريون إلى الهروب تاركين ممتلكاتهم.

سبق أن ذكرنا أن اليزيدين الذين يعيشون في قراهم المنتشرة في وديان جبل سنجار لم يلتزموا بدفع الضريبة لشمر(•). وقد برز بشكل خاص في الصراع ضد شمر الزعيم اليزيدي حسين القانجو الذي اعتنق الإسلام وتحالف مع إبراهيم باشا زعيم أكراد ميلي.

أما العلاقة مع سكان المدن والأسواق في المناطق المتاخمة للجزيرة فكانت متوترة في بداية الأمر. وخوفاً من هجمات البدو المحاربين فقد بنى سكان المدن أسواراً عالية حول مناطق سكناهم أو حفروا حولها الخنادق. (ذكر ذلك الباحث روس عام ١٨٣٩ حول مدينة تكريت الواقعة على نهر دجلة وذلك على أيام الشيخ صفوق).

كما ذكرت السيدة بلونت «اكتفى باشوات الموصل وبغداد بإصلاح أسوار مدنهم وانتظار الأحداث بفارغ الصبر. توقفت التجارة في الصحراء كلياً وهجرت القوافل الطرق المباشرة القديمة وبدأت تستخدم الطرق الطويلة التي تتجنب المرور في الصحراء عبر ماردين وأورفة، وفعلت ذلك بخوف واضطراب».

ولكن فيما بعد تحسنت هذه العلاقات وأصبحت أكثر سلمية لأن الشمريين كانوا بحاجة ماسة للتجارة مع سكان المدن. **(سوف نأتي إلى ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني)**. ورغم استمرار فرض ضريبة العبور على القوافل التجارية إلا أنهم أقلعوا عن السلب والنهب.

والآن إلى موضوع الفلاحين وشبه البدو الذين استوطنوا كلياً أو جزئياً في وديان جبال الجزيرة ومارسوا الزراعة فيها. كان هؤلاء يجدون أنفسهم دائماً في قبضة البدو، وكانوا ملزمين بدفع الخوة لهم سواء على شكل حبوب من منتجات أرضهم أو على شكل أموال. وكانت هذه الخوة

(•) على نقيض ذلك ذكر شاو أن اليزيديين في سنجار كانوا يدفعون الضرائب لشمر.

تشكل بالنسبة لهؤلاء الفلاحين عبئاً اقتصادياً ثقيلاً. وقد لاحظ الباحث شاو «إلى هذا الحد كان حال الضرائب في الصحراء قاسياً، لكنه مع ذلك كان مطبقاً بكل دقة وبقساوة بحيث كانت حياة دافعي الضرائب عبارة عن واقع أليم، فعلى سبيل المثال لم تكن القرى الواقعة على تخوم الصحراء قادرة على البقاء إلا بصعوبة».

في عداد العشائر التي كانت ملزمة بدفع الضرائب في منطقة الجزيرة نذكر بالدرجة الاولى التالية: الحديديين، الجحيش، البومتيود، الجبور، عفارة، كوشار، الحسينيان، بقارة، الرشيد، السنان، العقيدات.

وقد استمر العبء الاقتصادي الثقيل على هذه العشائر التي تمارس الزراعة حتى العشرينات من القرن العشرين .

كانت العلاقات مع العشائر البدوية الغريبة التي كانت تجوب المناطق المجاورة لشمر جربا غالباً عدائية، حيث الغارات المتبادلة للاستيلاء على المراعي و أماكن وجود المياه، ومن خلال الغزو المتبادل الذي يشكل ظاهرة مميزة عند البدو.

أما عشائر الطبقة الأدنى التي كانت تظهر أحياناً في قطاع شمر فقد كانت تترك بسلام، إذ كانت محتقرة بسبب منشئها الوضيع، يضاف إلى ذلك أنها كانت فقيرة جداً لا فائدة كبرى ترجى من غزوها .

حول الصليب (أو الصلوبة) ذكر «دوغوتي» «أن الصلوبة لا يهاجمون أحداً ولا أحد يؤذيهم». وكتب «أويتينغ» التالي: «يعيش الصليب مبعثرين وبكل الترحاب بين البدو، ولكن لا يعتبرون في عدادهم، فهم متواضعون، خجولون، لا يربون إلا الأغنام والحمير و يزاولون صيد النعام والغزلان».

بالنسبة «للكولية» فالأمر يتعلق بمجموعات صغيرة من غجر رحل لم تتوفر بعد أبحاث عن أصولهم، كانوا يجولون في كل أنحاء العراق، ويظهرون أيضا في الجزيرة ويجلبون معهم من خلال رقصاتهم و أغانيهم و عروضهم الموسيقية تنوعا في حياة البدو الروتينية. تمارس نساؤهم قراءة الفأل و وشم النساء البدويات.

بشكل عام تبدو علاقات شمّر مع عشائر الطبقة الأدنى لا أهمية لها إطلاقا من الناحية الاقتصادية .

أخيرا لابد من بحث موضوع علاقة شمر مع الأقليات غير العربية التي كانت تستوطن الجزيرة الشمالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. والأمر يتعلق هنا بالشراكس الذين كانوا متوضعين قرب الرقة، وكذلك بمن يطلق عليهم اسم الشيشان، وهم مجموعة شعبية من القوقاز كانت تسكن قرب رأس العين.

كتب أوبنهايم في وصف عام «اتخذ العرب من اللحظة الأولى موقفا عدائيا من هؤلاء القادمين الجدد». وانشغل الشمريون في الستينات من القرن التاسع عشر بالغزوات على الشيشان أسفرت عن خلافات جدية بين الطرفين. وقد تحدث أوبنهايم، الذي جمع معلومات حول ذلك أثناء التنقيبات في تل حلف، عن هزيمة نكراء للشيشان في بداية السبعينات في معركة جرت شرقي نصيبين، ومنذ ذلك الوقت تقلص عدد الشيشان كثيراً.

وتشكلت العلاقات مع التركمان الذين كانوا يستوطنون تل عفار على نفس شاكلة ما تحدثنا عنه بالنسبة لسكان المدن، أي بدأت العلاقات عدائية ثم تطورت فيما بعد إلى سلمية على قاعدة تبادل السلع.

٥- تأثير الإسلام:

من أجل استكمال الصورة العامة لشمر فإنه من المناسب أن نتطرق أيضاً إلى الناحية الدينية عندهم وبخاصة أن للتصورات الدينية عند البدو، حتى في الحياة الاقتصادية، دوراً هاماً إلى حد ما (كتقاليد الذبح أو تناول الطعام و غيرها)، فالشمريون مسلمون على المذهب السني[•].

أما الوقت الذي اعتنقوا فيه الإسلام فلم يعد يمكن التحقق منه تاريخياً، لكن التخمينات تقول أن ذلك ربما كان قد تم بعد وقت قصير من ظهور الرسول (ص).

وشمر، مثلهم مثل معظم بقية البدو، ليسوا حماة متعصبين للعقيدة الإسلامية. وهذه حقيقة معترف بها بشكل عام، فقد نوّه عنها الكثير من الباحثين.

يقول «حتي» في كتابه «تاريخ العرب» الصادر في لندن عام ١٩٦٠:

«بالنسبة للبدوي فإن الدين غير متأصل في قلبه، ففي الآية رقم ٩٨ في سورة التوبة ورد أن الصحراء العربية أكثر ثباتا على الكفر والنفاق. وحتى أيامنا هذه فإن إيمانهم بالنبي لا يتعدى اللسان» وقد توصل الباحث «هارتمان» إلى نتيجة مطابقة لذلك، حيث ناقش فكرة الغرب الخاطئة التي اعتبرت أن الإسلام هو دين البداوة. وقال في هذا الصدد:

«كانت مكة والمدينة منذ القديم مجتمعا مدنيا . ونحن نعلم مدى ما بذله النبي من جهود لتجاوز الخلافات بين القبائل التي تشكل ناحية أساسية للتنظيم الاجتماعي عند البدو من خلال وحدة العقيدة . ولم تتغلغل العقيدة التي جاء بها الرسول عميقا بين البدو إلا في حالات استثنائية». ويذكر أوبنهايم أن الدافع الذي حدا بالبدو للانضمام إلى عقيدة الرسول و المشاركة في غزواته كان الحصول على الغنائم.

(•) ذكر أوبنهايم وغيره أن عشائر جنوب العراق هم غالباً على المذهب الشيعي وأن التناقضات الدينية بين السنة والشيعة في العراق تشكل مسألة يجب عدم الاستخفاف بها.

ومن المراجع المختصة حول شمّر هناك ما يتوافق مع هذا القول ، حيث قلما يتقيدون بالصلوات المفروضة في العقيدة الإسلامية، أفراد قلائل فقط من عائلة الشيخ يتقيدون بأداء الصلوات كما ذكرت «بلونت» عام ١٨٧٩ و«شاو» عام ١٨٨٣.

وهذه الحقيقة الأخيرة قيمتها السيدة «بلونت» كمظهر من مظاهر انحطاط الحياة البدوية الأصلية، حيث لاحظت: «الممارسة الدينية قد تؤخذ على أنها دليل أكيد على المستوى الأخلاقي المنخفض في القبيلة» وأثناء إقامته لدى شمّر جربا لم يلاحظ مؤلف هذا الكتاب ممارسة لفروض الصلاة إلا في حالات نادرة جداً.

ومن بين بضع مئات من البدو الذين وجه إليهم السؤال وجد هناك رجل واحد فقط قام بأداء فريضة الحج إلى مكة وحصل نتيجة ذلك على لقب حجّي، وقلما دخل أحد منهم جامعا في حياته. الأحداث الهامة فقط في حياة البدوي مثل الولادة والزواج والدفن تكون عادة مترافقة بالحد الأدنى من المراسم الدينية(•).

ولكن يستخدم الشمّريون مجموعة من العبارات الدينية المستخدمة عند جميع المسلمين و المتعلقة بمجريات الحياة اليومية، مثل بداية و نهاية تناول الطعام والشراب، حيث تبدأ بمثل هذه العبارات المعروفة ومن أهمها قولهم «باسم الله» و«الحمد لله» و«إن شاء الله». ويذكر الباحث «هيس» مجموعة أخرى على شاكلة هذه العبارات.

(•) غالباً ما يقوم بها رجل يعرف القراءة والكتابة تتم دعوته من المستوطنات المتواجدة على أطراف الجزيرة يدعى «الملا» لقاء أجر.

أما التقيد بالصوم خلال شهر رمضان فهو مشقة غير عادية تحت ظروف الحياة في البادية. ولذلك فليس عجيبا أن لا يتقيد البدو بالصوم إلا عندما يتواجدون قريبا من المستوطنين حتى لا يقال عنهم أنهم كفار (كما كتب «رزوان» عام ١٩٣٤).

وعلى نقيض ذلك تماما فإن الشمّريين يراعون بشدة عرفا فرضه الإسلام وهو الختان (الطهور) وهذا مرتبط باحتفال كبير تقوم خلاله الفتيات بأداء رقصات . وحقيقة إجراء الختان بالنسبة للصبيان ليست دليلا على الإيمان العميق بالعقيدة، لأن عادة الختان كانت منتشرة في الشرق الأوسط قبل ظهور الإسلام بزمن طويل. ونحن نضم صوتنا إلى صوت المؤلفين الذين اقتبسنا أقوالهم مسبقاً ونؤكد على أن الإسلام لم يمس تفكير وسلوك البدو إلا بشكل سطحي، ولم يلعب دوراً رئيسياً سواء في حياتهم الاجتماعية أم الاقتصادية.

وبالمقابل توجد لديهم مجموعة من التصورات السحرية والروحية احتفظ بها البدو منذ ما قبل الإسلام. نذكر منها بالدرجة الأولى الاعتقاد بالعين الشريرة التي يتصف بها بعض الأشخاص وتؤدي إلى إلحاق الأذى بمن تصيبه. ولذلك تتم وقاية الأطفال والحوامل وكذلك قطعان الماشية منها بالتمائم والخرزة الزرقاء وقواقع الحلزون والخرق السوداء.

ويسود الاعتقاد بأن وقاية الأطفال من العين الشريرة يمكن أن يتحقق بجعلهم يظهرون قذرين ويرتدون أسمالاً بالية. وهناك نوع آخر من وسائط الدفاع ضد التأثير الشرير وهو الاحتفاظ بخصلة من شعر رأس الصبي بعد قصه أول مرة وتعليقها داخل الخيمة. وهذه الممارسة السحرية تسمى

«تبرك» كما أن قصة شعر الصبيان على شكل «عرف الديك» المسماة «حواف» مثلها مثل عادة الوشم بالنسبة للبنات مرتبطة إلى حد ما بقضايا تتعلق بالسحر.

وفي هذا المجال يجب أن نتطرق إلى الأهمية المختلفة للون جلود (فراء) الحيوانات البيتية التي يقيم لها البدو وزناً كبيراً. وقد علقت السيدة «بلونت» على ذلك بقولها:

«للبدو أحكام معينة على اللون والوسم على أفراسهم ويعتبرون هذا محظوظ وهذا غير محظوظ».

ويعتقد الشمريون بالجن، ويميزون بين الجن الصالح والجن الخبيث الذي يسكن في أماكن معينة مثل الأرياف الصخرية. وينظر إلى العاصفة الدوارة على أنها جن خبيث لأنها تقتلع أحياناً خيام البدو. ويعتقدون أن بإمكانهم طردها عن طريق التلفظ بعبارات معينة.

الفصل الثاني

أسس الحياة الاقتصادية

١- نمط الحياة:

أهم ما يميز حياة شمر، مثلهم مثل بقية البدو، هو نمط حياتهم البدوية، أي التبديل المستمر لمكان إقامتهم الذي يعتبر حاجة ضرورية تمليها الظروف الطبيعية الخاصة للبادية. وقد سبق للرحالة «راوفولف» الذي أشار إلى ذلك، حيث كان أول من ذكر كلمة «بدو» في المراجع الصادرة باللغة الألمانية، وذلك منذ نهاية القرن السادس عشر. فقد كتب في وصف رحلته مايلي: «هناك في الصحراء تعيش شعوب عربية يطلق عليها اسم بدو، لا مساكن مستقرة لها، بل هي دائمة الترحال في هذه المنطقة بمجموعات بحثاً عن مراع جيدة لأغنامها وإبلها».

فالبحث المستمر عن مراع وفيرة العشب يعتبر في المراجع المختصة السبب الرئيسي لحركة البدو مربي الماشية. بالإضافة إلى ذلك هناك عامل آخر لا يقل أهمية، ألا وهو توفر ماء الشرب للإنسان والحيوان، سواء على شكل تجمعات مائية سطحية أو على شكل آبار.

وفي مناطق الجزيرة تتغير أحوال الماء والمرعى- كما سبق أن شرحنا في الفصل الأول- تغييراً كبيراً، بحيث يمكن أن نميز بين فترتين للترحال عند شمر:

١- الترحال بمجموعات صغيرة تضم ما بين خمس إلى عشر خيم خلال موسم الأمطار [من كانون أول (ديسمبر) حتى نيسان (أبريل) أو أيار (مايو)]. ففي هذه الفترة لا تكون المواشي - وبخاصة الجمال - بحاجة إلى الماء بصورة مستمرة، حيث يتوفر الكلأ الأخضر الطري. ينصب المخيم «فريج» بالقرب من التجمعات المائية السطحية لأن البدو في تلك الفترة لا يحتاجون إلى الآبار العميقة. ويخضع تغيير المضارب لظروف المرعى المحلية وحجم القطعان، حيث تتراوح فترة الإقامة في منطقة واحدة ما بين أسبوع وأسبوعين.

وغالباً ما يتم إرسال بعض الرجال في رحلة استطلاعية يتفقدون فيها أماكن الرعي المناسبة قبل بدء الرحلة. هدف هؤلاء المستطلعين هو اكتشاف أماكن رعي خصبة لمواشيهم تتوفر فيها المياه لإروائها، وغير معرضة للرياح القوية.

خلال تلك الفترة يتقدم الشمريون بعيداً حتى المناطق الصحراوية الجنوبية ولكن بشرط أن تكون الأمطار كافية لإنبات ما يكفي من الغطاء النباتي. تأتي هذه الفترة من السنة للبدو بظروف حياة مفعمة بالبشرى والأمل. وسوف نطلق على هذه الفترة تعبير «الترحال الربيعي».

٢- بعد توقف هطول المطر ومع ارتفاع درجة حرارة الجو بدءاً من أيار (مايو)، تجف مصادر المياه السطحية المتجمعة فيضطر البدو إلى الإقامة حول أقرب آبار المياه الجوفية. تتجمع عدة مجموعات من البدو الرحل حول الآبار القليلة في مخيمات كبيرة (عربان) يمكن أن يبلغ تعداد خيمها /٣٠٠/ خيمة. ويتم إرسال قطعان الماشية مع الرعاة إلى مناطق بعيدة نسبياً ولكن حول منطقة البئر، وتعود إلى منطقة المضارب على فترات معينة لإروائها، وهذه الفترات قد تطول أو تقصر حسب نوع الماشية.

وليست هناك من حاجة إلى تغيير المضارب الصيفية في الجزيرة، لأن مخزون المياه الجوفية الذي يغذي الآبار لا ينضب خلال موسم الجفاف. قد يحدث ويتم تغيير مكان المضارب أثناء فترة الجفاف ولكن ذلك في ظروف غير عادية. لأن كل الآبار تكون قد وزعت على عشائر شمر منذ بداية فترة الجفاف.

بشكل عام يمكن أن يقال أن ترحالاً نحو الشمال يبدأ مع نهاية فصل الأمطار يشمل كل عشائر شمر، لأن القسم الأكبر من المطر يهطل في المناطق الشمالية التي توجد فيها أفضل المراعي. ويتميز نمط حياة شمر خلال فترة الجفاف بما يمكن أن نطلق عليه مصطلح «البداوة المستقرة» لأن الترحال إلى مناطق المراعي يقتصر في هذه الفترة على الرعاة الذين يرافقون قطعان الماشية، بينما يظل بقية أفراد العشيرة في الصيف قرب البئر.

يؤدي الجهد الجسدي الدائم نتيجة الترحال وتقديم الخدمات للقطعان والعمل المضني على الآبار إلى تشكل حالة جسدية مميزة عند البدو، يختلفون بها عن السكان المستقرين. وقد اتفق مختلف الكتّاب الذين تناولوا حياة البدو على الملامح التالية التي تميز البدو: هيئة جسدية ضامرة ونحيفة. وقدرة تحمل مشقة جسدية كبيرة. شيخوخة مبكرة نسبياً نتيجة الاجهاد الجسدي القوي، معدل وفيات عالية بين الأطفال نتيجة نقص في الشروط الصحية والاستسلام للعديد من الأمراض.

بالإضافة إلى ذلك يجب التنويه إلى أن البادية الجافة التي يعيش فيها البدو فقيرة نسبياً بالبكتريا. أما مقارنة مع أجزاء أخرى من العالم فلا يمكن النظر إليها كمصدر للأمراض أبداً.

إجمالاً يمكن القول أن نمط الحياة البدوية قد فرض على شمر ظروف حياة في منتهى القسوة والعوز، وهذه الحقيقة تتناقض مع رأي الرحالة الفرنسي إلى الشرق «روسو» الذي روى عن لسان أحد البدو على ضفة الفرات- بطريقة رومانسية واضحة - ما يلي:

«لدينا الاستقلال والصحة والسرور لا أحد يستطيع إفساد هدوئنا، فنحن نستطيع أن نرغب بمزيد في هذا العالم أو ندخل من الباب الذي يخرج منه الآخرون بعد عدة سنوات من الحياة».

٢- الثقافة المادية أو الأدوات التي يستخدمها البدو:

بعد رسم ملامح نمط حياة بدو شمر الأصلي، التي كانت تميزهم في الفترة التي أعقبت رحيلهم من نجد إلى الجزيرة يجب علينا استعراض العلاقات الاقتصادية التي يقوم على أساسها التغير في النسيج الاقتصادي لعشائر شمر، الذي سنعرضه لاحقاً.

إحدى الصعوبات التي تواجهنا لدى استعراض هذه العلاقات، هي أن معظم المراجع تتحدث عن الحالة التي كانت عليها هذه العلاقات خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بينما لا تتوفر معلومات عن الفترة التي أعقبت الهجرة إلى بلاد ما بين النهرين. ويضاف إلى ذلك النقص الذي تعاني منه هذه المراجع المتوفرة بين أيدينا.

أمكنني تلافي هذا النقص إلى حد ما من خلال سؤال المتقدمين بالسن من البدو ومن خلال الملاحظة الشخصية أثناء إقامتي في منطقة الجزيرة. وهذه المادة نستخدمها لاستعراض العلاقات الاقتصادية الاجتماعية الأصلية إذا ما كان هناك ضمان بأنها تقدم وصفاً حقيقياً للأحوال السابقة. فقسم كبير من الثقافة المادية ما

يزال الآن على حاله كما كان في السابق، مثل الأدوات اليومية المستعملة في البيت أو الخيمة واللباس والحلي ومواد الزينة وجزء من أدوات العمل.

ويجب أن ننوه بكل وضوح في بداية هذه الفقرة إلى أن أدوات الثقافة المادية لعشائر شمر قلما تختلف عن مثيلتها لدى بقية العشائر البدوية. ويتضح هذا التشابه عند مقارنة ما لدى شمر من ثقافة مادية من مؤلفات «ديكسون» حول عشائر وسط وجنوب العراق وبدو الكويت، وما كتبه «سونيت» عن بدو فلسطين وما كتبه «بوخمان» عن «سباعة» في سورية وهي إحدى فروع بدو «عنزة».

ولتعليل هذا التشابه الواضح للعيان يمكن للمرء أن يرى سواء في ممارسة نفس النشاط الاقتصادي لهذه العشائر أم في الأصول الإثنية لمربي الجمال من القبائل العربية الضاربة جذورها عميقاً في التاريخ والتي لم تتطرق إليها الأبحاث الاتنوغرافية بشكل كاف حتى الآن.

الخيمة: مسكن الشمريين هو الخيمة المستطيلة التي يطلقون عليها اسم بيت شعر، المنسوج من شعر الماعز الأسود الطويل، وعادة ما تقوم النساء البدويات بنسجه أو يتم الحصول عليه من الحرفيين الذين يبيعونه جاهزاً في الأسواق.

ونسيج الخيمة نفاذ للهواء لكنه ينكمش عند هطول المطر وتسد مساماته بحيث لا ينفذ الماء منه إلى داخل الخيمة مهما كان هطول المطر قوياً.

يمكن استخدام النسيج الذي يصنع منه بيت الشعر لفترة قد تمتد حتى عشر سنوات. تتم خياطة أربعة إلى ستة قطع من هذا النسيج كل منها بعرض متر واحد مع بعضها البعض بخيط ثخين باليد لتشكل معاً سطح الخيمة (شقاق).

ويتعلق طول الخيمة بعدد أفراد العائلة - عادة تسكن كل عائلة في خيمة منفردة - والإمكانات المادية المتوفرة لصاحبها، وعادة ما تكون خيمة الزعيم أكبر من خيمة البدوي العادي.

كتب الباحث «شاو» في هذا المجال «خيام شمر هي غالباً صغيرة لها عمود أو عمودان، أما الخيام ذات الستة إلى ثمانية أعمدة فقلما يراها المرء. وغالباً ما توجد واحدة فقط من هذا النوع في كل مضرب من المضارب ألا وهي خيمة الشيخ».

والبدو أنفسهم يصفون خيامهم على الشاكلة نفسها التي وصفها «شاو» أي بعدد الأعمدة عندما يحددون حجم واحدة من الخيام. وأعمدة الخيام عبارة عن جذوع أشجار غليظة مستقيمة النمو بطول مترين ونصف وغالباً ما يتم الحصول عليها من الأسواق القريبة، لأن الجزيرة – كما سبق أن ذكرنا – فقيرة جداً بالأشجار.

أهم هذه الأعمدة هو العمود الوسيط. ويتم رفع جدار الخيمة بمجموعة من الأعمدة المتوسطة، وتستند على مجموعة أخرى من الأعمدة الجانبية الصغيرة يطلق عليها اسم مجدم (جمعها مجادم).

وفي النقطة التي تلتقي فيها أعمدة الخيمة مع النسيج تتم تقوية نسيج الخيمة من خلال خياطة شرائط من نفس المادة يطلق عليها اسم تريعجة (جمعها تراعيج)، وفي نهايات شرائط التقوية توجد قطع خشبية للربط تسمى «خرب» تثبت عليها حبال الخيمة.

يمكن أن نميز بين نوعين مختلفين طويلين من حبال الخيمة. قصيرة في الزاوية العليا تتدلى نحو الأسفل وطويلة تؤدي إلى زاوية منفرجة مع الجدار الخلفي للخيمة. وكلاهما تغرس بأوتاد مدببة في الأرض.

أما الأعمدة الجانبية التي يكون أغلبها يشكل زاوية ميل معينة مع الأرض فتربط برباط قصير بالجهة الداخلية لجدار الخيمة حتى لا تميل أو تتزحزح.

تعطي الحبال المربوطة من جميع الجهات الخيمة ثباتاً كافياً بشكل عام. وعند هبوب ريح قوية يتم وضع الأعمدة الجانبية بشكل منبسط وذلك للتقليل قدر الإمكان من نقاط الضعف. وتتم زيادة الثقل على الأوتاد الجانبية بواسطة الحجارة حتى لا تقتلعها الريح، وقد ذكر «موسيل» بعض الأمثلة على حالات اقتلعت فيها العاصفة خيماً بدوية. تبقى الجهة التي تدير ظهرها للريح مفتوحة طيلة النهار بينما الجهة الخلفية مغلقة بنسيج من الصوف يسمى رواك أما ليلاً فتعلق قطعة من هذا النسيج أيضاً على القسم الخلفي.

تزين كل خيمة بجدار فاصل من نماذج نسيجية يبلغ ارتفاعه متر ونصف إلى مترين يسمى «ساحة» يقسم الخيمة إلى قسمين، أحدهما عادة على يمين مدخل الخيمة يشكل قسم الرجال «ربعة» والآخر مخصص لنساء وأطفال صاحب الخيمة كغرفة جلوس ومعيشة يسمى «محرم». يتم استقبال الضيوف في قسم الرجال حيث الموقد الذي يتم عليه تحضير القهوة في خيمة الشيخ.

يصف «أوبنهايم» البناء الداخلي للخيمة على الشكل التالي:

«يفرش قسم الرجال على الجدار الداخلي الحاجز وعلى الجوانب بالفرش واللباد والسجاد والوسائد، حسب إمكانيات صاحب الخيمة، لاستقبال الضيوف. وفي الخيم الكبيرة يكون هذا الفرش على شكل نصف دائرة أو حدوة حصان».

وفي قسم النساء يوجد بالإضافة إلى مهد الأطفال الصغار (حبابة) الفرش والأغطية وأكياس المؤونة وأدوات المطبخ وكذلك أدوات العمل والنقل. وتنصب خيام مضارب البدو بشكل عام على شكل صفوف.

ويذكر «أوبنهايم» أيضاً أنها تنصب على شكل نصف دائرة (دوار). ويستخدم هذا النظام بشكل خاص إذا ما كانت المضارب معرضة لخطر يتهددها من قبل أعداء، فتكون بهذا الشكل نوعاً من التحصينات.

أما نظام إقامة المضارب على شكل دائري، الذي نجده عند بقية الشعوب، فهو على ما يبدو غير مستخدم لدى البدو. ورغم أن الباحث «دوغتي» قد تحدث عن مضارب بدوية دائرية الشكل في قلب شبه الجزيرة العربية، إلا أنه أشار إلى أنها حالة استثنائية وليست قاعدة.

يتم نصب الخيام بمدة قصيرة نسبياً بحيث يتراوح الزمن الذي تستغرقه إقامة الخيمة ما بين ثلاثين إلى ستين دقيقة حسب حجم الخيمة وعدد المشاركين في نصبها. ويعمل النساء والرجال معاً في نصب الخيمة.

أول ما يفرش هو قماش الخيمة على الأرض ثم تمد الحبال بالاتجاه المرغوب وتنصب الأوتاد بالأرض بدقها بواسطة مطرقة خشبية أو بالحجارة ثم توضع الأعمدة تحت قماش الخيمة ويتم تجليسها بشكل قائم حيث ينتصب سطح الخيمة قائماً على هذه الأعمدة.

ويتعاون رجال المضارب في هذا العمل الشاق. وبعد ذلك يجب شد حبال الخيمة وتثبيت الجدار الخلفي والستار الفاصل بين القسمين. وبذلك تكون الخيمة قد أصبحت جاهزة لإيواء الأثاث والمتاع.

أما فك الخيمة فلا يستغرق عادة الوقت التي يستغرقه نصبها، وإذا ما كانت الخيمة كبيرة فيتم فك القطع التي يتألف منها سقف الخيمة عن بعضها البعض وطيها قبل الرحيل، لأنه إذا ما بقي السطح قطعة واحدة تشكل عبئاً كبيراً على البعير الذي سيحملها. ولكن يجب التنويه في هذا الصدد أنه مؤخراً عندما برز التفاوت في الثروات من حيث الغنى بين أفراد عشائر شمر، وكذلك عند بقية العشائر البدوية، بشكل واضح، أصبح شيوخ العشائر وزعماؤها قادرين على تملك خيم ضخمة جداً يقيمون فيها خلال الربيع. وأصبحت مثل هذه الخيم غير قابلة للنقل، بل تبقى في مكان معين.

وقد ذكر الباحث «دكسون» أن أصحاب مثل هذه الخيم الضخمة كانوا كبار شيوخ عنزة وشمر الشمالية مثل ابن شعلان، ابن هزال، عجيل الياور وكذلك أيضاً أمراء الجزيرة العربية مثل السعود وشيوخ البحرين والكويت وقطر.

وهكذا تقف على سبيل المثال خيمة شيخ شيوخ شمر الحالي على بئر «زمان» الواقع على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً شمال غرب الموقع الأثري هترا أو «الحضر» ولهذه الخيمة ثمانية أعمدة يبلغ أقصى ارتفاع لها حوالي سبعة أمتار. يبلغ طول الخيمة حوالي ٤٠ متراً وعرضها ١٥ متراً. أما الخيم التي ذكرها «دوغتي» وتحدث عنها «سونن» والتي أطلق عليها اسم «الخيم الصيفية» ونصبها أسهل من نصب خيمة عادية، فليست معروفة لدى الشمريين.

الأدوات المنزلية: بما أن مساكن البدو خفيفة وقابلة للنقل وتتناسب مع نمط الحياة المتنقلة، فإن الأدوات المنزلية عند الشمريين تقتصر على الضروريات. أدوات المنزل في معظمها مصنوعة من المعدن والخشب والجلد، وقلما نجد أدوات مصنوعة من مواد قابلة للكسر، مثل الزجاج والفخار، وإذا ما وجدت فإنها حالات استثنائية ولا تعتبر من صلب الثقافة المادية لدى البدو.

القسم الأكبر من الأدوات المنزلية في خيمة البدو يوجد في قسم النساء، حيث يتم تحضير الأطعمة وأداء كافة الأعمال المنزلية في خيمة البدوي. ويستخدم البدو للطبخ أوعية حديدية أو نحاسية وأخيراً أدوات مطلية بالقصدير.

الآنية الصغيرة منها تسمى طنجرة وتستخدم لطهي الطعام العادي اليومي ولكن عند وجود العديد من الضيوف يتم الطبخ بأدوات أكبر اسمها «الدست» تستوعب عشرين ليتراً أو أكثر. ويذكر «أوبنهايم» أدوات طبخ

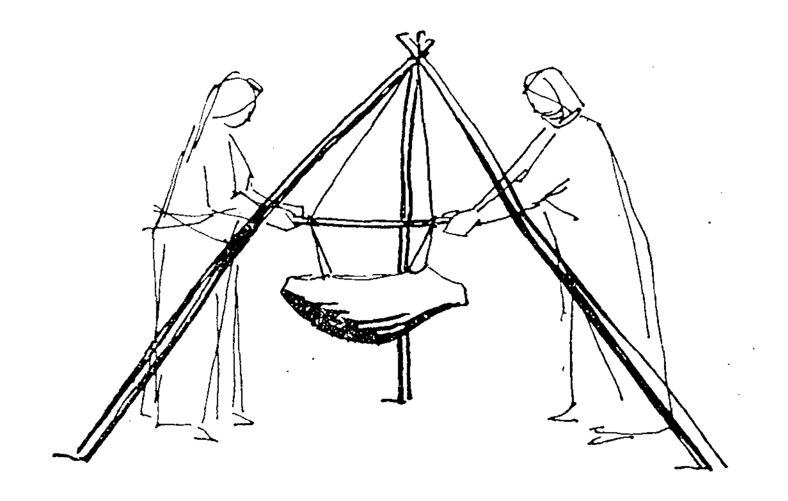
أخرى مثل: منفص وهو صحن مسطح لتقديم الطعام يتراوح قطره بين ٢٠سم والمتر أو أكثر. وهناك ملاعق طبخ كبيرة (مرغفة) ويضاف إليها الأدوات التالية:

- **الجدر**: (أو القدر باللغة العربية الفصحى) وهو وعاء للطبخ مطلي بالقصدير مصنوع من النحاس وله غطاء.
- **الشفشير**: (الكفكير) وهي ملعقة حديدية مدورة لتحريك الطعام ذات ثقوب.
- **صاج**: وهو عبارة عن قبة مصنوعة من الحديد للخبز.
- **هودي**: منصب حديدي لوضع الطناجر أو الصاج عليه.
- **صحن**: وهو وعاء مسطح من الخشب لعجن الطحين.

وتحدثت السيدة «بلونت» عن وعاء خشبي لشرب الحليب، وهناك قدور كبيرة يسخن فيها الحليب على الموقد لكنها لم تذكر اسمها ولا المادة المصنوعة منها. ومن الأوعية المصنوعة من الجلد التي تستخدم في قسم النساء، نذكر بشكل خاص «الجربة» أو القربة بالفصحى، وهي مصنوعة من جلود الغنم أو الماعز بحيث يكون الجلد من الناحية الداخلية، ومطلية بالأثير حسب ما ذكره البعض.

يستخدم هذا الضرف لحفظ ونقل الماء والحليب. يتم سد فتحاته التي هي قوائم الحيوان المصنوع هذا الوعاء من جلده من خلال لف شرائط من الجلد أيضاً عليها وربطها بإحكام. ويتم أخذ السوائل من فتحة الرقبة. كما تستخدم مثل هذه الأوعية لحفظ دهن الغنم والزبدة السائلة. ومثل هذه الأوعية تستخدم أيضاً للحصول على الزبدة ويتم ذلك بطريقتين:

إما بملئ الضرف حتى النصف باللبن وتفريغه من الهواء، ثم يوضع على حصير وتقوم إحدى النساء متخذة وضعية الخياطة بخضه جيئة وذهاباً حتى تنفصل الزبدة عن اللبن على شكل حبيبات صغيرة، أو يتم تعليق الضرف المملوء باللبن على سقالة مائلة بين ثلاثة عيدان خشبية تسمى «ركابه» وتقوم امرأتان بهزه جيئة وذهاباً. وقد لاحظ المؤلف وجود الطريقتين عند الشمريين للحصول على الزبدة. وعند ملئ الحليب في الضرف من خلال فتحة الرقبة الضيقة للضرف يتم استخدام مكيال من المعدن.



منصب لاستخراج الزبدة – تقوم امرأتان يخض الضرف المعلق على المنصب

أما الضروف الكبيرة المصنوعة من جلود الجمال فتستخدم لحفظ ونقل التمر والحبوب وبقية أنواع مؤونة الطعام. وعن الضروف المصنوعة من جلود الجمال كتب دوغتي:

«ومن جلد ضروف الجمال المرطبة بعصير التمر يصنعون أفضل أنواع الصنادل».

ولحفظ مؤونة الطعام الجافة وبخاصة القمح والرز والطحين تستخدم أكياس منسوجة يدوياً من صوف الغنم ووبر الجمال. توضع أكياس المؤونة المليئة على الجهة الداخلية للجدار الفاصل من جهة قسم النساء وفوقها الفرش والأغطية المطوية.

وهناك عنصر ثقافي مادي آخر هام جداً في كل قسم تشغله النساء ألا وهو الطاحونة اليدوية المؤلفة من اسطوانتين دائريتين من الحجر من أجل طحن الحبوب تسمى (الرحى). القرص السفلي ثابت بينما يدار القرص الأعلى بشكل دائري بواسطة قبضة خشبية، يتم وضع الحبوب من فتحة في الوسط وينزل الحب المطحون من الجوانب ويستقر على قطعة قماشية مفروشة تحت الرحى.

هناك أداة هامة من الأدوات الموجودة في خيمة البدو لم تتطرق إليها المراجع بالوصف التفصيلي والتي اختفت مبكراً من الممتلكات الثقافية لدى شمر، ألا وهي المصباح الزيتي الذي تنار بواسطته الخيمة مساء. ذكر لنا الباحث «بيسار» أن إنارة الخيمة تتم بواسطة الزبدة الزائبة التي تغمس فيها قطعة مشتعلة من القماش القطني.

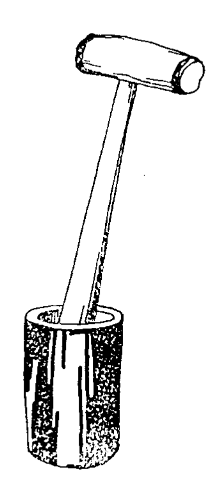
حول وصف هذا المصباح وفيما إذا كان مصنوعاً من الفخار أم من المعدن لا نستطيع مع الأسف أن نستخلص شيئاً من المراجع المتوفرة.

نجد في قسم الرجال من خيمة البدو، بالإضافة إلى أباريق الماء المصنوعة من النحاس لماء الغسل، أيضاً أدوات تحضير القهوة ذات الأهمية الكبيرة. ولكن هذه الأدوات لا نجدها في كل خيمة حيث لا يستطيع أي فرد اقتناءها، بل يقتصر ذلك على الشيخ أو بدوي غني.

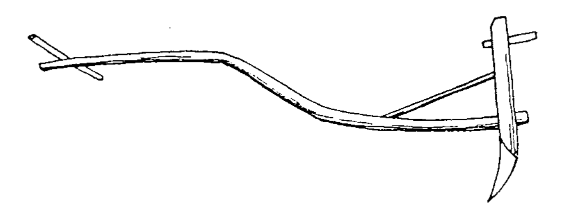
ويجب أن نذكر أن تناول القهوة لدى بدو شمال الجزيرة العربية يعتبر حديثاً نسبياً. يذكر الباحث «فيتسشتاين» في دراسته حول ممتلكات الشعوب البدوية أن القهوة لم تعرف في سورية إلا منذ حوالي ٢٠٠ سنة. ولا تقدم لنا المراجع المتوفرة أية معلومات فيما إذا كان الشمريون يعرفون القهوة عندما هاجروا من نجد. ولذلك سوف نضطر مؤقتاً أن نغفل مسألة فيما إذا كانوا آنذاك يملكون أدوات تحضير القهوة التي سنأتي الآن على وصفها.

في كل مرة يتم تحضير القهوة الطازجة (من جديد). يتم تحميص حبات البن الأخضر على نار بمقلاة اسمها (كدارة) أو بملعقة طويلة القبضة من الحديد اسمها «محمصة» يتم تحريكها باستمرار بملعقة تحريك حديدية. ثم تطحن حبات البن المحمصة في هاون مصنوع بالأصل من الخشب يسمى (مدق). وقد وصف لنا «أوبنهايم» هذا الجهاز:"كبير بعض الشيء يشبه مقعداً بلا مسند مزخرف بشكل فني، ويعتبر أداة هامة في بيت البدوي. وفيما بعد صار يستخدم الحديد أو النحاس في صناعته ويسمى «هاون» ويسمى المدق «ايد النجر».

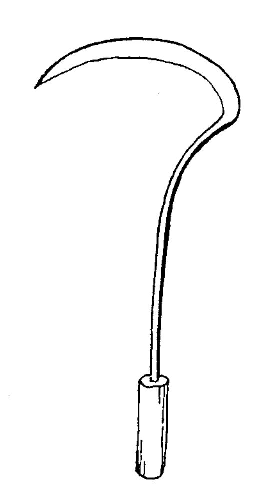
تنقع القهوة المطحونة في وعاء كبير له بزبوزة طويلة يسمى «قمقم» ثم تصب عدة مرات في دلال نحاسية أصغر فأصغر بحيث تبقى الترسبات، وتقدم القهوة من أصغر دلة بفناجين صغيرة من البورسلان. تقدم القهوة دون إضافة السكر إليها، لكن تضاف إليها التوابل مثل القرنفل والهيل. وهناك عدة شروحات أصلية حول طقوس تحضير وتوزيع القهوة الجاهزة من قبل القهوجي.



هاون خشبي لدق الحبوب ويستخدم المدق في الوقت نفسه لنصب أعمدة الخيمة



المحراث البدائي يستخدمه البدو نصف المستقرين وفي مزارع ملاك الأراضي الصغار من شمر



المنجل الذي يستخدم في حصاد الزرع

وأخيراً يجب أن نتطرق إلى أدوات النقل عند الشمريين، وأول ما نذكر منها حقائب صر الأغراض المصنوعة من وبر الجمال (هقبار) وهي مصنوعة بطريقة بحيث يمكن تعليقها على يمين وشمال سرج الركوب ومزينة بشرابات ملونة تستخدم لحفظ مؤونة الخيال أثناء سفره. وقد ذكر «موسيل» أن الأولاد الذين لا يزالون صغاراً جداً ولا يستطيعون الركوب يتم نقلهم في هذه الأكياس.

من أنواع السروج المستخدمة لدى الشمريين نذكر أولاً سرج الركوب الخشبي الذي يوضع على الجمل ويسمى «شداد» إذ يوضع على سنام الجمل وتوضع تحته وسادة لوقاية جلد الجمل. في الطرف الأمامي والخلفي للسرج يرتفع وتد خشبي اسمه «غزالة».

والنوع الثاني من أنواع سروج الجمال هو سروج للأحمال مصنوع أيضاً من الخشب يتألف من قوسين مرتبطين معاً بواسطة خشبتين متصالبتين.

يحتفظ بسروج الجمال في قسم الرجال من الخيمة، حيث تستخدم كمساند عندما يجتمع الرجال مساء ويجلسون على السجاد حول موقد النار.

أما في قسم النساء فيوضع الهودج الذي يثبت على ظهر الجمل والذي تجلس فيه البدوية مع الأطفال الصغار أثناء الترحال. والهودج له سقف محمول على عصي خشبية مقوسة ومغطى بقطع قماشية.

وهودج الشيخة (وهي زوجة زعيم العشيرة) يكون مزيناً بالقماش والهداهيب وغيرها مما دعى باحثاً مثل «شاو» لوصف الهودج بأنه «السيارة الرسمية للأميرات» وجرت العادة عند الشمريين أن يحمل هودج شيخ المشايخ على ظهر ناقة بيضاء.

أما عن شكل سرج الحصان «معرجة"» (جمعها معارج) فلا نحصل من خلال المراجع على انطباع دقيق. يذكر «أوبنهايم» أن سروج الركوب لا تدخل في عداد التجهيزات الضرورية. ثم يتابع قائلاً: «يمكن مقارنتها مع مقعد الحوذي في أوروبا. حيث أن المقعد الصغير مجهز بوسادة كبيرة». ووصف «فيلد» نوعاً آخر من السروج شاهده في أواسط العراق قائلاً: «سرج جلدي ضيق ومسطح، يشبه إلى حد كبير ذلك النوع الذي يستخدم في السباقات في أميركا وأوروبا».

ويتفق وصف «بوخمان» لنوع آخر من السروج تستخدمه عشائر «عنزة» مع هذا الوصف. ولا تستخدم شمر ممسك الركاب إلا في حالات استثنائية.

الأسلحة: تتألف أسلحة شمر بالأصل من رماح وسيوف وخناجر وهراوات. ولم يذكر أحد أن شمر سبق أن استخدمت القوس والسهام كسلاح. ولكن ذلك لا ينفي إمكانية أن يكونوا قد استخدموها قبلاً، وأن هذا السلاح كان من قبل منتشراً في كل مناطق شبه الجزيرة العربية. وكان انتشار الأسلحة النارية بالأصل منتشراً على نطاق ضيق بين البدو.

كان الرمح أهم سلاح بدوي، وحتى الحرب العالمية الأولى كان لدى البدو أصلاً سلاح وحيد فقط هو الرماح المصنوعة من قضبان الخيزران التي يصل طول الواحد منها إلى ستة أمتار...

وكانت قاذفات الحجارة أقل خطراً من سلاح الضرب والوخز. فالحربة، ويطلق عليها اسم «شيلفة» تتألف من رأس حديدي مسطح ومدبب طوله حوالي المتر وله فالة تركب على ساق من القصب. وفي طرف الساق تثبت نصلة حديدية مدببة تغرس بواسطتها الحربة في الأرض.

وأثناء الترحال أو المسير توضع الحربة على الكتف. بالإضافة إلى هذا النوع من الحراب هناك نوع آخر لكنه نادر الوجود حيث رأسه المدبب أقصر بكثير وله شكل مبرد مثلث الشكل يشبه الحربة ويطلق عليه اسم الرمح. تحت الرأس المدبب توضع حزم من ريش النعام كنوع من الزينة، أو تعلق عليه قطع معدنية صغيرة بخيوط. رماح الطعن القصيرة (جتع) ورماح القذف (خشت) لم تكن مستخدمة تقريباً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أما سيوف شمر فهي من النوع المحني، شفراتها صناعة أوروبية والقبضة من القرون أو العظم أو الخشب. أما سيوف الشيوخ فقبضاتها من الفضة والغمد من خشب ملبس بجلد أسود.

أما الخناجر المحنية التي يستخدمها البدو فتعلق أغمادها في الأحزمة. أما الشفرة الفولاذية ذات الحدين فقلما تكون مزخرفة. يصنع الغمد غالباً من الخشب ويلبس بالجلد.

يحمل الأغنياء غالباً خناجر ذات أغماد مصنوعة من الفضة. أما العصي «دمبوز» المصنوعة من الحديد أو الخشب فلها – إن كانت من النوع الثاني– رأس من الحجر أو من الزفت تستخدم كسلاح ضرب وقذف.

تحدث «أوبنهايم» أيضاً عن وجود المقاليع من النوع البدائي دون أن يسترسل في وصفها. وربما كانت على نمط المقلاع الذي ذكره «موسيل» عند بدو «الرولة». والأمر هنا يتعلق بسلاح فعال جداً إذا ما استخدمه شخص مدرب على استخدامه. «فحصوة يقذفها مقلاع عربي تشج أصلب جمجمة».

يضاف إلى أسلحة البدو التقليدية منذ زمن طويل (غير معروف بالضبط) الفتيلة والجفت والمسدس (بشتاوة) ومنذ بداية القرن العشرين دخلت عليهم أسلحة نارية حديثة جاءتهم من أوربا.

اللباس والحلي: لباس البدو بسيط نسبياً وعملي ويتناسب مع ظروف الحياة في البادية، ولا يدل على فروق اجتماعية تذكر، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار نوعية القماش المصنوع منه، بل يتشابه كثيراً في عناصره الأساسية مع لباس الفلاحين المستقرين.

فلنستعرض أولاً أقسام اللباس الرجالي لدى بدو شمر:

١- **الثوب:** وهو مصنوع من النسيج القطني الأبيض بأكمام واسعة تضيق في الطرف. ذكر «أوبنهايم» وغيره أن هذا القميص لا يغسل ولا يبدل أبداً ولا يخلعه البدوي إلا إذا أراد الاستحمام.

٢- **السروال:** وهو من نفس المادة القماشية التي يصنع منها الثوب. فضفاض جداً بحيث يتيح حرية حركة كاملة ويتم ربطه وتثبيته بواسطة خيط أو شريط.

٣- **الزبون:** هو لباس طويل يشبه القفطان يلبس فوق الثوب ومصنوع من النسيج القطني الملون أو الحرير ويتم جمعه بواسطة حزام مصنوع أيضاً من قماش قطني ملون.

٤- **لبادة:** وهي سترة من القماش أو القطن المبطن وتلبس عادة في الشتاء.

٥- **العباية:** ذات القصة المستطيلة وهي مفتوحة من الأمام وتوضع على الكتفين دون أي رباط.

٦- وفي الشتاء يرتدي البدوي فوق العباءة فروة مصنوعة من جلد الغنم والخرفان. ويمكن أن يفرشها تحته وينام.

٧- غطاء الرأس المؤلف من ثلاثة أقسام: الطاقية القطنية والكوفية والعقال المصنوع من شعر الماعز.

٨- النعال غالباً ذات أحزمة للأصابع وهو لباس القدم المنتشر. أما البدو الأكثر فقراً فيسيرون حفاة صيفاً وشتاءً. وذكر «أوبنهايم»جزمة الفارس التي لا يلبسها إلا الوجهاء منهم.

أما لباس المرأة فيتألف من الأقسام التالية:

١- **الثوب**: وهو لباس واسع يشبه القميص غالباً ما يكون لونه أزرق.

٢- **الزبون**: وهو لباس يشبه المعطف يُلبس فوق الثوب وأكمامه طويلة.

٣- **السروال**: مصنوع من نسيج قطني ملون.

٤- **الشويحي**: وهو حزام من صوف الغنم بعرض ٣-٤سم مزين بزخارف ملونة. يُكف عدة دورات حول الثوب ويرخى طرفه الأمامي.

٥- **العبا**: وهو لباس صوفي ولكن لا تضعه المرأة على كتفيها كالرجل بل على رأسها، طويل يصل حتى القدمين تلبسه كل امرأة خارج خيمتها إذا ما كان قربها رجال. ولا يغطي الوجه، بعكس نساء السكان الحضر.

٦- **الملفع**: وهو عبارة عن غطاء أبيض كبير للرأس على شاكلة الكوفية بالنسبة للرجل.

٧- **الهبرية**: وهو غطاء رأس يلف فوق الملفع. وذكر «أوبنهايم» غطاء رأس أسود اللون اسمه «عصابة» تضعه عادة النساء المتقدمات في السن.

٨- أنواع مختلفة من قطع اللباس تشبه الجاكيت تلبس في الشتاء وتبطن بفرو الغنم. وهناك قطع ملابس أخرى مطرزة تكمل لباس المرأة البدوية. وقلما تنتعل المرأة البدوية شيئاً، إذ تمشي نساء شمر في أغلب الأحيان حافيات الأقدام.

أما بشأن لباس الأطفال فقد ذكر «أوبنهايم»: «يبقى الأطفال حتى سن الخامسة أو السادسة عراة تماماً أما الفتيات فيرتدين عادة ثوباً قصيراً وقلما يبقين عاريات تماماً. لكن من البديهي أن لا يبقى الأطفال عراة في الشتاء دون أضرار صحية. حيث يلبسون في فترة البرد أثواباً وسترات تشبه تلك التي يرتديها الكبار، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً.

تغطى رؤوس الأطفال الصغار دائماً بقبعة وتضع الإناث فيما بعد قطعة قماشية على الرأس، أما الصبيان فيظلون حاسري الرؤوس. ولا يرتدي الأطفال أية ملابس داخلية أو أحذية، سواء أكانوا بناتاً أم صبياناً.

وبينما لا يستخدم رجال شمر أية حلي تقريباً فإن حلي النساء شديدة التنوع:

- **محدالة:** وهي طوق عنق عليه مختلف أنواع الأحجار الكريمة وشبه الكريمة.
- **تراشي:** وهي حلق ذهبي كبير يعلق في الأذن مرصع غالباً بالتركواز (الفيروز)
- **زرار:** حلي ذهبي تعلق على الصدر بسلسلة رفيعة.
- **دوالي:** وهي أساور للمعصم من الفضة أو الذهب.
- **خمص:** وهي اسوارة عريضة من الذهب الخالص أو الفضة غالباً ذات زخارف.
- **هلالة:** وهي دبوس (بروش) على شكل هلال تثبت على غطاء الرأس.
- **فريدة:** حلية ذهبية للشعر مؤلفة من حلقة وسلسال. الحلقة تثبت على خصلة الشعر والسلسال على غطاء الرأس.
- **دلع:** زينة ذهبية للجبهة وعادة ما تضعها نساء الشيوخ الشابات.
- **محبس:** خاتم يوضع بالإصبع وله أنواع مختلفة.
- **خزامة:** وهو حلقة ذهبية تعلق بالأنف بعد ثقب أحد جانبيه.
- **سوار:** حلقة للأرجل من الفضة أو من الذهب عند العائلات الغنية.

كما يزين الأطفال الصغار بقطع حلي متنوعة مصنوعة غالباً من الذهب (أساور للسواعد أو للأرجل أو حلي للرأس). وهناك شكل آخر لزينة الجسم بالنسبة للنساء والفتيات عند شمر لابد من التطرق إليه ألا وهو وشم الوجه واليدين والساعدين والجزء العلوي من الجسد والقدمين بالعديد من الزخارف باللون الأزرق الغامق.

إنتاج الحرف اليدوية: جزء كبير من الأدوات التي سبق وصفها، (قطع الملابس وأدوات الزينة) لا ينتجها البدو أنفسهم، بل يتم الحصول عليها في الأسواق من التجار والحرفيين المختصين لقاء المبادلة مع منتجاتهم.

يمارس الشمريون، النساء بالدرجة الأولى، فروع الحرف اليدوية التالية: الغزل، النسج والدباغة. المادة الأولية للغزل والنسيج هي صوف الغنم وشعر الماعز ووبر الجمال.

ومن الجدير بالملاحظة أن الرجال بصورة خاصة يمارسون غزل الصوف، ربما كان سبب ذلك هو التغلب على الملل، كما يقول «أوبنهايم». الأمر الذي لا ينفي حقيقة أن الغزل والنسيج هو بالدرجة الأولى من عمل النساء والفتيات.

ويبدو أن هذا النشاط يحظى بالتقدير. فالمرأة التي تحسن الغزل تحظى بالاحترام بين النساء العربيات. ولغزل الصوف يستخدم مغزل من الخشب.

بإمكان المرأة البدوية أن تمارس الغزل عند الترحال سواء مشياً على الأقدام أو على متن الجمل. وقد قدم الباحث «ديكسون» وصفاً تفصيلياً لتقنية العمل أثناء الغزل. فالخيوط التي يتم الحصول عليها من عملية الغزل، وهي رفيعة نسبياً، يتم لفها مع خيوط أخرى بواسطة آلة خشبية كبيرة اسمها مبرم لتشكل خيوطاً ثخينة يتم نسجها فيما بعد.

ويستخدم البدو نولاً يدوياً بسيطاً بشكل أفقي يطلق عليه اسم «نطو» يركب في قسم النساء من الخيمة أو أمامه، وبواسطة هذا الجهاز تصنع أغطية الخيم المصنوعة من شعر الماعز كما يصنع بواسطته بساط الجلوس، وأغطية المخدات والأكياس التي توضع بها الأدوات والمؤونة أثناء التنقل. وتقوم الأم بتعليم بناتها تقنية وأصول النسج وزخارفه وغير ذلك عند بلوغهن سن السادسة أو السابعة.

تقوم نساء شمر بدبغ جلود الأغنام والماعز حيث يقمن بفرك الجهة الداخلية من الجلد بعد إزالة الدهون عنها باللبن العيران والملح. يتم تحضير الجلد في مراحل لاحقة من خلال المعالجة بقشور الرمان المطحونة التي يتم الحصول عليها من السوق.

تخاط جلود الغنم والخرفان المدبوغة لتصنع منها العباءات والصداري التي يرتديها كلا الجنسين شتاءً. عموماً يمكن القول عن إنتاج الحرف اليدوية عند شمر بأنه لا يشكل إلا جزءاً متواضعاً في مجمل اقتصادهم، وهو بشكل عام من اختصاص النساء والفتيات. وتستخدم المنتجات هذه بشكل عام للاستهلاك الأسروي. وقد يباع النسيج الصوفي وفرو الأغنام في السوق ولكن في حالات خاصة(•).

٣- تربية الحيوان:

تحتل تربية الحيوان أهمية خاصة في حياة شمر الاقتصادية. وتربي شمر أربعة أنواع من الحيوانات المنزلية. الجمال ذات السنام، الأغنام ذات الإلية الدهنية، الماعز ذو الشعر الطويل، ثم الحصان(••).

الجمال: في ظل ظروف نمط الحياة البدوية الكاملة لعبت تربية الجمل عند الشمريين الدور الأهم. ولا نبالغ إذا ما أكدنا أن وجود الجمل بالنسبة للبدو هو «شرط أساسي للحياة». وقد أصاب «الجمالي» في صياغته لأهمية الجمل في حياة البدو بقوله: «الجمل هو المحور الذي تدور حوله حياة البدو المادية».

(•) حصل المؤلف عام ١٩٦٢ في بازار الموصل على عدة منتجات حرفية معظمها نسيجية من إنتاج شمر، لدى أحد الباعة، سبق أن اشتراها من بدو فقراء أو أخذها عمولة.

(••) أما الحمير التي تستخدم على نطاق واسع في بلدان الشرق فيحتقرها البدو. وقد ذكر أحد المؤلفين أن البدوي الأصيل يأنف حتى من لمس الحمار.

إن قدرة الجمل التي يضرب بها المثل على تحمل درجات الحرارة العالية ونقص الماء الحاد المقترن بالتحمل الجسدي أثناء عبور الصحراء والبوادي هي التي جعلت المناطق الجافة في شبه الجزيرة العربية قابلة للوصول إليها والسكن فيها. ولا يسعنا في هذا المكان الآن معالجة مسألة تدجين الجمل بالتفصيل، لأن ذلك يتعدى حدود هذا البحث.

لكن يجب أن نشير هنا إلى بعض نتائج أبحاث كل من «أولبرايت» و«فالتس» حول تاريخ تدجين الجمل. فالجمل الذي لا يمكن الآن تحديد أسلافه المتوحشة كان منتشراً على الأغلب في جنوب شرق آسيا في البرية. تم تدجينه بالتدريج في شبه الجزيرة العربية خلال القرون الأخيرة من الألف الثانية قبل الميلاد ولكن يبدو أنه كان نادر الوجود في الشمال حتى القرنين الثاني عشر والحادي عشر.

أما «فالتس» الذي طور أفكار «أولبرايت"» حول بداية تدجين الجمل فيخلص إلى النتيجة التالية:

«لايمكن الآن تحديد مكان أو زمان تدجين الجمل ذو السنام تحديداً دقيقاً. بقليل من التأكيد تنتج لدينا فرضية أن الجمل ذو السنام تحول إلى حيوان منزلي في وسط شبه الجزيرة العربية، في نجد، ومن هنا أصبح من الممكن بعيد تحول الألفية الأولى قبل الميلاد، وعن طريق المجموعات السامية أن يدخل إلى جنوب الجزيرة العربية ومن هناك إلى إفريقيا.

وفي نفس الفترة تقريباً ومع الهجرات الجنوبية انتقل من المنطقة العربية نحو الشمال وظهر على أطراف البادية السورية. ولا شيء يقف في وجه فرضية أن تدجين الجمل المنظم تم لأول مرة على يد القبائل العربية»(•).

(•) لم تتضح حتى الآن مسألة فيما إذا كانت هذه القبائل تمارس اقتصاد الصيد والجمع أم الزراعة.

يمكن من خلال أبحاث المؤلفين الذين اقتبسنا عنهم التوصل إلى النتيجة التالية: وهي أن البداوة بدأت بعد تدجين الجمل حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد وعلى مدى بضعة قرون، وانتشرت من خلال هجرات مربي الجمال آنذاك إلى شمال الجزيرة العربية وشمال إفريقيا.

ويشير «فالتس» إلى الفرق الواضح في درجة التدجين القائمة حتى الآن «بين الحيوانات البيتية لدى الفلاح العربي والجمال ذات الأسنام التي لم يتم تدجينها بشكل كامل في القطعان الكبيرة في البادية» ويضيف الباحث «كلاوس» حول هذه النقطة قائلاً: «يحكي البدو أن قطعاناً تعود بأكملها إلى حريتها الكاملة وتخرج فجأة عن نطاق سيطرة الإنسان. عند ذلك يمتطي راكب جمله المخصص للسباق الذي ظل تحت سيطرته، ويسرع إلى الجمال الهاربة ويدخل بينها ويقف في مقدمتها ويجعل من جمله قائداً للقطيع الهارب ويقود الجمال المتعبة إلى المضارب».

تمخض الاختيار الدقيق للنوع الصالح للتربية عن عدة أنواع للجمال ذات السنام تتناسب مع استخداماته المختلفة. وهناك نوعان أساسيان هما: جمل السباق أو جمل الركوب وجمل حمل الأثقال من أجل حركة القوافل وحمل الخيمة والأدوات المنزلية. وكلاهما يشكلان أهمية كبيرة بالنسبة للشمريين. ولا تقل أهمية الجمل كحيوان للنقل بالنسبة للبدو عن أهميته كمصدر لمنتجات متنوعة مثل اللبن واللحم والجلد والوبر والسماد والبول.

وهذا الجانب يتعلق بدور الجمل في تأمين الحاجة الخاصة للبدو. ومن ناحية أخرى يشكل الجمل أهم سلعة سوقية في الاقتصاد البدوي. فهو أهم سلعة ينتجها الشمريون من أجل التبادل، حيث يحصلون من بيعه على العديد من السلع الاستهلاكية.

وقد لخص أوبنهايم هذه الوظائف الاقتصادية التي ذكرناها آنفاً بعبارة «إن ثروة البدوي الرئيسية هي جماله».

إن العدد الكبير من التعابير الواردة في لغة البدو المتعلقة بتسميات الجمال في كل مراحل حياتها ولتمييزها بمواصفات معينة ... الخ، هو الدليل الواضح على دورها الأساسي في اقتصاد البدو العرب. وذكر أحد الباحثين دليلاً آخر على أهمية الجمل الكبيرة في حياة البدو وهو أنهم يقسمون به الإيمان. ويستخدم الشمريون التعابير التالية في تسمية الجمل:

- **الجمل**: وهو الذكر من هذه الفصيلة.
- **الناقة**: وهي الأنثى.
- **بعير أو إبل**: وهو الاسم الجمعي لهذا الحيوان.
- **حوار**: وهو المهر.
- **رحول**: وهو حيوان حمل الأثقال.
- **ذلول** (جمعه هجين): وهي الأنثى من حيوان الركوب.
- **الحر**: وهو الذكر من حيوان الركوب.
- **مخلول**: وهو المهر في عامه الأول.
- **مفرود** (الأنثى مفرودة): وهو المهر أو المهرة في عامه/ عامها الثاني.
- **لجي** (الأنثى لجيّة): وهو المهر أو المهرة في عامه/ عامها الثالث.
- **جادوع** (الأنثى جادوعة): وهو المهر أو المهرة في عامه/ عامها الرابع.
- **ثني** (الأنثى ثنية): وهو المهر أو المهرة في عامه/ عامها الخامس.
- **فحل**: وهو جمل العشار.
- **أم جسر**: وهي الناقة الراغبة في التلقيح.
- **أم عشر**: الناقة ذات العشار (معشرة) في شهرها الأول.
- **الكحة**: الناقة بعد الشهر الأول من عشارها حتى الولادة.
- **الخلفة**: بعد عملية الولادة.

- **العطرة**: الناقة التي تعطي الحليب.
- **هائج**: فترة تلقيح الجمال.
- **أوطة**: ولادة الجمل.
- **ولدة**: فترة الراحة من العشار.
- **حايل**: الناقة المسنة التي لم تعد تلد.
- **فاطر**: ناقة مسنة قطعت سن الولادة.
- **هرش**: جمل مسن.
- **أملح**: جمل ذو وبر أسود.
- **أوضح**: جمل ذو وبر أبيض.
- **أشعل**: جمل ذو وبر بني غامق.
- **أصفر**: جمل ذو وبر بني فاتح.
- **أحمر**: جمل ذو وبر بني مائل للحمرة.
- **أشكة**: جمل ذو وبر رمادي.
- **أزرق**: جمل ذو وبر رمادي مائل للزرقة.
- **أبلك**: جمل ذو عينين فاتحتين.

تم التأكد من جدول هذه العبارات التي لا ندعي أنها كاملة، من خلال سؤال مجموعة متنوعة من الناس الموثوقين. وتتضمن المراجع مصطلحات أخرى عديدة تستخدمها مجموعات بدوية أخرى توثق غنى اللغة العربية في التعبير عن المواصفات الجسدية الخاصة ودرجة التدجين أو الترويض ومخزون الحليب وأنواع الضروع وكذلك مواصفات معينة للجمل أثناء الرعي والشرب أو أثناء المسير، حيث لكل من هذه الأشياء كلمة خاصة تدل عليها وتصف طبيعة حيوان محدد بمواصفاته الخاصة.

وقد توصل الباحث «شفارتسلوزة» – الذي عالج عدداً كبيراً من المصطلحات العربية الفنية القديمة – إلى نتيجة جاء فيها: «الواقع أن الأشياء الأخرى أيضاً، التي يتعامل معها العربي بصورة دائمة قد أوجدت ذخيرة من الكلمات تختلف في حجمها حسب أهميتها بالنسبة له».

هناك حقيقة جديرة بالملاحظة وهي وجود مترادفات في العبارات التي يستخدمها مربو الجمال العرب المتباعدون عن بعضهم كل البعد سواء جغرافياً أم بشرياً وتاريخياً.

فعلى سبيل المثال هناك تسميات لمختلف مراحل سن الجمل وكذلك أسماء لمختلف أعضاء جسمه، يستخدمها شمر العراق، نجدها نفسها عند مربي الجمال في بوادي شرق السودان. وهذه الظاهرة يمكن أن تكون دليلاً آخر لفرضية أن أصل البداوة نشأ في منطقة محددة، ألا وهو شبه الجزيرة العربية.

فترة تكاثر الجمال في شمال الجزيرة العربية تقع ما بين ١١ كانون أول (ديسمبر) و٢١ كانون الثاني (يناير) وتصبح المهار ناضجة جنسياً اعتباراً من عامها الخامس.

يستمر حمل الناقة ١٣ شهراً، أي أن صغار الجمال تولد في بداية الربيع (من شباط حتى آذار). ومعدل عمر الجمل حوالي ٣٥ عاماً. وأثناء فترة طلب التلقيح (العشار) تكون فحول الابل غالباً شريرة وصعبة المراس.

يترك الفحل المنتقى للتلقيح الذي يتمتع بمواصفات جسدية معينة من حيث بناء الجسم والسنام مع عدد من النوق يصل إلى ٢٠ ناقة في المرعى. ويذكر الباحثون أن فحلاً واحداً يكفي لتلقيح حوالي ٦٠ ناقة. وعندما يتم تلقيح ناقة لا يعود الفحل لامتطائها أبداً.

تلد الناقة دائماً مهراً واحداً فقط. يتم إرضاعه لفترة من ٧-٨ أشهر، أما في السنوات التي تتوفر فيها مراع جيدة فتطول هذه المدة لتصل حتى ١٨ شهراً. ويكون حليب الناقة في ربع السنة الأول بعد ولادة المهر حلواً ومغذياً بشكل خاص.

يفطم المهر بعد عام عادة. وعبارة مخلول تعني بالأصل «مزيناً بحلقة» أي مفطوم عن حليب الأم. يوضع لصغير الجمل بعد عامه الأول حلقة في أنفه. وهذه الحلقة تؤلم الناقة الأم عندما يريد الوليد الرضاعة فتمنعه عنها.

ولا يصيب مهر الجمل إلا جزءاً معيناً من حليب الناقة الأم. ولكي يمنع من الرضاعة يلف رباط حول ضرع الناقة يسمى «زرار». ويتم فصل الأمهات عن المهار أثناء الرعي. فالحليب تحتاجه الخيمة ولا يسمح للمهر بالرضاعة إلا بعد أن تأخذ الخيمة حاجتها من الحليب. ويسمح للمهر بالرضاعة مساء وقبل الانطلاق للمرعى صباحاً.

يعتبر حلب النوق عند شمر امتيازاً يقوم به الرجل. ويتم تناول حليب النوق عادة طازجاً لأنه غير صالح لإنتاج الزبدة لقلة محتوياته من الدسم إذا ما قورن بحليب البقر مثلاً. ويتألف حليب النوق من المواد التالية:

٨٨,٢٥% ماء، ٣,٦٠ جبنين + ألبومين، ٢,٥٠دسم، ٥سكر ثم ٠,٦٥ رواسب.

فهو بالتالي من حيث محتوياته من الدسم والسكر يقع ما بين حليب الفرس والبقر لكنه أغنى منها بالمواد المعدنية.

يتراوح إنتاج الناقة اليومي من الحليب ما بين ٤-١٠ ليترات حسب الوضع الغذائي، بالإضافة إلى الكمية التي يرضعها المهر. ويمكن أن نعتمد بحذر ما ذكره الباحث «عارف العارف» بقوله: أنه التقى بعدد كبير من البدو، وبخاصة الرعاة الذين يقضون معظم وقتهم في الصحراء ويقتصر غذاؤهم على حليب النوق، لأنه قلما يمكن لبدوي الاستغناء عن الأغذية الإضافية (تمر، الفريكة، أو اللحم وغيرها) لفترة طويلة.

وطريقة الحلب باستخدام «دمية الحلب» معروفة أيضاً لدى شمر. وهذا يعني أنه في حالة موت المهر الوليد، سواء نتيجة مرض أو بذبحه، يتم سلخ جلده وحشوه بالحشيش. ويتم تقديم هذه الدمية أو «الباو"» كما يطلق عليها، للناقة لتشتمها. وعندما تنام توضع الدمية ملاصقة لرأسها.

بالإضافة إلى الحليب يستخدم لحم الجمل أيضاً كمادة غذائية، ويعتبر لحم الذكر الفتي غذاءً جيداً خاصة في عمر بين ٤-٦ أشهر. وذبح الجمل هو من حق الرجل.

بغض النظر عن الجمال الذكور الفتية التي ذكرناها آنفاً التي لا يحتاجون لتربيتها، فلا تذبح إلا الجمال المجروحة أو المريضة أو الضعيفة بسبب السن. وهذه الأخيرة يصطحبونها في القوافل بقصد الذبح دون أن تحمل أثقالاً.

يحسب البدو أثناء الترحال أن جملاً يكفي لإطعام مائة رجل يومياً. عند ذبح الجمل أول ما ينخ وتقيد أطرافه ويقوم رجل قوي بتثبيت فمه والضغط على رقبته إلى ناحية بحيث يكون الرأس باتجاه مكة. وبعد قراءة نصوص دينية يغرز الدباح الخنجر في حنجرة الجمل بحيث تنفذ الشفرة إلى الجانب الآخر ويحز الرقبة ثم يتم قطع فقراتها بحيث يتدفق الدم من الذبيحة.

أما الجلد فيتم قطعه إلى قسمين بدءاً من السنام، تقطع الأطراف ويتم فتح البطن من جهة. تؤكل الأعضاء الداخلية ما عدا الأمعاء ويفضل منها السنام المدهن، الضرع، الكبد، والقطع الوسطى من الرقبة حتى المؤخرة. أما أعضاء أخرى مثل المعدة والذيل فتعتبر طعاماً للعبيد.

وبشكل عام يمكن القول أن لحم الجمل لا يدخل في عداد الغذاء اليومي عند شمر، بل فقط في حالات خاصة، مثل الذبح الضروري لحيوان جريح أو مريض، أو في مناسبات احتفالية، أو قدوم ضيوف كبار ... إلخ.

الشيء المثير للانتباه هو خلو المراجع المختصة من وجود ما يشير إلى الحصول على وبر الجمال وتصنيعه. فقط أوبنهايم ذكر ملاحظة عامة حول استخدام وبر الجمال لصناعة قماش الخيم وما شابه ذلك من قماش بقطع كبيرة ونوه إلى تجارة الوبر في مدن شمال شبه الجزيرة العربية.

وقد ذكر المؤلف أن وبر الجمال ينتف باليد خلال أشهر نيسان وأيار وحزيران، أي في بداية الصيف. يتم جمع هذا الوبر في أكياس كبيرة وبيعه للتجار إن لم يكونوا هم بحاجة إلى تصنيعه.

ونتيجة لنقص الخشب في بوادي شبه الجزيرة العربية فإن لمخلفات الجمال قيمة كبيرة جداً كمادة وقود. ولذلك يتم التشديد على الأطفال في كل مناسبة على جمع زبل الجمال. ففي كل خيمة بدوية توقد نار المواقد بزبل الجمال التي توفر حرارة عالية، وهو ممتاز جداً لصنع القهوة في المضارب وأثناء الترحال، ولهذا السبب يحمل كل مسافر كيساً مليئاً به.

ويقارن الباحث «هيس» مادة الوقود هذه بقطع الفحم البيضاوية. ويطلق على زبل الجمال اسم «الجلة» أما الرطب فيسمى «الدمن». حتى بول النوق يستخدم لغسيل الشعر، لأنه، كما يقولون، يقتل القمل. وقد ذكر أيضاً أن الطفل المولود حديثاً يغسل ببول الجمال. رغم أن الشمريين قالوا لدى سؤال المؤلف عن هذا الموضوع أنه لم يعد مستخدماً.

ويسترسل الباحث «هيس» في ذكر الأمثلة على استخدام بول الجمال قائلاً:

«وقد يستخدم للمضمضة وغسل اليدين في حالة نقص الماء» أما قول «دوغتي» أن المسافرين في قوافل يشربون بول الجمال عند العطش الشديد فلا يمكن اعتباره إلا وضعاً لحالة اضطرارية قصوى».

تشمل أنواع الاستفادة من الجمل، التي تطرقنا إليها حتى الآن، حيوان الحمولة وحيوان الركوب، ويمكن أن نصل إلى نتيجة أن للإناث من الجمال – أي النوق– قيمة تفوق بكثير الجمل الذكر.

ومما يؤكد ذلك هو أن الجمال الذكور الفتية تذبح في سنتها الأولى. كما يرحبون بولادة المهرة (الأنثى) أكثر من ترحيبهم بولادة الذكر. وتعلق شمر أهمية كبيرة على وجود أكبر عدد من الحيوانات الحلوبة في قطعانها. فحليب الجمل بكميات وافرة يعني بالنسبة لهم الرخاء.

وحول العلاقة بين جمل حمل الأثقال وجمل الركوب كتب «شيكيله»: «جمل الركوب» هو أهم وأنفس، ويربى بأعداد تفوق أعداد جمل الحمولة. وهناك عدد من المربين يدفعون سعراً مرتفعاً جداً للحصول عليها، حيث يحرصون على انتقاء دقيق لأنواعها.

وفي عملية التلقيح هناك على الأقل شاهدان على نشأة النسل القادم. وكحيوانات للركوب تفضل دائماً النوق لأنها أسلس للقيادة. بينما يفضل الجمل الذكر لحمل الأثقال لأنه أقوى جسدياً. فهودج شيخ مشايخ شمر الضخم يحمله دائماً جمل قوي البنية أبيض اللون.

تخلو المراجع المختصة من أية معلومات عن تركيب قطعان الجمل عند شمر حسب أنواع الحيوانات المستخدمة للحمل وتلك المستخدمة للركوب. ولكن استطعنا من خلال سؤال عدد من أفراد عشائر شمر أن نفهم أن جمال السباق من أعراق مشهورة لا تربى في الجزيرة، بل يتم استيرادها من أواسط شبه الجزيرة العربية.

وهذه الحقيقة تتوافق مع ما أكده الباحث «ديكسون» بقوله:

«إن جمال عشائر شمال شبه الجزيرة العربية هي أضخم وعظمها أثخن من تلك التي في الجنوب وهذا ربما يعود إلى ظروف مناخية أكثر منها إلى نوعية العلف».

وقد حددت مواصفات عرق ناقة السباق النبيل على الشكل التالي: رأس صغير، فتحتا أنف صغيرتان، أذنان تميلان إلى الطول، عينان كبيرتان، بناء جسدي خفيف، قوائم دقيقة، لا تلامس مرفقاها الجذع أثناء السير.

«تشبه حركاتها حركات الغزال سواء أكانت في قيلولتها أو أثناء رعيها أو تعدو بكل طاقتها» ومن أنواع سلالات الجمال النبيلة المعروفة في شبه الجزيرة العربية (العمانية- الحرة- البتنية- الأرثية- الأثية) لا تربي شمر إلا النوع المسمى «الحرة» (حسب ديكسون)(•).

وتتميز هذه الحيوانات بقدرتها على قطع مسافات بعيدة دون ماء، وقد عرض لنا أدب الرحلات قدرة تحمل الجمال بصورة مبالغ فيها. ولكن حدود التحمل القصوى يمكن أن تبلغ ٢٠٠كم في ٣٠ساعة بالنسبة لجمل السباق، حيث تكون هذه الحيوانات قادرة في الشتاء وعند توفر الكلأ الأخضر على البقاء ٢٥ يوماً بلا ماء. أما في الصيف فينخفض هذا العدد إلى خمسة أيام، ولا تشكل مجاري المياه عقبة كبيرة أمام سير الجمال لأنها قادرة على عبور الأنهر سباحة.

وبقدر ما تصلح الجمال لقطع المسافات الطويلة، فإنها سيئة إذا ما استخدمت في الحرب، حيث يتعلق الأمر بقدرة الحيوان على المناورة. فقد اتضح أن محارباً سيئ التسليح يمتطي حصاناً يتفوق على راكب جمل جيد التسليح وذلك بسبب عدم صلاحيته للانقياد. ولذلك يصطحب البدو معهم عندما يذهبون للحرب أحصنة لكي ينتقلوا إليها عندما تبدأ المعركة. كما ذكر الباحث «دوغتي».

(•) يوجد في شبه الجزيرة العربية أكثر من ٢٠ نوعاً من مختلف سلالات الجمال (حسب أوبنهايم).

أما جمال الحمولة فهي أقل تحملاً بكثير إذا ما تعلق الأمر بالمسافة التي تقطعها. حيث تقطع مسافة ٤كم في الساعة وتتحمل المسير لمدة ١٢ساعة يومياً، أي بمعدل ٥٠كم، وتحمل أثناء الرحلات عبر الصحراء ما وزنه ١٥٠كغ ويمكن أن تحمل حتى ٤٠٠كغ إذا ما كانت المسافات قريبة.

وذكر أحد الباحثين أن جمال الحمل السورية تحمل حتى في رحلات القوافل الطويلة ما وزنه ٣٣٠كغ. ولكن من غير المعروف فيما إذا كانت هذه الجمال ذكوراً أم إناثاً. ولكن يمكن الافتراض، وبحق، أن الذكور من الجمال يمكن أن تكون قدرتها على الحمل أكبر من قدرة الإناث، بينما يكون الحديث عن النوق عندما يتعلق الأمر بجمال السباق من حيث القدرة على الجري. أما أثناء العمل على بئر الماء حيث يتم سحب الدلاء الجلدية المملوءة بالماء فتستخدم خاصة الجمال المدربة. ويتم إخصاء الجمال الذكور غير المخصصة للنسل، بل للعمل فقط، لجعلها أكثر هدوء وألين مراساً.

أما السؤال عن عدد الجمال التي كانت تمتلكها شمر قبل أن يشملها التحول الاقتصادي فلا يمكن من خلال المراجع المتوفرة لدينا إعطاء جواب شاف عنه. يعلل أوبنهايم هذه الصعوبة على الشكل التالي:

«من غير الممكن تقريباً الحصول على إحصاء دقيق عما تملكه العشيرة من جمال، يمكن أن تقدر بالآلاف. فالإحصاءات التي تتوفر لدى السلطات التركية حالياً (أي في نهاية القرن التاسع عشر. **المؤلف**) لا تعطي صورة صحيحة عن عدد الجمال، لأنها تخضع للضريبة. وهذا أقل بكثير من العدد الحقيقي».

من البديهي أن يحاول الشمريون خداع السلطات العثمانية في إخفاء العدد الحقيقي لرؤوس قطعانهم، ولذلك لا يمكن أن نعتبر تقدير عدد الجمال

التي تملكها كل خيمة شمرية ما بين ٢٠-٣٠ جملاً كما ورد في كتاب Handbook of Arabia إلا نوعاً من التخمين التقريبي.

وربما كانت الملاحظة التالية أكثر وزناً في هذا المجال وهي أن عشائر شمر ليست غنية بالجمال مثل عشائر «عنزة» لأن شمر التي تسكن مناطق في الجزيرة أغنى نسبياً بالنباتات ربما كان باستطاعتها منذ البداية أن تهتم أكثر بالغنم والماعز إلى جانب الجمال أكثر من «عنزة» في أواسط صحراء شمال شبه الجزيرة العربية. ورغم أن علاقات الملكية لدى شمر سوف نأتي إليها بالتفصيل، يبدو من المناسب أن تعالج هذه المسألة من خلال رموز على قطعان الماشية. فكل جمل، سواء أكان للحمل أم للركوب، يحمل وسماً يحدد ملكيته، لكي يمكن تحديد تبعيته في حالة السرقة أو شروده وضياعه(•).

وهذه الرموز عبارة عن خطوط ودوائر يتم وسمها على الجمل بواسطة قطعة حديد محماة عندما يبلغ أحدها السنتين. يتم تقييد المهر ويقوم خمسة أو ستة رجال بتثبيته بينما يقوم رجل بعملية الوسم على فخذه أو عنقه أو رأسه. والوسوم متشابهة لدى كل فرع من فروع العشيرة.

قطعان الشيخ فقط تختلف عن ذلك، إذ لها وسم شخصي إضافي. وهذه الوسوم تورث من جيل إلى آخر ولا تتبدل. وتستخدم أيضاً في أواسط شبه الجزيرة العربية لتحديد آبار الماء حيث يتم نقشها على الإطار الحجري للبئر. وقد سجلنا إشارات الملكية بالنسبة للجمال خلال إحدى الرحلات الدراسية على الشكل التالي:

(•) جمع الباحث فيلد في دراسة خاصة أكثر من ألف شكل من أشكال الوسم المستخدمة لدى البدو في كل مناطق شبه الجزيرة العربية.

اسم المجموعة التابعة للعشيرة	الإشارة	
الجربا	T	على العنق
الدغيرات (عبده)	†	على فخذ القائمة الخلفي
الدغيرات (عبده) (الشيخ)	E	على العنق
أفاريت (عبده)	♀	على العنق
أفاريت (عبده) (الشيخ)	≡I	على العنق
زغاريت (عبده)	├──	من الوجنه حتى العنق
جدي (عبده)	┌──┐	على العنق و ٢ خلف العين اليسرى
خرصة		دائرة حول العنق
خرصة (الشيخ)	├──	على الجانب الأيمن (إضافي)
حمير (سنجاري)	○	على الوجنة III على الرقبة
حمير (سنجاري) (شيخ)	⊥	
أزملات (سنجاري)	///	
طابت (سنجاري)	/+	على الفخذ
أكدور (سنجاري)	≡	على الفخذ
زراعه (سنجاري)	/‾‾\	على الوجنة مع قص قطعة من الأنف
صبحي (صايح)	σ‾	على الوجنة اليمنى
صبحي (صايح) (شيخ)	├──	على الوجنة اليسرى
أسلام (صايح)	/	على الوجنة اليمنى // على الوجنة اليسرى
أسلام (صايح) (شيخ)	+I	على العنق.

حتى ولو أن هذا العرض يشكو من نقص، إلا أنه ينقل لنا صورة عن طبيعة إشارات الملكية هذه. وتستحق هذه الوسوم اهتماماً إضافياً من وجهة النظر المتعلقة بتاريخ تطور الكتابة لأنها تظهر – كما ذكر الباحث «ليتمان»– علاقات مع حروف أبجدية جنوب الجزيرة العربية بحيث لا تخفى العلاقة بينهما.

ويشرح الباحث عارف العارف تراجع أهمية الوسوم بالنسبة لفلسطين في الماضي القريب معللاً ذلك بما يلي:

«.... الآن حيث يسود الأمن .... لم يعد البدو يحرصون على الاهتمام الكبير بالإشارات التي تميز قطعان الماشية، وخاصة عندما ينصبون خيامهم قرب المدن، أو وسط مناطق مسكونة». أما عند شمر فعلى عكس ذلك، لأن الوسم ما يزال حتى الآن يحتفظ بأهميته.

وحسب معلومات الرجال الموثوقين لا يتسبب الوسم باستخدام قضيب الحديد المحمى بأية مشاكل للجمال. ففي حالات مرضية يعتبر الكي – للإنسان والحيوان – من وسائل الطب الذي يمارسه البدو. وغالباً ما يقف البدو لا حول لهم ولا قوة تجاه مرض الجمال، لأن وسائل المعالجة الطبية التي يستخدمها الرعاة غالباً ما تكون عديمة الفعالية. وفيما يلي وصف موجز لأهم الأمراض التي تصيب الجمال:

جرب الجمال: الذي يسببه نوع من العث تتم معالجته بدهن المناطق المصابة بالقار الطبيعي، وبحلاقة كاملة للوبر.

الغش: وهو مرض يظهر نتيجة لدغ ذبابة تعيش خلال الصيف في منطقة الفرات وفي جنوب العراق. ومن الصعب جداً أن يتم إنقاذ الجمل الذي

يصاب بهذا المرض. وذكر ديكسون «عندما تلدغ الذبابة يدخل المكروب إلى الدم فيصاب الجمل بنوع من مرض النوم مصحوب بارتفاع حراري بسيط. فيرفض العلف ... ثم يموت خلال أربعين يوماً».

يقوم البدو بكي الحيوان المصاب بقضيب من الحديد المحمى، ولكن قلما يشفى من هذا المرض.

المنحوس: وهو مرض رئوي، يسعل الجمل كثيراً ويرفض العلف. وهذا المرض ينتقل بالعدوى ولذلك يتم عزل الجمل المصاب به عن بقية القطيع.

وهناك مرض أخف يصيب الجمل بعد تناوله العلف الذي ينبت في أماكن حشرت فيها الأغنام والماعز في العام السابق، حيث تسمى النباتات التي تنمو في هذه الأمكنة «دمن طليان» أي «زبل الخراف» ولذلك يحاول الراعي أن لا يدع الجمال ترعى قرب مثل هذه الأماكن.

أما السبب الأكبر لنفوق الجمال فهو ليس نتيجة الأمراض، بل من خلال الإجهاد غير العادي نتيجة نقص الماء والعلف. ومن الصعب جداً إعادة جمل منهك القوى إلى وضعه الطبيعي. وتزداد الأمور تعقيداً في حالة نقص الأعلاف عندما يكون مصحوباً بانخفاض درجة الحرارة.

ويصف «شاو» آثار أحد فصول الشتاء القاسية في شمال الجزيرة على الشكل التالي:

«تنفق الحيوانات الجائعة فوراً وبالآلاف نتيجة البرودة» والمصير نفسه ينتظر الأغنام والماعز التي تكون قدرة مقاومتها أقل من تلك التي للجمال.

الأغنام والماعز: كانت لتربية الأغنام والماعز عند شمر أصلاً أهمية ثانوية بالنسبة لتربية الجمال، لأن الترحال عبر البادية القاحلة غير ممكن بقطعان من الأغنام والماعز.ولم ترتفع أهمية الغنم والماعز ارتفاعاً كبيراً إلا مع مسيرة التحول الاقتصادي. (سوف نعالج هذه المسألة عندما نتعرض لقضية التغيرات الاقتصادية).

ومع ذلك يبدو أن الأغنام والماعز قد لعبت (منذ القديم) دوراً لا بأس به في الحياة الاقتصادية البدوية، وبخاصة تصنيع الحليب إلى زبدة وحفظ بعض أنواع الأطعمة التي كانت ذات أهمية بالنسبة لشمر تحت ظروف البداوة الكاملة.

ويستفيد البدو من الغنم والماعز من عدة نواح: الحليب ومشتقاته، اللحم والدهن، الجلد والصوف للاستخدام الشخصي وللبيع في السوق على شكل حيوانات حية أو على شكل زبدة وصوف.

ويربي الشمريون الأغنام ذات الإلية. هذا العرق واسع الانتشار في الشرق الأوسط. وهناك عدة سلالات للتربية، ولكن البدو قلما يقيمون وزناً لنقاء هذه السلالات حيث تنتشر الأعراق المختلطة. ويكون صوف الأغنام الكبيرة منبسطاً أما صوف الخراف الصغيرة فهو مجعد.

وذكر أوبنهايم أن تربية الغنم تفوق تربية الماعز، ولكن هذا القول غير مثبت، حيث لا تتوفر لدينا إحصاءات عن حجم قطعان المواشي الصغيرة، أو عن عدد رؤوس الماشية في قطعان الشمريين.

لكن من الثابت أن لتربية الماعز أهمية كبيرة للبدو لأن شعر الماعز يشكل مادة أولية لصناعة سقوف الخيم، والماعز الذي يربيه الشمريون هو من النوع ذو الشعر الأسود الطويل المعروف في العراق باسم «ميريز» (مرعز).

ويتميز الماعز ذو الشعر الطويل بالأذنين الطويلتين وتحدب منطقة الأنف والقرون المقلوظة عند الذكور والإناث. أما الرأس فيغطيه شعر قصير، والجسد مكسو غالباً بشعر طويل وقذر. وقد حصلنا على التسميات التالية عند شمر بخصوص الأغنام والماعز:

١- الأغنام:

نعجة (جمعها نعاج)	وهي الغنمة الأم
شبش (كبش، كباش)	وهو الفحل من الغنم
غنم (أغنام)	وهو اسم النوع
طلي (طليان)	الخروف في سن من خمسة أشهر حتى السنة
تني (تنية)	بعد السنة الأولى
رباع (رباعية)	بعد السنة الثانية
الكبش (شبش) نعجة	بعد السنة الثالثة
هرم- هرمة	حيوان مسن يتراوح عمره بين ٨-١٠ سنوات
غرة	غنمة ذات صوف قاتم اللون
شقرة	رأس بني وما عداه فاتح
عبسة	رأس أسود والباقي فاتح
أدامة	رأس رمادي والباقي فاتح
حمرة	بني خالص
دبسة	بني غامق دون علامات فارقة أخرى
سودة	سوداء بالكامل
برقة	فيها بقع سوداء وبيضاء
برشة	ذات لون فاتح مع نقاط غامقة
قرحة	معظم لونها فاتح مع سواد يقتصر على منطقة حول العينين.

٢- الماعز:

عنزة	العنزة الأم
تيس (تيوس)	الفحل من الماعز
ماعز	اسم النوع
سخل	الجدي من عمر ٥ أشهر حتى السنة
تني- تنية	بعد السنة الأولى
رباع- رباعية	بعد السنة الثانية
تيس- عنزة	بعد السنة الثالثة
أسمر	شعر أسود بالكامل
أصبح	رأس أبيض والباقي أسود
أبيض	شعر أبيض بالكامل
أحمر	شعر بني بالكامل
عطرة	الرأس رمادي والجسم أسود
أبرش	مرقط بالأسود والأبيض.

لا تختلف تربية الأغنام عن تربية الماعز وهي في الجزيرة على الصورة التالية:

يكون موسم التلقيح ما بين شهري حزيران وتموز، وتكفي أربعة تيوس لتلقيح قطيع مؤلف من ٢٠٠ عنزة. تبلغ فترة الحمل خمسة أشهر وخمسة أيام، أي أن الولادات تتم بين كانون الأول وشباط. وتتعرض المواليد المبكرة لخطر النفوق بسبب البرودة العالية.

خلال الأيام الثلاثة التي تعقب الولادة يترك حليب العنزة بإجماله للرضيع، وبعد ذلك يتم عزل المواليد عن أمهاتها خلال النهار لمنعها من الرضاعة العشوائية. وإذا ما جاءت مواليد في الربيع فإن الشمريين يحلبون

قسماً من الحليب خلال الأيام الأولى من الولادة ويسمى «البا» المعروف بغناه بالفيتامينات والمعادن، ولذلك فهو مفيد بشكل خاص وطعمه طيب أيضاً. وهذا يتحول بعد اليوم الثالث من الولادة إلى حليب طبيعي.

يعتبر حليب النعاج أغنى بالدسم من حليب الماعز، بينما يعطي الماعز كمية أكبر من تلك الكمية التي تعطيها النعاج. فكل عنزة تعطي في الربيع (في حالة توفر المرعى الجيد) حوالي لترين في اليوم.

وتحلب المواشي صباحاً ومساءً من قبل الرجال والنساء معاً. وغالباً ما توضع أمهات الماعز كل عنزة مقابل الأخرى وتربط رؤوسها معاً وتحلب من الخلف في صفين في الوقت نفسه. ويترك عادة قسم من الحليب في الضرع للوليد الصغير، الذي يترك بعد عملية الحلب ليهرع إلى أمه.

بعد ذلك يصنف البدو حيواناتهم بمجموعات مختلفة حيث يتم ربط الصغار داخل الخيمة أما الأكبر منها قليلاً فتنضم إلى قطعان الغنم والماعز التي لا تعطي الحليب. وتساق الأمهات اللواتي يعطين الحليب إلى المرعى معاً.

وفي حالة ذبح أحد الحملان أو الجدايا يؤتى بحمل غريب ليرضع من الأم لكي لا ينضب الحليب. وبعد مضي ثلاثة حتى أربعة أشهر يتم فطام الحملان، حيث يجز صوفها أو شعرها (حوالي نهاية نيسان- أبريل) حتى لا تعد أمهاتها تتعرف عليها.

قسم ضئيل من الحليب يستهلك طازجاً. ويستخدم حليب الغنم والماعز بالدرجة الأولى لإنتاج الزبدة وغيرها من مشتقات الحليب. ويتم الحصول على الزبدة بالطريقة المنتشرة في آسيا وهي خضه بضرف من جلد الحيوانات. ويطلق الشمريون على هذا النوع اسم «الخطيظ» (الخضيض) ويشرب العيران الناتج عن هذه العملية. تسخن الزبدة الناتجة بقدور كبيرة للحصول على السمن، الذي يحفظ في ضروف من جلد الحيوانات ويباع فيا بعد في السوق.

وللاستهلاك السريع تصنع من حليب الغنم والماعز الطازج الروبة. وذلك بتسخين الحليب الطازج ومن ثم وضعه في جلد ماعز معد لهذا الهدف وتركه عدة ساعات ليختمر.

يلف هذا الوعاء بالحصر وقطع الملابس لتوفير الحرارة اللازمة للتخمر. وفي الطقس البارد قد تستغرق عملية التخمر من ٤-٥ ساعات أما في الطقس الدافئ فلا تتجاوز الساعة ونصف حتى ساعتين. ويحتفظ دائماً ببقية من «روبة» في الضرف لتسريع عملية التخمر.

هناك مادة غذائية محفوظة ومشتقة من العيران تشكل مادة غذائية هامة بالنسبة لشمر تصنع على الشكل التالي: يتم أولاً التخلص من المصال عن طريق تعليق اللبن الرائب بعمود الخيمة في كيس قماشي حتى يصفي ماءه، يضاف الملح إلى المادة المتبقية في الكيس ويطلق عليها أسم «شرثي» وتقطع إلى قطع بحجم قطع الخبز الأوربي الصغير الذي يكون على شكل كرة تقريباً، ويجفف على قطعة قماشية أو على حصير بأشعة الشمس. وعند ذلك يسمى "بكل" وهو ما يطلق عليه في فلسطين اسم كشك. وهذا يحفظ في أكياس كبيرة طيلة العام. ويؤكل هذا الطعام المحفوظ خاصة في الأوقات الجافة التي لا يتوفر فيها الحليب الطازج. كما يستخدمه المسافرون كزاد في سفرهم.

لا تذبح الأغنام والماعز إلا في مناسبات احتفالية. مثل قدوم ضيوف وفي حفلات الزفاف والختان والوفيات وغيرها....

والحيوانات التي يتم ذبحها هي بالدرجة الأولى الذكور التي لا يحتاجونها لتكاثر القطيع. كما تذبح الحيوانات في حالات طارئة، كأن تصاب بمرض لا أمل في شفائها منه.

وكل بدوي يعرف كيف يذبح الغنم والماعز ويستخدم عادة في الذبح الخنجر ذو الحدين حيث يحز رقبة الحيوانات من حنجرتها ليتدفق الدم من أوردة الرقبة. يتم قطع الرأس وتعلق الذبيحة من قائمتيها الخلفيتين على عمود الخيمة وتسلخ. وتعتبر أعضاء من الذبيحة مثل الكبد والقلب والكليتين طعاماً مستساغاً وكذلك الإلية، وهذه تعتبر غذاء ذا أهمية خاصة بالنسبة للبدوي لأنها تؤمن له مصدر الدسم، لأن لحم الخنزير محرم تحريماً قطعياً في القرآن الكريم.

يتم جز صوف الأغنام لأول مرة في سن أربعة أشهر، أي في بداية الصيف. ولا يصلح صوف الجزة الأولى للغزل، ولذلك يستخدم في حشو الوسائد والفرشات، ويتم قص شعر الماعز بعد حوالي عشرين يوماً من جز صوف الغنم ويوضع الصوف الفائض عن الحاجة في أكياس ليباع في السوق.

يقوم الشمريون بإخصاء عدد من الخراف لتصبح فيما بعد قائدة للقطعان، وهذه تتقدم القطعان أيضاً في موسم العشار. ويطلق على الخروف المخصي اسم «مريع خصي». وبقدر ما يجهل الشمريون بأسباب معالجة أمراض الجمال كذلك أيضاً فيما يتعلق بأمراض الأغنام والماعز. وغالباً ما تصاب هذه الحيوانات بالأمراض التالية:

انتيجا: وهومرض رشح ينتشر غالباً في الشتاء فتسعل الحيوانات سعالاً قوياً ويسيل الدم من أفواهها وأنوفها وتتضخم الرئتان وتنفق بعد أسبوعين أو ثلاثة. وغالباً ما تذبح الحيوانات وتؤكل قبل نفوقها.

دويدان: وهو مرض ينتقل بالعدوى ويصاب به الحيوان بعد أن يشرب ماء ملوثاً كأن يشرب مثلاً من مجرى ماء يكاد يجف تماماً، حيث تنشأ ديدان في أمعائه فتهزل الحيوانات المصابة وتنفق بعد ٥–٦ أشهر.

وتمرض الأغنام غالباً بعد أن تلتهم نبتة تنمو في القسم الشمالي من الجزيرة اسمها «روجه» تحتوي على مادة سامة. ينفق حوالي ٦٠% من الأغنام المصابة بعد ثلاثة أو أربعة أيام، ولا يؤثر ذلك على الماعز.

ولا تنتهي قائمة أمراض الحيوانات عند هذه، ولكن المراجع لا توفر لنا معلومات كافية حول هذه المسألة. ويتطرق الباحث ديكسون إلى أمراض خاصة تصيب الأغنام والماعز تعرف عليها في الكويت، منها داء الفم والحوافر، داء الرئة ونوع من الجدري والجرب. ولا علاج لدى البدو سوى بضعة عقاقير ومراهم مركبة من مزيج من البارود والسمن.

الخيول: كان الاهتمام غير العادي، الذي لاقته تربية الأحصنة العربية في أوروبا والهند والولايات المتحدة الأمريكية ومناطق أخرى من العالم، السبب بوجود كمية وافرة من المطبوعات نشرت حول أصل وتاريخ تربية الحصان العربي وطرق الحفاظ على النسل في المناطق العربية وخارج نطاق العالم العربي.

نشر الباحث «فلادة» دراسة متميزة عن الحصان العربي تناول فيها هذا الكم الهائل من الكتابات واستخدمها في إخراج بحثه الذي يقدم فيه استعراضاً مفصلاً حول انتشار الحصان العربي ذي السلالة النقية.

ما يهمنا في هذا العمل الذي بين أيدينا بالدرجة الأولى هو دور تربية الحصان في الحياة الاقتصادية لشمر. وهنا يمكن أن نؤكد بأن تربية الحصان لا تعد واحدة من أسس الحياة التي تقوم عليها حياة الشمريين، كتربية الجمل والأغنام والماعز، وإنما تكمن أهميتها بالدرجة الأولى في المجال الاجتماعي.

وتلقي ملاحظة أوبنهايم «بأن ملكية الخيل هي إشارة على الغنى» الضوء على الحالة التي سننطلق منها هنا: الحصان كتعبير عن القوة الاقتصادية. وقد شخص الباحث «هيرتسوغ» الغرض من استخدام الحصان بصورة صائبة بقوله:

«يتمثل دور للحصان في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بالدرجة الأولى في إمكانية استخدامه في الحروب. وتربيته نابعة بالدرجة الأولى من كونه رمزاً للمركز المرموق أكثر من فائدته الاقتصادية الحقيقية». ومؤكد أن شمر -كما بقية العشائر البدوية - بعكس مربي الحيوانات من البدو في وسط شبه الجزيرة العربية، لا تستخدم لبن الفرس ولا لحم الحصان كطعام.

ولذلك تقتصر الفائدة من الأحصنة التي تربيها شمر على استخدامها كحيوانات ركوب لنقل الأشخاص، وبخاصة في العمليات الحربية، وكمصدر للدخل غير المنتظم من خلال البيع، حيث يكون الطلب بالدرجة الأولى على المهار الذكور.

وفي نزاعهم مع الولاة الأتراك كثيراً ما استخدم الشمريون الأحصنة كوسيلة من وسائل الرشوة. وحول ذلك يخبرنا «شاو» بأن «الوسيلة التي كان يستخدمها البدو في إفساد موظفي الحكم التركي كانت الأحصنة الجميلة، فالأحصنة القادمة من الصحراء كانت أفضل وأسمى ما يتطلع المرء إلى امتلاكه في هذه البلدان».

وكان تصدير الأحصنة إلى الخارج، الذي زاد بشكل خاص خلال القرن التاسع عشر من خلال الهدايا والبيع، واحداً من أسباب النقص الحاد والسريع في عدد الخيول الأصيلة في قطعان البدو بشكل عام، وشمر بشكل خاص، كما يقول أوبنهايم.

وتعتبر منطقة نجد هي أصل الخيول العربية الأصيلة، وهي الموطن القديم لشمر قبل هجرتهم إلى الشمال. وهكذا يمكن التأكيد على أن الشمريين كانوا عند

وصولهم إلى الجزيرة يملكون مسبقاً «الأصيل» الذي يطلق عليه اسم كحيلان أو سقلاوي أو منيقي. وهي التي تشكل أصل الحصان العربي ذي الدم النقي. وهذه الأعراق الثلاثة الرئيسية انقسمت خلال قرن من الزمن إلى أحد عشر «عشيرة» و ٢٠٠ «عائلة». ويربي الشمريون من هذه الأعراق النبيلة الأنواع التالية:

١- سقلاوي
٣- حمداني
٣- منيقي
٤- أدهمي
٥- جدراني

ويستخدم الشمريون العبارات التالية في تربية الحصان:

خيل	اسم النوع.
فرس	الأنثى من الحصان.
حصان	
عاطف	الفرس طالبة العشار.
يشبي	الحصان طالب التلقيح.
القاحه	الفرس الملقحة.
راغوث	الفرس بعد أن تلد.
الفلو (مؤنثه مهرة)	صغير الحصان عقب ولادته.
حولي (مؤنثه حولية)	صغير الحصان في عامه الأول.
جذع (مؤنثه جذيعة)	صغير الحصان في عامه الثاني.
ثنـــي (مؤنثه ثنية)	صغير الحصان في عامه الثالث.
رباع (مؤنثه رباعية)	صغير الحصان في عامه الرابع.
خماس (مؤنثه خماسية)	صغير الحصان في عامه الخامس.
سباع (مؤنثه سباعية)	صغير الحصان في عامه السادس.
جارح (مؤنثه جارحية)	صغير الحصان في عامه السابع.

وتستخدم العبارات التالية للتعبير عن الألوان:

أصفر (مؤنثه صفرا)	جلده أبيض بالكامل.
أدهم (مؤنثه أدهمة)	جلده أسود بالكامل.
حمر (مؤنثه حمرا)	جلده بني غامق.
أشقر (مؤنثه شقرا)	جلده بني فاتح.
أصدى (مؤنثه صدية)	جلده رمادي.
أشعل نمشي (مؤنثه أشعله نمشه)	حصان رمادي.
زيالا	ذات غرة على الجبين.
نجمة	ذات بقعة على الجبين.
محجلة	ذات رسغ قدم أبيض.

أما مشية الحصان فلها التسميات التالية:

تمشي	السير
تقد	الخبب
تحنجل	الخبب الأسرع
تهدب	الركض – الهيدبا
تغير	تركض بأقصى سرعتها.

تظل خيول شمر في البرية طليقة ليلاً ونهاراً في حالة وجود المرعى الجيد، فهي تبحث بنفسها عن الكلأ وتربط سلسلة حديدية في رسغ قدمها الأمامية تمنعها من مغادرة المضارب. وفي حالة عدم توفر المرعى الجيد يقدم لها العلف على شكل أرغفة خبز أو تبن شعير أو بلح أو جراد يابس وأحياناً أيضاً لحم جمل أو ماعز مجفف، وتشرب بالإضافة إلى الماء أيضاً حليب الغنم والنوق.

ويشير «فلاده» بأن أحصنة البدو أثناء فترة الجفاف – رغم الجهود الضخمة – لا تسقى ولا تقدم لها الأعلاف إلا بكميات قليلة وغير منتظمة. ويتابع قائلاً:

«هذه الحقيقة قادت إلى عدم إمكانية دائمة لاختيار كمية ونوعية العلف وكمية الماء التي تميز الحصان العربي وتعطيه المواصفات المرغوبة فيه. وتقترن بذلك القدرة السريعة على التخلص من عواقب نقص التغذية وقلة الماء».

من خلال الهدف الخاص من استخدام أحصنة الركوب عند البدو أثناء غاراتهم ذات النطاق الواسع فقد تطورت لدى الحصان قدرة واضحة على التحمل لها أهمية خاصة أثناء الترحال أو المسير لمسافات كبيرة. حيث يمكن لحصان ذي قدرة تحمل عالية أن يقطع ما بين ١٠٠-١٥٠كم في اليوم تحت خيال ماهر بسرعة تصل حتى ٣٠٠م في الدقيقة (أي ١٨كم بالساعة) دون ظهور أية أضرار عضوية عليه.

ولابد من التنويه إلى أن البدو يصطحبون معهم أحصنتهم عندما يريدون القيام بغزوات طويلة المدى ممسكين بأعنتها دون أن يمتطوها بل يمتطون جمال الركوب حتى بدئ عملية الغزو بحد ذاتها إذ ينتقلون إلى متون الخيل.

ويتضح من المراجع المختصة أن البدو يفضلون بشكل قاطع ركوب الفرس، معللين ذلك بأن قيادتها أسلس من قيادة الحصان الذكر. وخلال عمليات الغزو تفضح الأحصنة المهاجمين بصهيلها. يضاف إلى ذلك أنها لا تثبت تحملاً كبيراً وقناعة كافية. ولهذه الأسباب يبدو مفهوماً لماذا لا يحب البدو فراق أفراسهم.

فعندما يقدم البدوي أحد خيوله هدية فهو غالباً ما يهدي الحصان وليس الفرس. وقديماً كان يتم أحياناً التخلص من مواليد الخيل من الذكور في الأماكن التي لا تتوفر فيها مراعي جيدة أو في فصول المحل، بالقتل. وبسبب قلة أحصنة التلقيح قد يحدث أن يدفع مبلغ من المال لصاحب حصان التلقيح لقاء تلقيح الأفراس، ولا يقوم البدو أبداً بإخصاء الأحصنة.

يكون موسم تلقيح الخيول لدى شمر من منتصف آذار حتى نيسان. وبعد أحد عشر شهراً ونصف يبدأ التوالد، أي أن فترة الحمل لدى الفرس تستمر مدة ٣٤٥-٢٤٠ يوماً.

وبعد ولادة الفلو بقليل يتم ضغط ذيله إلى أعلى حتى تصبح منطقة حامل الذيل بشكل أفقي وهي الخاصية التي تميز الحصان العربي الأصيل. كما تتم خياطة قمتي الأذنين معاً لبعض الوقت لكي تحافظا فيما بعد على وضعهما المنتصب.

وبعد سنة ونصف حتى سنتين تعتاد صغار الأحصنة على الخيّال. ومتى بلغت السنتين ونصف تصبح حيوانات ركوب كاملة المواصفات.

تمتطى الأحصنة فوق سرج بسيط وبواسطة لجام ومقود وقلما يستخدم المرء الركاب والعنان. ولا يستخدم الشمريون الوسم كعلامة ملكية بالنسبة للخيول.

ظهر منذ بداية القرن التاسع عشر مؤشر تراجع تربية الخيل في كل مناطق شمال الجزيرة العربية وبالتالي عند شمر أيضاً، وازداد هذا المؤشر في النصف الأول من القرن العشرين كثيراً نتيجة تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية وكذلك بسبب الأوبئة التي تصيب الخيل.

٤- الماء والمرعى:

سبق التنويه إلى الارتباط القوي بين هؤلاء البدو وبين ظروف الماء والمراعي عند التوصيف العام لنمط حياة الشمريين. يشكل الماء والمرعى معاً أهم وسيلتي إنتاج في اقتصاد شمر- جربا، ولذلك يجب أن نقف وقفة متأنية لدى استعراض هذين العاملين المهمين.

تتعرض ظروف الماء والمرعى في الجزيرة، كظروف بيئية، إلى تغيرات كبيرة خلال العام. ففي الربيع تقدم المراعي نباتات علفية كافية بشكل عام لقطعان المواشي، وتتجمع مياه الأمطار في المنخفضات الأرضية. إذن فشروط اقتصاد رعي جيدة تكون متوفرة في هذه الفترة. وقلما هناك حالات استثنائية قد تحدث نتيجة شح الأمطار وبالتالي نقص الغطاء النباتي في البادية.

أما في فصل الجفاف الطويل فتنضب بحيرات ماء المطر المتجمع بسرعة، فيتحول ارتباط الشمريين إلى الآبار. وفي الجزيرة ثلاثة مصادر مختلفة للماء:

أ- المياه الجارية دون انقطاع.

ب- برك مياه مرهونة بالفصول.

ج- الآبار.

حول النقطة أ: يوفر النهران الكبيران الفرات ودجلة وكذلك رافد الفرات الذي هو نهر الخابور، الماء طيلة السنة. تشكل هذه الأنهار بالتالي مخزوناً مائياً دائماً للبدو في أوقات الجفاف الصعبة. ففي فصول الجفاف الصعبة تكون وديان الفرات ودجلة مفتوحة دائماً لتستقبل كل السكان الذين تجد جمالهم مرعى بين النباتات التي تنمو على ضفاف الأنهار.

هناك صعوبتان في استغلال مياه النهر يجب عدم إغفالهما: تتمثل الأولى في بعد الأنهار عن مناطق الرعي لمعظم مجموعات شمر، والثانية تتعلق خاصة بالفرات حيث تظهر في محيطه - وخلال الصيف، أي في الوقت الذي يكون الناس فيه أحوج ما يكون إلى مياه الشرب - ذبابة السورا، التي تتسبب لدغتها بمرض خطير يصيب الجمال. وربما لم تتلوث ضفتا الفرات بهذه الحشرات إلا حديثاً، لأن الباحث «ديكسون» ذكر بإحدى ملاحظاته بأن هذه الحشرة ربما تكون قد جاءت من الهند أو من بلاد فارس.

حول النقطة ب: تشكل أمطار الشتاء في عدة مناطق من الجزيرة بركاً في المنخفضات الأرضية قعرها من الطين أو الصخر الكتيم الذي لا يسمح بتسرب الماء. ويطلق الشمريون على مصادر المياه الطبيعية هذه اسم «غدير» ويقيم البدو وزناً كبيراً لمياه هذه البرك لأنها حلوة، بعكس مياه الآبار المالحة.

ويستخدم ماء الغدير سواء لسقي قطعان الماشية، وبخاصة الأغنام والماعز، أو لتموين الخيم بماء الشرب(•). وعند جلب الماء يخوض البدو في البركة ويملؤون أوعيتهم التي ينقلونها إلى المضارب. وليوفروا على أنفسهم مشقة طرق نقل الماء الطويلة، تقام المضارب غالباً قرب غدران المياه.

لا يتجاوز عمق ماء الغدير من ٢٠-٣٠سم، لذلك ينضب مخزون الماء نسبياً بسرعة من خلال استهلاك مياهه المستمر، ومن خلال عملية التبخر التي تزداد خلال شهري آذار ونيسان. ولا يبقى إلا الماء الطيني المتعفن الذي لا يشرب إلا في حالات الضرورة القصوى. وعندما تتراجع كمية الماء إلى هذا الحد يلوح شبح خطر نقل الأمراض للإنسان والحيوان على السواء. منها مثلاً مرض دويدان الذي يصيب الأغنام.

(•) يشرب هذا الماء دون غلي رغم أنه يتخذ غالباً لوناً مائلاً للسمرة.

لهذا السبب تهجر برك الماء التي تم استهلاكها بشكل شبه كلي ويعود البدو مع بداية الصيف إلى الآبار الدائمة وينصبون خيامهم قريباً منها.

حول النقطة ج: خلال فترة الجفاف التي تدوم طويلاً يشكل البئر محور حياة البدو. في الجزيرة يتعلق الأمر بآبار ارتوازية صنعتها يد الإنسان كانت موجودة عندما دخل الشمريون منطقة الجزيرة، باستثناء تلك التي تم حفرها بتكليف من قبل الحكومة العراقية.

وعلى عكس الآبار الموجودة في أواسط شبه الجزيرة العربية التي تكون غالباً شديدة العمق ، لأن عروق المياه تغوص بعيداً تحت الأرض، فإن عمق آبار منطقة الجزيرة لا يتجاوز ٣-٤ أمتار، وكثيراً مالا يتجاوز عمق الماء المتر أو المترين عن سطح الأرض.

وكمثال عن بئر في غاية العمق بالنسبة لظروف الجزيرة هو ذلك الذي وصفته السيدة بلونت بقولها: «هذا البئر قديم جداً مغطى بحجر قاس بعمق يبلغ حوالي ٦٠ قدما». بينما يمكن استخراج الماء من الآبار السطحية نسبياً أي بعمق ١-٤ أمتار باليد بحيث يتم إنزال وعاء من الجلد بواسطة حبل ليمتلئ بالماء ثم يتم سحبه خارجاً بواسطة اليد. أما الآبار الأعمق فيتم استخراج الماء منها بروافع خاصة تسهل من عملية استخراج الماء. وحول الطريقة الأولى هناك الملاحظة التالية:

لتسريع ملئ الدلو المصنوع من الجلد ينزل شخص إلى داخل البئر ويضغط الدلو في الماء حتى يمتلئ، ويقوم شخص آخر بسحبه وتفريغه في حاوية السقي. وغالباً ما يقوم الشباب والفتيات معاً باستخراج الماء من البئر، وهذا يتطلب من هؤلاء الفتية الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤-١٥ سنة جهداً جسدياً كبيراً لرفع سطل من الماء يصل وزنه حتى ٢٠كغ، ولكن هؤلاء الفتية

يقبلون على هذا العمل برغبة لأن الفتيات والفتيان يستطيعون في مثل هذه المناسبات الاجتماع مع بعضهم البعض دون أن يزعجهم أحد.

وقد علق الباحث «موسيل» على ذلك بقوله: «يحب الشباب أن يساعدوا في سحب الماء وشد الحبل لحبيباتهم حيث هناك فرصة التحدث إليهن ومشاهدتهن عن قرب وربما حتى لمسهن».

لم تذكر المراجع المختصة شيئاً عما إذا كان مستوى الماء ينخفض خلال فصل الصيف. ولكن هذا الافتراض وارد، لأن مياه الآبار الناتجة عن أوردة المياه الجوفية ربما لا تتدفق بالسرعة التي يتم فيها سحب الماء من البئر، مما يؤدي بالضرورة إلى انخفاض مستوى مياه الآبار خلال فصل الصيف.

هذا الافتراض تؤيده حقيقة وجود حوامل على الآبار التي توفر مياه الشرب للإنسان والحيوان لعدة أشهر ولمضارب كبيرة، مركبة على غطاء البئر تسهيل عملية سحب أوعية الماء. والمبدأ الميكانيكي لهذه الوسيلة هو واحد في كل العالم العربي. يعلق حبل فوق بكرة من الخشب أو الحديد مثبتة غالباً بين جذعي شجرة أو جذع شجرة متفرع مثبت في طرفه دلو من الجلد ينزل في فتحة البئر ويسحب إما باليد أو بمساعدة حيوان جر، وعادة ما يكون جمل ذكر ويستخدم الشمريون العبارات التالية في مجال سحب الماء من الآبار:

مقام	حمالة من عمود خشبي لتثبيت البكرة.
محالة	البكرة الحديدية.
يلقه- أو لجائي	الشخص الذي يقوم بسحب الماء.
سناي	راكب الجمل الذي يسحب الوعاء من البئر.
حوض	المشرب المصنوع من الجلد (الآن من المعدن).
جابية	وعاء من الطين تشرب منه الأغنام والماعز.

ولا يتضح من المراجع المختصة فيما إذا كانت هذه التجهيزات التي تركب على البئر تفك عند الترحال وتصحب البدو، أم أنها تبقى على البئر. الشيء الأكيد هو أن وعاء السقاية المصنوع من الجلد لا يبقى بل يصطحبه البدو معهم في الترحال، حيث يعلق على واحد من الجذوع الخشبية المقوسة التي تشكل القاعدة على ظهر جمل الحمولة.

وكلما كان حجم هذا الوعاء كبيراً كلما كانت منزلة صاحبه أسمى. «هو حوض كبير على شكل صحن كبير يعد علامة على الثراء والنبل. فهو يعني بأن لدى صاحبه حيوان مخصص لحمله وقطيع من الجمال لسقايته».

وتختلف نوعية الماء من بئر إلى آخر، ولكن الماء النقي الخالص لا يتوفر في أي منها، بل هناك مواد معدنية مختلفة بتركيز مختلف تحتوي عليها هذه المياه. وكثيراً ما أشار الباحثون إلى أن الماء يكون غالباً مالحاً أو مراً. ولكن البدو معتادون على القناعة بكل نوع من الماء.

وقد يحتوي الماء على نسبة كبيرة من الأملاح المذابة، بحيث لا يصلح للاستخدام البشري ولا لمعظم أنواع الحيوانات البيتية. ولحد الآن ليس هناك تحليل دقيق لمختلف آبار الجزيرة من حيث التركيب المعدني، لكن لهذا الموضوع من دون شك أهمية كبيرة.

أقل الحيوانات التي يربيها البدو حساسية تجاه وجود نسبة ملوحة عالية في الماء هي الجمال، التي تحتاج بشكل عام إلى نسبة كبيرة من الملح.

وقد سبق أن تطرقنا إلى الاختلاف بين أنواع الحيوانات التي يربيها البدو من حيث حاجتها إلى الماء. وبشكل عام يمكن القول أن الجمال تسقى أثناء فترة الجفاف مرة كل ثلاثة إلى أربعة أيام. أما في الوقت الذي ترتفع فيه درجات الحرارة ارتفاعاً كبيراً فتسقى كل يومين. ويشرب الجمل بمعدل ٢٠-٣٠ ليتراً في الشربة الواحدة، وقد تتضاعف هذه الكمية في مرحلة العطش الطويل.

تحدث «موسيل» عن طريقة يستخدمها البدو لجعل جمالهم تعّب المزيد من الماء قبل الترحال الطويل: «يأخذ البدوي ناقته إلى منهل للماء ويربطها هناك، يصب الماء في الوعاء الذي يريد الجمل أن يشرب منه، يحرك الماء بواسطة سعفة نخيل ويلاطف الجمل ليشرب بأغان قصيرة ونبرات صوتية خاصة. وهناك الكثير من جمال الركوب المدربة على هذه الأصوات والنغمات التي تعني أنها قادمة على سفرة بعيدة في الصحراء القاحلة فتعب الماء بشراهة زائدة». ولسقاية قطيع مؤلف من بضعة مئات من الجمال يجب أن يعمل راعيان أو ثلاثة بجد ولمدة تصل إلى عدة ساعات في سحب الماء.

ولا تتوفر معلومات دقيقة عن كثافة العمل على البئر بالنسبة لشمر. ويمكن أن نحصل على تصور عام عن الجهد الجسدي الكبير الذي يترتب على البدو بذله على البئر أثناء فترة الجفاف من خلال حقيقة أن عمل الأشخاص الذين يقومون بسحب الماء من البئر يبدأ من حوالي الساعة الثالثة صباحاً ويتناوب عليه سكان المخيم باستمرار ودون توقف، يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل.

تسقى الأغنام والماعز مرة واحدة يومياً. أما في الشتاء عند توفر العلف الأخضر فقد تستطيع البقاء حتى خمسة أيام دون شرب. ولا تتوفر لدينا معلومة حول الكمية التي تحتاجها هذه الحيوانات من الماء. وليست هناك أوقات محددة لسقاية الخيل، ولا تسقى على البئر مباشرة، بل تقوم النساء بتقديم الماء لها عند الخيمة بعد أن تعطي إشارات معينة تفيد بأنها تطلب الماء، مثل الصهيل أو أية تعابير أخرى.

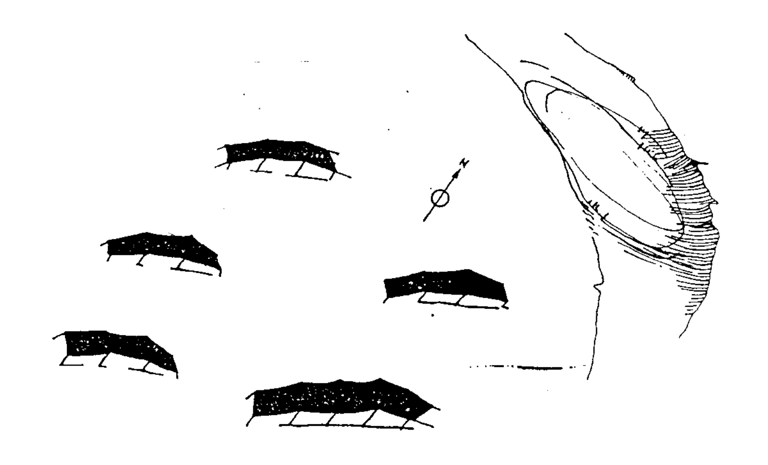
وينطبق على الخيول ما قلناه عن بقية الحيوانات البيتية عند البدو من حيث كمية استهلاك الماء، حيث يخف هذا الاستهلاك في الربيع عند توفر الكلأ الأخضر عنه أثناء فترة الجفاف. وأثناء السفر الطويل تستطيع الخيول العربية البقاء لمدة ٤٨ساعة دون ماء كما ذكر «موسيل».

وباختصار يمكننا القول أنه من حيث تزود شمر- جربا بالماء هناك مرحلتان مشروطتان بفصول السنة مختلفتان عن بعضهما كل الاختلاف وهما:

١- فترة قصيرة أثناء الرعي الربيعي يعيش أثناءها البدو بحرية نتيجة وجود العلف الأخضر ومياه البرك.

٢- فترة جفاف طويلة تتجمع خلالها مجموعات كبيرة من البدو حول البئر التي تزودهم بالماء الدائم. وخلال هذه الفترة يتطلب من البدو بذل جهود مضنية لتأمين مياه الشرب.

ونتيجة لوجود شبكة كثيفة من الآبار الارتوازية فإن الكوارث الناتجة عن نقص الماء الحاد في الجزيرة غير معروفة، كما هو الأمر في مناطق داخل شبه الجزيرة العربية.



مخيم ربيعي (فريج) لمجموعة شمرية – فوق على اليمين يظهر الغدير



مخيم صيفي (عربان) في القسم السوري من الجزيرة – البئر في الوسط
(عن صورة التقطها الباحث مونتان)

وفي ختام هذه الفقرة المتعلقة بمسألة التزود بالماء عند شمر نبين فيما يلي قائمة بأسماء أهم الآبار في منطقة الجزيرة(•).

الآبار الارتوازية في منطقة مراعي شمر:

١- خراب بزار
٢- أبو هوبحا
٣- سيبايه حروش
٤- سيبايه أناس
٥- سيبايه الهذيل
٦- سيبايه الموالح
٧- سيبايه توركي الصهيود
٨- سيبايه الأبهول
٩- سيبايه أبو رأسين
١٠- سيبايه جب الوهبي
١١- سيبايه عين الحصان
١٢- سيبايه العسكع
١٣- سيبايه قبر الهجر
١٤- سيبايه بسكي
١٥- سيبايه أم الدنابق
١٦- سيبايه أبو عبا
١٧- سيبايه العطاري
١٨- سيبايه حويدر
١٩- سيبايه بعج
٢٠- سيبايه جعير غلفص

(•) هذه المعلومة وردت في رسالة أرسلها المعلم غازي بن يحيى بن عبد الوهاب من سنجار إلى المؤلف.

٢١- سيبايه أم الزنابير

٢٢- سيبايه غريبان

٢٣- سيبايه حمدان

٢٤- سيبايه البزونة

٢٥- سيبايه منيف الفيصل

٢٦- سيبايه الأبطخ

٢٧- سيبايه العلقانة

٢٨- سيبايه ألمومي

٢٩- سيبايه الطيرة القراح

٣٠- سيبايه الحاضر

٣١- سيبايه الحمدانية.

تأتي الأهمية الكبرى للمراعي بالنسبة لاقتصاد البدو في المراجع الأدبية المختصة من خلال بروزها كسبب لحرب العشائر المريرة والتي تدوم طويلاً المعروفة باسم «الحرب من أجل المرعى».

ويجب أن نذكر أن غزو منطقة الجزيرة من قبل «شمر» وطرد عشائر «عبيد» وغيرها من العشائر البدوية من منطقة المراعي الجيدة هذه، كان لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى، لأن قطعان الماشية تتطلب مراعي مترامية الأطراف، وعندما تصبح غير كافية يجب البحث عن غيرها، كما أكد أوبنهايم.

ويمكن تقسيم المراعي إلى فئتين:

١- مراعي مشروطة بالمناخ والفصل.

٢- مراعي حسب نوعية التربة السائدة.

إذا ما أخذنا بوجهة النظر الأولى نرى أن المراعي الربيعية الغنية والصيفية الفقيرة يختلف جداً بعضها عن بعض، وهذا الاختلاف مشروط بنسبة الهطولات المطرية، فأثناء الرعي الربيعي تتوالد كل الحيوانات التي يربيها البدو وتنمو بحيث تقوى بما فيه الكفاية لمقاومة فترة الجفاف القاسية.

أما الحيوانات مكتملة النمو في القطعان فإن الرعي الربيعي بمثابة فترة تسمين ترتاح خلالها من مشاق الصيف وتكتنز ما يكفي من الشحم تتزود به لفترة الجفاف القادمة.

يقول «دوغتي»: «تكون جمال البدو قوية ومرحة في هذه الأسابيع السمينة من الرعي الربيعي حيث تكتنز باللحم ويتضخم سنامها من أجل صيف الصحراء الطويل».

هذا التأكيد من جانب «دوغتي» يمكن أن ينسحب أيضاً على الأغنام والماعز وكذلك على الخيل. فمراعي الصيف التي تحل محل مراعي الربيع بعد فترة انتقالية تستمر بضعة أسابيع تكون قاحلة غالباً. أولاً لأن عدداً كبيراً من النباتات تكون قد زالت – عدد النباتات الدائمة قليل نسبياً– وثانياً لأن النباتات الباقية– القش على عيدانه، والنباتات الشوكية – لا تحتوي إلا على الحد الأدنى من الرطوبة. ويضاف إلى ذلك أن الصيف يتطلب مساحات أوسع بكثير للرعي من الربيع، ولذلك فإن المسافات المقطوعة بحثاً عن المراعي تكون أطول، الأمر الذي يؤثر سلباً على مجمل الحالة الجسدية لقطعان الماشية.

وقد أبرز كل من «بلونت» و«دوغتي» خاصة من خصائص رعي الجمال، وهي الرعي ليلاً، خاصة في الليالي المقمرة. «عندما يدخل

القمر ربعه الثاني بحيث تستطيع الجمال أن ترعى حتى منتصف الليل». ولكن لا تذكر المراجع فيما إذا كان الرعي الليلي للجمال مرتبطاً بفصل خاص.

ولتفادي الآثار السلبية للرعي الصيفي اتبع بدو شمال جزيرة العرب منذ القدم نظام الهجرة من الشمال إلى الجنوب، أي أنهم يرحلون مع قطعانهم أثناء فترة المطر إلى المناطق الجنوبية الجافة نسبياً التي توفر المراعي الجيدة نتيجة الأمطار الهاطلة، ثم يعودون صيفاً إلى الشمال حيث يتوفر غطاء نباتي جيد بسبب كمية الأمطار الكافية. ويتم توفير مراعي شمال الجزيرة عادة حتى الفصل الأقسى من الناحية الاقتصادية.

أما التفريق بين المراعي من وجهة النظر الثانية، أي من حيث نوع التربة، فهو متعلق أيضاً بالظروف المناخية. ومن الطبيعي أن يتغير الإنبات حسب الأرض التي يقوم عليها. ففي الجزيرة علينا التفريق بين نبات الأرض المالحة ونبات التربة الغضارية العادية. فنبات الأخيرة يتنوع بدوره حسب درجة الرطوبة الموجودة في التربة، والذي يتجلى التعبير عنه في الإنبات الفاخر في الوديان، خلافاً لنمو بقية النباتات.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

ولنبات الأرض المالحة أهمية خاصة في تغذية الجمال. ويطلق الشمريون على الأراضي المالحة اسم «صبخ»، ويعلق «ديكسون» على ذلك بقوله: «للإبقاء عليها في حالة جيدة يجب أن تساق الجمال كل عشرة أيام إلى مناطق حمدة». أي إلى مناطق توجد فيها نباتات مالحة.

ويجب أن نضيف إلى هذه الملاحظة أن الأغنام والماعز أيضاً تحب رعي نباتات الأرض المالحة، بينما تعرض عنها الخيل. لذلك فإن

لاستغلال الأرض المالحة من خلال اقتصاد الرعي أهميته، لأنها غير صالحة للزراعة، أما الغطاء النباتي فوق المساحات الواسعة من التربة الغضارية في الجزيرة فإنه متنوع التركيب، أي أن أنواعاً عديدة من النباتات تنمو فيها.

لكن قيمتها كمراع متباينة جداً، بعضها ممتاز بالنسبة للجمال وأخرى للأغنام. وقسم غير قليل يعتبر لا فائدة منه على الإطلاق. وتشكل نبتة البابونج علفاً عالي القيمة للجمال والأغنام والماعز، إذ يقول البدو أنها تزيد من إنتاج الحيوانات للحليب زيادة كبيرة.

وتصف السيدة «بلونت» مضارب إحدى مجموعات شمر في مرعى ربيعي (منتصف آذار- مارس) بقولها: «كان الوادي أبيض كالثلج من زهر البابونج المتفتح، الغذاء المفضل للجمال، ولاشك بأن اختيار هذه البقعة قد تم لهذا السبب».

وحول أهمية أنواع أخرى من النبات لا يمكن التطرق إليها منفردة يمكن للجدول التالي أن يفيدنا في ذلك. وقد أثبتت أطراف الوديان بأنها مراتع خصبة لنباتات الرعي، حيث تتوفر فيها الرطوبة أكثر من توفرها في بقية تربة البادية. فهناك تنبت أفضل النباتات العلفية التي تتواجد بشكل عام في البادية.

والآن نستعرض قائمة ببعض أهم أنواع النباتات التي تنمو في الجزيرة. تتضمن الحقول التالية:

اسم النبتة - ملاحظات خاصة - الحيوانات التي تتغذى عليها - استعمالاتها الطبية والغذائية.

اسم النبتة	ملاحظات	غنم	ماعز	جمال	خيل	الاستخدام الطبي	الاستخدام الغذائي
نفل	تنمو في الأماكن الرطبة شبيهة بالبرسيم	+	+	+	+	−	−
شيح		+	+	+	−	+	−
صر	تنبت في الشتاء والربيع	+	+	+	−	−	−
بصيلة	على شكل بصلة− بصل بري	−	+	−	−	−	تحفظ كتوابل
مليح	تنمو في التربة المالحة في الربيع والصيف	+	+	+	−	−	+وهي غضة
أبو دمبوز	تنمو في المناطق الرطبة على حواف الوديان	+	+	+	+	−	−
ضريسة	تنمو في الربيع والصيف− علف تسمين	+	+	−	−	−	−
حمدظ أرقيجة	تنمو في التربة المالحة	+	+	+	−	−	−
صاما	تنبت بين الربيع والصيف	+	+	+	+	−	−
زفرة	تنبت بين الربيع والصيف	+	+	+	−	−	−
قيصوم	تنبت بين الربيع والصيف	+	+	+	−	+	−
أربيان	بابونج الكلب	+	+	+	−	−	−
شقارة	تنبت من شباط حتى نيسان	+	+	+	+	−	+
جعدة	تنبت من الربيع حتى الصيف	+	+		عند الضرورة	−	−
حرمل	نبات سام	−	−	−	−	ضد الروماتيزم	−
ذنبناب	لمدة ثلاثة أشهر في الربيع	+	+	+	−	−	−
ديدهان	في الربيع فقط	+	+	+	+	−	−
هوذان	ثلاثة أشهر في الربيع		+	+	+	−	−
عيصلان	نبتة ذات أزهار بشكل كؤيسات	+	+	+	+	−	−
ربلة	تبقى نضرة حتى الصيف	+	+	+	+	−	−
زباد	في التربة المالحة في الربيع فقط	+	+	+	−	−	−
حافور	تبقى حتى الخريف	+	+	+	+	−	−

اسم النبتة	ملاحظات	غنم	ماعز	جمال	خيل	الاستخدام الطبي	الاستخدام الغذائي
نزع	لا يوجد في التربة المالحة	+	+	+	+	–	–
مليحة	في التربة المالحة خاصة في الربيع	+	+	+	–	–	–
قطوب	على شكل كبسولات شوكية في الصيف	+	+	+	–	–	–
شحال	في الربيع فقط	+	+	+	+	–	–
شويل	أخضر حتى الخريف	+	+	+	–	–	–
لام	من الربيع حتى الخريف	+	+	+	–	–	–
حصار	من الربيع حتى الخريف	+	+	+	–	–	–
هوذان	في الربيع فقط	+	+	+	+	–	–
حسش	من الربيع حتى الصيف	+	+	+	–	–	–
حنيطة	في مراحله الأولى	+	+	+	–	–	–
رجل غراب	في الربيع فقط	+	+	+	+	–	–
حلبة	متوفر طيلة العام	+	+	+	+	–	–
سنسيلة	يشبه الشوفان	+	+	+	+	–	–

٥- فروع اقتصادية مساعدة:

يدخل الجمع والقنص في الحياة الاقتصادية لشمر كفرعين مساعدين أو ثانويين. كلا هذين النشاطين مرهون بأوقات معينة بسبب الظروف المناخية السائدة. يمتد الانتفاع من المنتجات التي يحصلون عليها من خلال ممارسة نشاط الجمع والقنص على مدار السنة، لأن البدو يعرفون كيف يحولون المواد الغذائية المتوفرة بكميات كبيرة، والتي يحصلون عليها من خلال هاتين الوسيلتين، إلى غذاء دائم. وهنا بالذات تكمن الأهمية الاقتصادية الكبيرة لنشاط الجمع والقنص.

بشكل عام يمكن القول بأن البدوي البسيط، الذي يعيش دائماً وبصعوبة على خط الجوع وسوء التغذية، يستخدم كل شيء مما يمكن استخدامه من

أجل تغذيته. وفي هذا السياق يقول «ديكسون»: «البدوي جائع دائماً. ونتيجة لذلك فإن استطاع أن يحصل على أشياء مثل الجراد والضب، أو أي حيوان آخر، حتى ولو كان ثعلباً، فإنه يأكلها بشهية. والبدوي يأكل كل ما يأتي في طريقه، وبخاصة عندما لا يراه أحد». تنسجم مع هذا التأكيد معلومة حصل عليها المؤلف من «عمشة بنت شيمية وهي بدوية بسيطة تقول بأن الشمريين يستخدمون كل ما يؤكل من منتجات نباتية وحيوانية كغذاء، حتى القنفذ والفئران النطاطة والسحالي والأفاعي والثعالب والذئاب والضباع.

الجمع: لنبدأ أولاً بالمنتجات التي تأتي عن طريق الجمع. أهم مادة غذائية تأتي عن طريق الجمع هي بلا شك الكمأة التي تلعب دوراً رئيسياً من بين كل ما يتم جمعه من هذه المادة التي تنبت تحت الأرض عقب أمطار الشتاء. ويوجد في الجزيرة نوعان:

نوع لونه رمادي أبيض يطلق عليه البدو اسم «زبيدي» ونوع بني أحمر أصغر من الزبيدي يطلق عليه اسم «فقع»، أما اسم النوع الذي يجمع كلا الفصيلتين فيسمى «شمة» باللهجة البدوية أي الكمي أو الكمأة.

يشارك في جمع الكمأة – وموسمها يمتد من أول شباط حتى أوائل نيسان– الرجال والنساء والأطفال. وتتطلب معرفة الموقع الذي ينمو فيه هذا الفطر بعض الخبرة، حيث يكمن في مناطق معينة من التربة تعرف من خلال وجود اندفاعات بسيطة. بواسطة عصا حفر من الخشب أو الحديد يحفر الشخص التربة لاستخراج حبات الكمأة التي غالباً ما تتواجد على شكل مجموعات، كل واحدة منها تضم ثلاث إلى أربع حبات. تجمع الحبات بأكياس أو حقائب خاصة بالحمل وتنقل على الظهر إلى المضارب. وقد ذكرت السيدة

"بلونت" أنها كثيراً ما صادفت مخيمات بدوية شبه فارغة من سكانها لأنهم جميعاً تقريباً كانوا في جمع الكمأة.

ولكن مع الأسف ليست هناك إحصائيات متوفرة عن كمية الكمأة التي يتم الحصول عليها في أراضي الجزيرة. وباستطاعة الشخص الواحد أن يجمع في اليوم ١٠كغ أو أكثر، على افتراض أن كمية الأمطار الهاطلة كانت كافية. ويفضل الرعاة أن يبيعوا ما جمعوه من كمأة للمسافرين العابرين. وذكرت السيدة «بلونت» أن في أسواق دمشق وحلب كميات كبيرة من الكمأة جاء بها سكان الجزيرة بشكل عام، وليس شمر فقط.

تستخدم الكمأة لاستهلاك المنزلي المباشر، كما يتم تخزينها كمؤونة. وإذا ما استهلكت طازجة فإنها تغسل وتقطع وتطبخ في ماء مالح، كما تشوى في الرماد الحار وترش بالملح، أو يتم تحضيرها كغذاء دائم. «فالكمأة، هذا الغذاء اللذيذ بالنسبة لكل بدوي ... تشكل غذاءً رئيسياً لساكن الخيمة وأسرته طيلة أسابيع. وتعتبر الكمأة الطازجة غذاءً يومياً للبدو أثناء الربيع، حيث يمكن أن تقوم مقام الخبز».

وقد ذكرت السيدة «بلونت» قائلة: «لم يكن عندهم خبز، بل فقط التمر والكمأة». ولكن كما قال «فرحان» أن الكمأة هي خبزنا الآن وهي أفضل من خبز المدن».

أما الحصول على الغذاء المحفوظ من الكمأة والمسمى «شجيج» فيتم على الشكل التالي: تغسل حبات الكمأة وتقطع على شكل أقراص وتجفف بالشمس، إما على بساط مفروش أو على سطح الخيمة، ثم تعبئ بأكياس وتخزن في قسم النساء. ويمكن الاحتفاظ بها لسنوات نتيجة قلة رطوبة جو البادية.

وبالإضافة إلى الكمأة تجمع المنتجات النباتية التالية:

١- بذور نبتة برية في أوقات الحاجة للحصول منها على الطحين. كتب «موسيل» حول طريقة تصنيعها ما يلي:
«يتم درسها بعصي غليظة ثم تذرى لفصل الحبوب البنية اللون النقية، ثم تطحن الحبوب في الرحى اليدوية ليصنع من طحينها الخبز».

٢- جذور تؤكل وتسمى "«كعوب» وهي نوع من الجذور الوتدية. يمكن تناولها نيئة. ثم جذور نبتة يطلق عليها اسم «ربحلة».

٣- نبتة تشبه الكراث اسمها «بصيلة» تطحن أوراقها في الهاون ويضاف إليها الملح ثم تحفظ في أكياس صغيرة من الجلد. يمكن الاحتفاظ بهذا المنتج لفترة طويلة ويستخدم كتوابل للطعام.

٤- نبتة اسمها «مليح» تؤكل وهي طرية ونيئة، لكن أهميتها تبقى ثانوية كمادة غذائية قياساً لبقية منتجات الجمع.

ومن منتجات الجمع الحيوانية يلعب الجراد، من حيث الأهمية، الدور الذي تلعبه الكمأة كمادة إنتاجية نباتية. ولا يشكل الجراد مجرد مادة غذائية بالنسبة للبدو، بل أيضاً طعاماً شهياً ولذيذاً. ويعتبر الجراد اليابس مادة غذائية محفوظة تدوم طويلاً وذات قيمة عالية. ولا تظهر أسراب الجراد بانتظام، بل تأتي غالباً بشكل مفاجئ في وقت ما، بين شباط وبداية الصيف.

وبما أن الجراد يسبب أضراراً فادحة بالزراعة حيث لا تبقى بقعة خضراء أمام قدرتها على الالتهام، تقوم لجان خاصة منذ عشرينات القرن العشرين بمكافحته بشكل منتظم. وقد سبق أن أشرنا إلى تأسيس «قسم المكافحة» في العراق عام ١٩٢٤، ولذلك لن نركز هنا على مكافحة أسراب الجراد الفعالة خلال الفترة التي تمت فيها هذه الدراسة.

وتعتبر الأسراب التي تظهر في الربيع مفضلة كمادة غذائية، «أفضلها الجراد الربيعي المكتنز ... أما النسل المتأخر المتوالد عن هذه التي لا تجد سوى الكلأ المحروق، فهو جاف وغير صحي. والجراد المبكر المحمر يعد وجبة مفضلة في المدينة وفي الصحراء» حسب «دوغتي».

هناك طرق مختلفة لتحضير الجراد. «يقلى الجراد بالزبدة ويحمر أو يغلى قليلاً أو يجفف بكل بساطة تحت أشعة الشمس. ولكن في كل الأحوال لا يؤكل نيئاً، حيث يكون مكروهاً في هذه الحالة. وبالعكس فإن طعم الجراد المحمر مستثاغ جداً ويقارن عادة بلحم الدجاج أو الكستناء المشوية».

وبما أن الجراد لا يتوفر إلا لأوقات قصيرة، ومن أجل الانتفاع منه قدر المستطاع، يجب أن يحفظ، وهذا يتم بالطريقة التالية: حالما يلمح سرب من الجراد، يستنفر كل سكان المخيم، رجالاً ونساءً وأطفالاً ويسرعون إلى المكان الذي حط فيه السرب ويجمعون هذه الحشرات بكميات هائلة. وهذا العمل يتم بعد حلول الظلام، لأن أسراب الجراد لا تنتقل إلا نهاراً.

تجمع الجرادات في أكياس تبقى مسدودة حتى لا تقفز منها، ويتم نقلها على ظهور الجمال إلى المخيم. وهناك تلقى في قدور كبيرة تحوي ماءً مملحاً وتغلى لمدة ساعة أو ساعتين، ثم تجفف في الشمس وتذرى، حيث تنفصل الأجزاء غير القابلة للهضم مثل السيقان والمجسات والأجنحة وتذروها الرياح.

أخيراً ينقل الجراد اليابس والمملح ويخزن بأكياس من الجلد. وفي هذه الحالة يمكن أن تبقى محفوظة لمدة طويلة، ويتم تناولها في هذه الحالة دون أية إضافات. حسب «دوغتي» يتم سحق الجراد اليابس في الهاون ويؤكل ممزوجاً باللبن العيران. أما القيمة الغذائية للجراد فتأتي من خلال احتوائها على نسبة عالية من الزلال (٤٦%) دهن (٤,٥%) ومواد معدنية مختلفة (كالسيوم – كبريت – فوسفور – صودا وغيرها).

كما يحصل البدو على غذاء زلالي عالي القيمة من خلال جمع بيوض الطيور البرية التي تبدأ حوالي نهاية الربيع بالحضانة، وبخاصة بيوض الحباري الكبيرة ودجاج الصحراء المفضلة، لأنها كبيرة جداً ويمكن الوصول إليها بسهولة لأنها توجد في أعشاش أرضية.

ويذكر «موسيل» أن فراخ الدجاج الصحراوي تمسك وتؤكل، بينما حصل المؤلف من مخبرين شمريين على معلومة تفيد بأن الفراخ يبقى عليها لتناولها فيما بعد كصيد بري.

القنص: بما أننا سبق أن ذكرنا أسماء الحيوانات البرية في الجزيرة في مقدمة هذا الكتاب، فلا داع الآن لتكرار ذلك. كما أشرنا أيضاً إلى نقص عدد هذه الحيوانات في الفترة الأخيرة. ومن الحيوانات المفضلة للقنص عند الشمريين نذكر الأنواع التالية:

الغزال والأرنب والهباري والنعام وأنواع عديدة من الدجاج البري. ثم هناك أنواع من السحالي والضب والقنفذ. ولكن لابد من التذكير بأن البدوي الجائع مستعد أن يأكل كل شيء، وبالتالي أن يصطاد كل شيء يمكن استثاغته بشكل من الأشكال.

أما رأي «أوبنهايم» بأن الشمريين ليسوا مغرمين بالصيد، ولذلك قلما تحوي موائدهم لحم صيد، فإنه على ما يبدو يقوم على ملاحظة سطحية، لأن مؤلفين آخرين يدحضون هذا الرأي. حتى أن الثقاة من الشمريين يعترفون بأن القنص كان يمارس قديماً دائماً، عندما كانت الطرائد البرية متوفرة بكميات كبيرة. ويمكن التمييز بين طرق الصيد التالية عند الشمريين:

١- الصيد بالصقور المدربة والكلاب السلوقية.

٢- الصيد الافرادي باستخدام المقلاع والبندقية.

٣- صيد الحيوانات الصغيرة الذي يمارسه الأطفال عن طريق نبش أوكار هذه الحيوانات.

أما الطريقة التي أشارت إليها السيدة «بلونت» حول استخدام الجمال التي تلحق بعضها البعض في قافلة كوسيلة لمطاردة الطرائد البرية فهي ليست سوى وسيلة صيد تتم بطريق الصدفة وليست طريقة معتمدة. أما الصيد باستخدام الفخ فيبدو أنه يقتصر على السكان المستقرين.

حول الطريقة الأولى: يعتبر الصيد بالطيور الجارحة طريقة الصيد الخاصة التي يتميز بها البدو. وربما لم تتطور هذه الطريقة على يد البدو أنفسهم، لأن الباحث «موللر» يشير في دراسته المعمقة عن الصيد بالصقور عند العرب في العصور الوسطى إلى تأثيرات يونانية وفارسية. وكان الصيد باستخدام الجوارح طريقة منتشرة في العالم القديم منذ حوالي ألفي سنة ولا تعرف جذورها بالضبط.

ينفي «موللر» عن بدو العصور الوسطى – بناء على نتائج أبحاثه – أن يكون دافع الصيد بالصقور هو نوع من الرياضة، ويقدم فرضية أن ممارستهم لهذا النوع من الصيد كان بدافع الحصول على الغذاء. لكن هذا الوضع تغير بلا شك خلال القرون التي تلت، لأنه يمكن التأكيد في العصر الحاضر على أن الصيد باستخدام الصقور لدى شمر– وكذلك بقية العشائر البدوية– هو عبارة عن نشاط محبب يمارسه زعماء العشائر ذوي الوضع الاقتصادي الجيد، القادرون على إيجاد الوقت اللازم لذلك، والوسائل اللازمة لتدجين وتدريب صقور الصيد، الذين لا يمارسون هذا النشاط بغية الحصول على غذاء حيواني إضافي، بل كهواية رياضية. وقد لاقت هذه الفكرة دعماً من قبل «ديكسون» بقوله: «منذ أقدم العصور كان الصيد بالجوارح يعتبر بالنسبة للعرب رياضة الملوك». والمقصود هنا بالملوك هم زعماء العشائر، أو بالأحرى أبناء الفئة الحاكمة والمنتمون إليها.

إن اصطياد أنواع الطيور الجارحة وترويضها مثل الشاهين والصقر الحر هو مهمة يقوم بها أتباع موثوقون من حاشية الزعيم. وقد وصف كل من

«موسيل» و«ديكسون» الطرق المتبعة في ذلك وصفاً تفصيلياً. وتباع الصقور المصطادة وغير المدربة بأسعار عالية نسبياً في البلدان العربية. ويتم إيواء الصقور المروضة في القسم الرجالي من الخيمة حيث ترقد على جذع شجرة يبلغ ارتفاعه حوالي ٢٥سم اسمها «وكر» وهذه مثبتة بواسطة قطعة حديد مدببة بالأرض. وتقيد قدما الطائر الجارح بواسطة حزام صيد «سبق» على القاعدة الخشبية. ويغطى رأس الصقر بقبعة جلدية تسمى (برقة) حتى لا ينفر. تنزع عنه قبيل الذهاب إلى الصيد. يحمل الصياد المدرب الصقر بيده التي يحميها كف من الجلد. وحالما لمحت الكلاب المرافقة لحملة الصيد، وهي من النوع السلوقي الطريدة– وهي غالباً هباري أو أرانب أو غزلان– ينزع الصياد القبعة عن رأس الصقر ويطلقه نحو الطريدة التي يتكفل بها، فإما أن يصطادها بنفسه، أو على الأقل يسبب لها الارتباك بحيث يستطيع القناص الراكب قتلها إما بالحربة (الرمح) أو بالبارودة.

ويمكن لهذه الطريقة من القنص أن تكون ذات إنتاج وفير، إذ يمكن لصقر مدرب أن يقبض على عدد قد يصل إلى عشرة هباري وعشرين أرنباً برياً في اليوم إذا ما كانت هناك وفرة في الطرائد.

يتم إعداد الطرائد بعد رحلة الصيد في خيمة الشيخ ويصيب منها الجميع. ولم نلحظ أن هناك قاعدة معينة لدى شمر في توزيع غنائم الصيد. ويرتبط الصيد إلى حد ما بالفصل، حيث تظهر الطرائد حول مراعي شمر بعد بدء موسم المطر.

وإذا ما كانت كمية الصيد أكبر من إمكانية استهلاكها مباشرة، يتم حفظ قسم منها، وبخاصة عندما يتم صيد عدد كبير من الغزلان. يقوم الصيادون بتحضير اللحم على الشكل التالي: ينشرون جثة الطريدة على شكل حصير بعد نزع الأضلاع والعظام الكبيرة ثم يحضرون اللحم بالملح، يقطعونه إلى شرائح طويلة حتى يتسرب الملح إلى الداخل لتسهيل عملية نزع العِظم عن اللحم عند الطبخ.

وهناك طريقة لحفظ اللحم مشابهة تستخدم أيضاً عندما يتم ذبح جمل بشكل اضطراري وتتوفر كمية كبيرة من اللحم. ويسمى اللحم المحفوظ بهذه الطريقة «شجيج لحم» ويتم حفظه في أكياس. وقبل تحضيره يتم نقع اللحم الجاف مساء ويطبخ في اليوم التالي. ولكن هذا اللحم المجفف لا يلعب دوراً كبيراً في تأمين الغذاء للبدو، لأن الحصول عليه يتعلق بعوامل الصدفة، مثل الذبح الاضطراري أو فرصة اصطياد عدد كبير من الطرائد في رحلة قنص.

حول الطريقة الثانية: الصيد الإفرادي بواسطة المقذاف أو بارودة الصيد يستخدم دائماً عندما يعثر البدوي على حيوان أو طائر بري. وهنا تلعب غالباً الصدفة دورها.

بواسطة المقلاع يتم عادة اصطياد العصافير التي تأتي على شكل أسراب (دجاج صحراوي، والحجل وغيرها) بالإضافة إلى الحباري والأرانب. أما بالنسبة للصيد بالأسلحة القاذفة التي ذكرتها المراجع الأدبية اعتباراً من القرن التاسع عشر فقد اتفق المؤلفون على اختلاف مشاربهم أن البدوي لا يتقن استخدام مثل هذه الأسلحة، حيث ذكر الباحث «دوغتي» أن البدوي لا يصيب بأكثر من طلقة واحدة من كل عشر طلقات.

والسبب في ذلك يعود إلى أنهم أولاً لا يملكون بنادق جيدة، ثانياً يعانون من نقص في الذخيرة بحيث لا يستطيعون إجراء التدريبات اللازمة لإصابة الهدف، فمن أجل حيوان بري كبير يغامر البدوي بطلقة أو طلقتين، لكنه يشعر بالندم أياماً طويلة على كل طلقة خائبة.

لهذه الأسباب لا يصطادون بالأسلحة النارية سوى الغزلان والنعام. ويذكر «دوغتي» أن المفضل من لحم النعام هو لحم الصدر، بينما يعتبر دهنه دواءً مفيداً، إذ يقول: «الدهن ذو قيمة كبيرة، إذ يعتبرونه دواءً أساسياً للحرارة

والبرد وأمراض عديدة أخرى». وبناء على معلومات مباشرة من أشخاص موثوقين يرى الشمريون أن لحم الذئب والثعلب والضبع والقنفذ والأفعى – أو على الأقل أجزاء منها – يستخدم كدواء. ولا ندري هنا بالضبط فيما إذا كان لهذا اللحم بالفعل أثر شاف أو أنهم يريدون بذلك تبرير تذوق طعم لحم حيوانات ينظر إليها أنها نجسة.

حول الطريقة الثالثة: صيد الثديات الصغيرة والزواحف يمارسه عادة الصبيان الذين ينبشون على الجرابيع أو القنافذ ويقتلونها بالعصي. يقومون بتحضير طرائدهم بالرماد الحار ثم يتناولونها معاً.

أما صيد الضب فيتطلب مهارة أكثر من تلك التي يتطلبها صيد بقية أنواع الحيوانات التي سبق ذكرها، لأن الضب سريع جداً، مما يجعل صيده معقداً: «يصطاد الضب بالوقوف في طريقه إلى وكره أو بسحبه بواسطة كلاب. يتم شوي لحم الضب في الرماد الساخن ويفضل تناول لحم عضلات ذيله».

باختصار يمكن التأكيد بأن المنتجات الغذائية التي يمكن الحصول عليها من خلال الصيد ليست أكثر من مادة غذائية متممة على لائحة طعام الشمريين، لا تشكل أهمية خاصة إلا في حالات نادرة مثل صيد كمية كبيرة من الغزلان وحفظ كمية كبيرة من لحمها لتكون غذاءً دائماً، وأن طريقة الصيد الأكثر استخداماً عند البدو هي الصيد بالطيور الجارحة المدربة، والتي تبقى على أية حال مقتصرة على أبناء الطبقة الاجتماعية العليا وأتباعهم. ويمكن التأكيد على أن التراجع الملحوظ لكمية الطرائد البرية في شمال الجزيرة العربية قد أدى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى تراجع كبير أيضاً في ممارسة الصيد لدى شمر.

٦- تبادل السلع:

يحتاج الشمريون من أجل تأمين احتياجاتهم إلى المواد الغذائية ذات المنشأ النباتي واللباس والأدوات المنزلية والأسلحة وغيرها، بشكل ملح، إلى تبادل السلع التي ينتجونها مع السكان المستقرين على أطراف الجزيرة. وهذه حقيقة معترف بها وتشكل خاصية من خصائص مربي المواشي وكل الشعوب التي تمارس حياة البداوة في كل مناطق العالم.

فنتيجة لنظامها الاقتصادي الموجه وأحادي الجانب، لا يمكن لهذه الشعوب أن تتمتع بالاستقلال الاقتصادي. وقد ورد في أحد المراجع، وهو الكتاب اليدوي، «ليس هناك من مجتمع بدوي يمكن أن يقيم نفسه بنفسه. حتى ولو كان قادراً على تأمين طعامه الضروري من ديرته، فهو يعتمد على العالم الخارجي لتأمين حاجاته الأخرى وأي نوع من أبسط أنواع الرفاهية. وهناك مواد أخرى مثل الملابس والقهوة والتبغ، وإلى حد كبير السلاح والعتاد، لا يمكن أن تصله إلا عن طريق الموانئ أو من منطقة مستقرة على أطراف الجزيرة العربية».

ويتوصل الباحث «هارتمان» إلى نتيجة مشابهة بقوله: «يحتاج البدوي إلى منطقة استقرار ... ليبادل منتجات اقتصاده بالحد الأدنى بمنتجات مناطق الاستقرار، التي لا يمكن أن يستغني عنها. وبالتالي فإن البدو أكثر ارتباطاً بالتجارة مع السكان المستقرين، وليس العكس.

وقد استُغل هذا الوضع مراراً وتكراراً في التاريخ من قبل حكام «المناطق المتحضرة» – وفي هذه الحالة يمثلها موظفو السلطان العثماني- بحيث منعوا البدو من الوصول إلى أسواقهم المتوارثة، من أجل ممارسة الضغوط الاقتصادية بهذا الأسلوب والتأثير على البدو بما يخدم أهداف الحكومة المسيطرة.

يتم تبادل السلع من جانب شمر على أيدي الرجال. ويكون هذا النشاط بالدرجة الأولى شأناً من شؤون زعيم الأسرة، أو أي عضو آخر ذكر في الأسرة يكلفه الزعيم بذلك. والسلع التي يبادل عليها الشمريون هي عادة منتجات حيوانية: الحيوانات نفسها وبخاصة الجمال الحية والصوف الجلود والزبدة. أما المنتجات التي يتم الحصول عليها من خلال الجمع والصيد فلا تدخل في مجال التبادل.

هناك سلعة تجارية أخرى عند شمر سوف نتطرق إليها بشكل خاص: ألا وهي الملح، مع أن تجارة الملح لا تصل أبداً من حيث القيمة إلى أهمية التبادل السلعي الناتج عن تربية المواشي.

كانت حركة السلع بين شمر والسكان المستقرين تتم أثناء فترة إجراء هذه الدراسة كلها – ماعدا بعض الحالات الاستثنائية القليلة – بالشكل المتطور لنظام بضاعة – مال – بضاعة.

ويؤكد أوبنهايم على سبيل المثال أن السلع التي يحتاجها البدو يجب أن يتم الحصول عليها عن طريق الشراء. ولم يثبت وجود نظام التبادل البسيط القائم على مبدأ بضاعة مقابل بضاعة بالنسبة لشمر في كل المراجع المتوفرة بين أيدينا إلا في حالات متفرقة.

بالمال الذي يحصل عليه الشمريون من بيع منتجاتهم يشترون بالدرجة الأولى القمح والشعير والذرة والرز والقهوة والسكر والتبغ ثم الألبسة والبارود والرصاص وأدوات أخرى مثل الفؤوس والقدور وأواني القلي والحبال. وهناك سلعة أساسية جداً بالنسبة لشمر كغذاء يمكن الاحتفاظ بها لمدة طويلة، هي «التمر» الذي يشترونه من أواسط العراق.

قلما تطرقت المراجع المتوفرة إلى مدى حذاقة ومواقف الشمريين لدى إنجاز صفقاتهم التجارية. وقد كتبت السيدة «بلونت» حول هذه النقطة بعض الشيء الذي يبدو عليه غلبة الطابع الذاتي إذ تقول: «البدو غير حاذقين تجارياً. فعرض شراء ممتلكاتهم هو كريه دائماً بالنسبة لهم ... وليس لديهم مبدأ للتعامل إلا زيادة السعر المطلوب بفارق كبير عن السعر الذي يفترضه الشاري ... وتختلف الروح التجارية اختلافاً كبيراً باختلاف العشائر».

وحسب مشاهدات مؤلف هذا الكتاب في الأسواق العراقية، فإن الشمريين تجار في منتهى الشطارة، حيث يساومون طويلاً وبمرارة للوصول إلى سعر في صالحهم.

ويمكن تلخيص مختلف أنواع علاقات شمر التجارية في نوعين رئيسيين:

أ - التجارة ضمن الجزيرة عن طريق تجار وسطاء.

ب- الأسواق في المناطق الممتدة على أطراف الجزيرة.

حول النقطة أ: ينجز الشمريون جزءاً من صفقاتهم التجارية عن طريق تجار وسطاء. فمنهم يحصلون على الحيوانات المخصصة للبيع في السوق، ومن الآخرين على البضاعة التي تباع للبدو. وهنا تحتل تجارة المواشي أهمية اقتصادية كبيرة.

«في الأزمنة القديمة، أيام الغزو القبلي، لم يكن رجال القبيلة قادرين على مغادرة قبائلهم للشراء أو لبيع المواشي في بلدان بعيدة، لثقتهم بأنهم سيتعرضون للنهب وهم في الطريق من قبل قبائل معادية. لذلك كانت هذه التجارة البعيدة بأيدي التجار الذين كانوا يشترون في أنحاء شبه الجزيرة العربية ويصدرون مشترياتهم من القطعان إلى سورية ومصر».

ولوقاية أنفسهم من النهب والسلب يختار التجار رجالاً يثقون بهم بين مختلف عشائر البدو الذين ستمر قوافل المواشي المشتراة عبر أراضيهم. يتلقى هؤلاء الرجال الوسطاء (ويطلق على الواحد منهم اسم شريك أو حسنة) أجرهم على شكل أقمشة وفواكه من التاجر صاحب الماشية تدفع له سنوياً، بشرط أن يؤمن له صفقاته مع البدو.

وهناك بالدرجة الأولى ثلاث شركات تجارية كبرى تختص –حسب ما ذكر «موسيل»– بتجارة الجمال في شمال شبه الجزيرة العربية. أولها البيت التجاري المعروف باسم «ابن بسام» هؤلاء يصدرون الجمال من شبه الجزيرة العربية ويعملون كممثلين تجاريين لاستيراد القهوة والتوابل والأرز، ليس فقط القادمة بالبواخر أو بواسطة القطارات، بل أيضاً على الجمال، ويزودون البدو بالسلاح.

بهذه التجارة تعمل أيضاً «عائلة السالم» و«عائلة العيسى». وتدر هذه التجارة أرباحاً طائلة على التجار الذين يساهمون بها. ويذكر الباحث "دوغتي" عن أحد تجار المواشي هؤلاء وهو ابن ناهال بقوله: «لقد تطورت تجارته بالجمال ليصبح واحداً من أغنى عرب الجنوب».

لكن المراجع تخلو من ذكر الأسعار التي كانت تدفع للبدو لقاء شراء الجمال خلال الفترة التي جرى فيها هذا البحث. وكذلك الأمر بالنسبة للأسعار التي تباع فيها المواشي في الأسواق، بحيث لا تتوفر لدينا معطيات حول أرباح التجار الوسطاء.

هناك إشارة ذكرها «موسيل» حول نسبة تقسيم الأرباح بين الشركات التجارية الكبرى وبين التجار الوسطاء، مفادها بأن الشركة تحصل على ثلثي الأرباح والتاجر الوسيط على الثلث. بينما تقع الخسائر، التي قد تنجم عن عملية نقل المواشي، على عاتق الشركة.

أما التجارة البسيطة مع شمر فيقوم بها باعة جوالون يسكنون المناطق المتاخمة للجزيرة ومنها ينطلقون ببضاعتهم محمولة على ظهور الحيوانات من مخيم إلى آخر يبيعون البدو سلعاً مختلفة مثل التبغ والسكر والحلويات، ثم انضمت الشاي فيما بعد إلى هذه اللائحة.

ويستفيد الباعة الجوالون في رحلاتهم التجارية هذه من كرم الضيافة عند البدو. وقد استمر هذا النوع من التجارة الصغيرة حتى الوقت الحاضر، بينما انقرض يع الجمال للتجار الوسطاء.

حول النقطة ب: يتولى الشمريون بأنفسهم تأمين المواد الأخرى مثل التمر والحبوب والملابس والمواد الاستهلاكية الأخرى، حيث يرسلون مرة كل عام قافلة تجارية إلى السوق الأقرب إلى مراعيهم.

يتم ارتياد الأسواق عادة في تشرين الأول (أكتوبر)، أي بعد جني التمور عندما يكون العرض كبيراً، وبالتالي تكون الأسعار مناسبة، حيث يشتري ممثلو العشائر الذين يذهبون إلى السوق كل ما يلزمهم من التمور والحبوب من أجل مؤونة تكفي طيلة العام. يختلف حجم هذه المؤونة باختلاف عدد أفراد كل أسرة، وهذا يتراوح بين حمولة جملين حتى عشرة جمال لكل عائلة، علماً بأن حمولة الجمل تبلغ حوالي ٣٠٠كغ.

ويفضل الشمريون من أجل مؤونتهم أنواعاً محددة من التمور مثل نوع يسمى «زهدي» أو «جاسب» أو النوع الأغلى المسمى نوع «خستاوي» الذي يشتريه الشيوخ ذوو الوضع الاقتصادي الجيد. ويتم نقل وتخزين التمور والحبوب بأكياس من الصوف تصنع يدوياً، وتوضع في قسم النساء من الخيمة.

عادة ما يتم شراء التمور من شوارع مدينة «حلة» و«هيت» وبغداد. بينما يتم الحصول على الحبوب بالدرجة الأولى من الأسواق الواقعة على الطرف الشمالي للجزيرة مثل الموصل، وتل عفر، وسنجار وفي الجزيرة الغربية (دير الزور مثلاً). وتعتبر مدينة «عانة» على الفرات مركزاً تجارياً سواء بالنسبة للتمور أم للحبوب.

إذن يمكن القول أن كل المستوطنات الكبيرة على أطراف الجزيرة كانت في الوقت نفسه أسواقاً يرتادها الشمريون في الخريف بقصد تبادل السلع.

قسم كبير من سكان هذه المناطق أصبح متخصصاً بالتجارة مع البدو، حيث ذكر مثلاً «موسيل» عن سكان دير الزور ما يلي: «يؤمن السكان حياتهم بالدرجة الأولى عن طريق التجارة، يشترون الصوف، يصنعون البسط والأغطية للبدو، كما يشترون زبدة الغنم والماعز التي يصدرونها بالدرجة الأولى إلى دمشق التي يستوردون منها ومن حلب السلع الأوربية وبخاصة القطن وقماش الكتان ومن بغداد التنباك وعباءات لمواطنيهم.

هؤلاء التجار هم عادة من المسلمين العرب ومن المسيحيين العرب والآشوريون. ويحصل الشمريون على المال الذي يشترون به حاجاتهم الضرورية من بيع جمالهم بالدرجة الأولى، ونادراً عن طريق بيع الأغنام والماعز، ثم من بيع صوف الغنم ووبر الجمال والسمن.

وهناك دخل إضافي يحصل عليه الشمريون من تجارة ملح الطعام. ففي مناطق عديدة من الجزيرة (انظر الخارطة) هناك أماكن وجود الملح على شكل سبخات، تتشكل على حوافها بللورات ملح الطعام خلال فصل الصيف.

ومن أهم السبخات التي يحصل منها الشمريون على ملح الطعام نذكر: أم الذيابة والبوارة وعديد. وهذا الملح يتألف – كما أثبت تحليل قام به معهد الكيمياء غير العضوية التابع لجامعة كارل ماركس في مدينة لايبزغ- (أصبح اسمها الآن جامعة لايبزغ بعد إعادة توحيد ألمانيا- **المترجم**) حتى ٩٠% من ملح طعام نقي.

وحول التجارة بملح الطعام مع الموصل هناك ملاحظة مفيدة قدمها لنا الباحث «ريتش» بقوله: «قافلة من عرب جربا وصلت لتوها مع ملح من منطقة الحضر القريبة».

(ربما جاء الملح المشار إليه آنفاً من أم الذيابة لأن هذه البحيرة المالحة لا تبعد أكثر من حوالي ٢٠كم شمال غرب الحضر – **المؤلف**).

في الماضي اعتاد سكان الموصل على إرسال قافلة مرة في العام من أجل الملح تحت حماية شديدة، لكنها انقطعت منذ زمن طويل ... والبدو يقومون الآن بأنفسهم بجلب الملح إلى الموصل.

ويمكن الافتراض أن تزويد المدن الأخرى الواقعة على تخوم الجزيرة بالملح يتم بهذا الأسلوب. ويبدو أن التجارة بالملح كانت تشكل أيضاً مصدراً للدخل عند بقية العشائر البدوية التي يوجد في مناطق مراعيهم مخزون الملح.

وهناك أكثر من باحث تحدث عن تجارة البدو بالملح بطريقة تبادل السلع، حيث كانت تتم مقايضة كل وزنة ملح مقابل وزنة مماثلة من الحبوب. ولكن بالنسبة لشمر ليس هناك في المراجع ما يثبت أنها مارست تجارة المقايضة.

أما التجارة بالسلاح والذخيرة فلها أهمية خاصة كان للبدو فيها نصيب وافر. لم تتطرق المراجع إلى دور خاص قام به الشمريون في هذه التجارة بالأسلحة، وربما كان يرجع ذلك إلى حقيقة أن التجارة بهاتين السلعتين – أي السلاح والذخيرة – كانت تتم في معظم الأحوال سراً – كبضاعة مهربة.

وقد سبق التأكيد على أن كبريات شركات التجارة العربية قد زودت البدو بالسلاح، ويذكر لنا «موسيل» حول هذه المسألة التالي:

«فقط عندما يكون العميل قد اشترى الأسلحة والذخائر من الكويت أو أزهر من أجل البيع ويبادلون مواشيهم لقاء هذه المواد.»

هناك إشارة ذات دلالة كبيرة على مصدر الأسلحة النارية الحديثة – في وقت متأخر نسبياً أي خلال الحرب العالمية الأولى- أوردها الباحث «روزان» بقوله:

«قدم الألمان آلاف من بنادق الماوزر في الحرب العالمية إلى العشائر البدوية التي كانت خاضعة للحكم التركي». إذن يمكن افتراض أن العشائر البدوية قامت بدورها ببيع هذه الأسلحة.

وتتجلى قيمة الأسلحة والذخائر من خلال مظاهر عدة منها مثلاً حل مسألة الأخذ بالثأر، بالإضافة إلى الجمال وخيول الركوب، وحول نوعية سلاح وذخائر البدو كتب الباحث «فيلد»:

«البارودة التركية القديمة هي السلاح الأكثر شيوعاً، لكن أحياناً قد توجد بارودة ألمانية قديمة لدى بعض العرب. أما الذخيرة فهي تركية وكثير من الخرطوشات تحمل تواريخ تعود إلى عشر سنوات خلت على صنعها. ومن بين البنادق التركية المشهورة والتي كثيراً ما يرد ذكرها هي البندقية العسكرية (المارتين)».

٧- التغذية:

بعد معالجة المصادر الغذائية المتوفرة لدى شمر يبدو من المفيد أن نلقي نظرة على الوضع الغذائي لهؤلاء البدو. وهنا يجب استعراض تركيب الأغذية اليومية وطعام المناسبات الاحتفالية ودور الأغذية المحفوظة والمحرمات الغذائية ثم الكمالي من الغذاء.

أ. **الطعام اليومي:** لا يتناول البدو عادة أكثر من وجبتي طعام في اليوم، طعام الفطور صباحاً وهو مؤلف من التمر والعيران (الشنينة). ومساء يتناولون البرغل، الذي يطبخ في ماء مالح ويضاف إليه السمن ودهن الخراف ويضاف إليه غالباً البصيلة المملحة كنوع من التوابل، ويشربون معه العيران أو الحليب الطازج.

أما العائلات الفقيرة فقد لا تتناول إلا وجبة واحدة يومياً مؤلفة من الحليب والتمر أحياناً مع صحن من الأرز أو قطعة من الخبز. ويمكن الحصول على الخبز طالما بقي لدى الأسرة مؤونة من الطحين الذي اشترته مسبقاً من السوق. يتم عجن الطحين بالماء وخبزه على قطعة من الصفيح توضع على النار على شكل دوائر. ويشكل هذا الخبز بالإضافة إلى الدبس والعيران وجبة مرغوبة جداً.

ولا توجد أطعمة إضافية إلا في الربيع حيث يتم جمع الكثير من الكمأة، وحيث تظهر أسراب الجراد، أو يتم جمع بيوض الطيور البرية واصطياد الطرائد.

لا يتناول الشمريون اللحم إلا في حالات يتم فيها ذبح اضطراري لبعض مواشي القطيع – طبعاً ماعدا المناسبات الاحتفالية أو الحصول على صيد وفير– أما الحصول على المواد الغذاية الأساسية فيتم عند الشمريين على الشكل التالي:

زلال البيض: من الحليب ومشتقاته، بيض الطيور البرية، الجراد واللحم كربوهدرات: من التمر والقمح والشعير والذرة البيضاء والأرز (وهذا نادر). والنباتات البرية والسكر والتمر والدبس والحليب.

الدهون: من الحليب، اللحم، الجراد، الزبدة، دهن الخراف.

رغم ذلك هناك عجز في تغذية شمر من السكر والدهون، مما جعل دهن سنام الجمل وإلية الغنم من الأطعمة الفاخرة عندهم.

يحصل البدو على حاجتهم من الفيتامينات بتناول الحليب والتمر والنباتات البرية. أما الفواكه والخضار فقلما يتناولها البدوي. ولكن أوبنهايم ذكر أنهم يتناولون البطيخ الأحمر الذي يلتهمونه بكميات كبيرة جداً. ولكن لا يمكن الحصول على هذه الفاكهة إلا من وديان الأنهار المسكونة والقريبة منهم بشكل مباشر، ويحصلون على الملح اللازم من السبخات المتواجدة في الجزيرة.

أما فيما يتعلق بآداب تناول وجبات الطعام فيمكن القول: بما أنه من العيب أن تتناول المرأة طعاماً أو شراباً بحضور الرجل، فإن الرجال والنساء يتناولون الطعام منفصلين. أول ما يأكل أعضاء الأسرة من الذكور معاً أو مع الضيوف، إن وجدوا، بعدهم تأكل النساء والفتيات مع الأطفال الصغار في قسم النساء.

وبما أنهم لا يستعملون الملاعق وغيرها في تناول الطعام فإنهم يأكلون باستخدام اليد اليمنى. ويغسل البدو أيديهم قبل وبعد تناول الطعام، أو على الأقل اليد اليمنى. وفي حالة نقص الماء ينظف البدوي يديه بعد الطعام بمسحهما بجدار الخيمة الجانبي.

وغالباً ما يأكلون بسرعة ويصدرون أصواتاً أثناء الطعام. يبدأون طعامهم بعبارة «باسم الله» وينهونه بعبارة «الحمد لله». ولابد من التأكيد على القاعدة التالية: لا يجوز للضيف أبداً أن يطلب من مضيفه تحضير وجبة الطعام، بل عليه أن يصبر حتى يبادر هذا الأخير من تلقاء نفسه للأمر بذلك.

ب. طعام الاحتفال: في مناسبات خاصة (قدوم ضيوف، ولادة طفل، عقد قران، وفاة رجل ذي مكانة، نهاية شهر الصوم وغيرها). يقيم الشيخ أو سيد الخيمة ذات العلاقة، التي تتعلق بها مثل هذه المناسبات، مأدبة طعام ضخمة يذبح فيها حيوان أو أكثر – حسب قدرة المضيف – ويقدم اللحم، الذي تطبخه النساء، على صوان معدنية كبيرة، ويطبخ معه البرغل أو الأرز ويصب فوقها الدهن بكميات وافرة. ولدى شمر عادة متعلقة بالطعام وهي وضع كبد الذبيحة على الطعام، وكل مشارك في الاحتفال يبدأ طعامه بتناول قطعة صغيرة منه لأنه- حسب قولهم- يفيد الأسنان.

إذا كان عدد الضيوف يفوق العدد الذي يمكن استيعابه على مائدة واحدة، يقدم الطعام في عدة أقسام من الخيمة: أول ما يبدأ كبار الضيوف الذين يدعوهم المضيف لمباشرة الطعام حيث تخصص لهم أفضل أجزاء الذبيحة وبخاصة الدهن. ثم يأتي دور الدفعة الثانية وأخيراً المضيف مع الرجال التابعين له، بعدهم الصبيان وأخيراً يعاد ما تبقى من الطعام إلى قسم النساء حيث تتناوله النساء والأطفال الصغار.

وبشكل عام يمكن التأكيد بأن كل مشارك في مأدبة طعام احتفالية يمكن أن يأكل حتى يشبع، ولو أن الدفعة الأخيرة لا يتبقى لها إلا الرز أو البرغل المشبع بالدهن والعظام.

في مأدبة طعام في خيمة شيخ مشايخ شمر «مشعان بن فيصل» أقامها بمناسبة عيد الفطر في شباط عام ١٩٦٢ قدمت صينية طعام وعليها ٦٠كغ من الأرز المطبوخ ولحم خمسة خراف مذبوحة.

ج- الأطعمة المحفوظة: من بين خمسة أنواع مختلفة من الأطعمة المحفوظة، متوفرة للشمريين وهي: الحليب المجفف، «بقل» كمأة مجففة، «شجيج»، والجراد اليابس واللحم المجفف «شجيج لحم» والبصيلة، يحتل

الحليب المجفف الأهمية الكبرى، لأنه الطعام المحفوظ الوحيد الذي يمكن إنتاجه حسب خطة وليست بالكمية المتعلقة بالصدفة كما بالنسبة لبقية الأطعمة المحفوظة. فالبدوي مضطر لتنظيم اقتصاده حسب خطة يستطيع بها أن يخزن مؤونة لفترة الجفاف. والمثال الأوضح على ذلك هو إنتاج الحليب المجفف. وقد سبق لنا أن شرحنا طريقة إنتاجه.

وفي معرض الحديث عن التغذية لابد من التطرق إلى تحضير الحليب المجفف. فأثناء فترة الجفاف، حيث لا يتوفر الحليب الطازج، ينقع عدد مناسب من قطع هذه المادة في الماء ويترك حتى الصباح، وفي اليوم التالي يؤكل المنقوع الناتج عن ذلك مع التمر. يمكن نقع هذه القطع بعد تقطيعها في الماء لتعطي بعد ذلك مشروباً يشبه العيران، كما يمكن أن يطبخ مع اللحم.

أما تحضير الكمأة المجففة فيتم على الشكل التالي: تنقع مساء في الماء ثم تطبخ في الصباح التالي ويضاف إليها الملح ودهن الخروف وبهارات البصيلة، فتعطي وجبة تسمى «فقيص» تؤكل مع الخبز.

أما الجراد اليابس فليس هناك طريقة خاصة لتحضيره، حيث يتم تناوله دون أية إضافات أخرى، ويعتبر وجبة ذات قيمة عالية. وقد وصف الباحث «هيس» تناول الجراد في أواسط شبه الجزيرة العربية قائلاً: «من أجل استهلاكه يطحن في الهاون ويمزج مسحوقه بالملح والدهن أو أحياناً أيضاً بالتمر».

ويتم نقع اللحم المجفف قبل استخدامه بالماء ثم يطبخ ويعامل كما يعامل اللحم الطري. كما يمكن سحقه في الهاون ويتم إعداد المرق من مسحوقه، يؤكل مضافاً إلى البرغل. أما ما حفظ من البصل البري فلا يؤدي- بالمقارنة مع بقية أنواع الأطعمة المحفوظة- إلا دوراً ثانوياً في غذاء الشمريين، لأنه لا يستخدم إلا كتوابل مع الأطعمة. ويجب عدم الاستهانة به كمصدر للفيتامينات.

د- المحرمات في مجال التغذية: حول الأغذية المحرمة على البدو يقول المؤلف «زونن» بالنسبة للبدوي فكل ما يؤكل مسموح له تناوله إلا ثلاثة أشياء: حرم علينا الله ثلاثة أشياء الميتة والدم ولحم الخنزير. بالإضافة إلى هذه المحرمات التي وردت في القرآن الكريم والتي يتقيد بها الشمريون، هناك محرمات أخرى وهي:

- لحم الكلاب
- لحم الحمير
- لحم الخيل
- وكل الحيوانات التي لا تذبح حسب التعاليم، أي أن يقوم رجل بذبحها لكي يدمى الحيوان المذبوح جيداً.

كل ذلك يعتبر حراماً إلا في الحالات الاضطرارية القصوى. نذكر هنا قصة حاتم الطائي المشهورة الذي قدم لضيوفه لحم فرسه لأنها كانت آخر ما تبقى لديه بعد موجة جوع شديدة. وإذا ما صدف مثلاً أن قامت امرأة بذبح حيوان في حالة اضطرارية نظراً لعدم وجود رجل قريب منها، فيعتبر لحم هذه الذبيحة حراماً على الرجال، ويمكن أن تأكله النساء.

ومن المشروبات يعتبر الكحول بكل أشكاله حراماً. وهناك عادة مثيرة حول شرب الماء ذكرها «هيس» حيث لا ضير بالنسبة للرجال من شرب ما يتركه الجمل أو الحصان ولكن ما يبقى من ماء بعد أن تشرب منه النساء والكلاب فلا يشربونه.

هـ- أطعمة وأشربة بقصد التمتع: المواد الوحيدة التي يستخدمها الشمريون من أجل المتعة هي: التبغ والقهوة. أضيف إليهما مؤخراً شرب الشاي، نقول مؤخراً لأن المراجع القديمة لم تذكرها مطلقاً.

يتم شراء التبغ والقهوة إما من الأسواق أو من الباعة الجوالين لقاء أسعار مرتفعة نسبياً. ومن هنا فإنها تعتبر بالنسبة للبدوي البسيط من مظاهر الأبهة ذات الثمن المرتفع. يدخن البدو التبغ (التتن) من غلايين قصيرة من الطين المشوي «سبيل» وأحياناً يمضغ مسحوقاً، وبخاصة من قبل المتقدمين في السن. وبينما يشارك الرجال والنساء في استهلاك التبغ، وخاصة كبار السن منهم، فإن شرب القهوة يقتصر على الرجال فقط.

أما أدوات تحضير القهوة التي غالباً ما لا تتوفر إلا في خيمة الشيخ فقد سبق وصفها بالتفصيل في القسم المتعلق بالثقافة المادية. ويتم تقديم القهوة حسب نظام تراعى فيه منزلة الموجودين. وتحضر القهوة فور وصول الضيوف وكذلك عقب إقامة مخيم جديد.

٨- علاقة فروع الاقتصاد مع بعضها البعض والدورة السنوية:

تقودنا مقارنة بين الفروع التي يتشكل منها مجمل اقتصاد شمر- جربا إلى النتائج التالية:

أ- تحتل تربية الماشية مكان الصدارة مقارنة بفروع الاقتصاد الثانوية مثل الجمع والصيد ومنتجات الحرف اليدوية التي يمارسها البدو.

ب- ضمن مجال تربية الماشية تأتي الجمال في المرتبة الأولى، لأن الفائدة ذات الجوانب المتعددة من الجمال (مثل النقل، وتغطية الحاجة إلى الطعام والملابس ومادة الوقود ثم أخيراً بيعها في السوق) تعني بالنسبة للشمريين تأمين حاجاتهم الأساسية. وبالعكس فإن تربية الغنم

والماعز تحتل مرتبة ثانوية، لكن أهميتها بدأت في الآونة الأخيرة تزداد مع تراجع أهمية الجمال. وليست هناك أهمية اقتصادية تذكر بالنسبة للحصان.

ج- يضيف الشمريون إلى مصادر الطعام المتوفرة لديهم منتجات حيوانية ونباتية من خلال الجمع من البرية وكذلك من خلال الصيد إلى حد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف الطبيعية السائدة وبالتالي بشكل متقلب. يجب التنويه هنا بشكل خاص إلى تحضير الكمأة والجراد ولحم الغزلان وتحويلها إلى غذاء قابل للحفظ لتشكل مخزوناً غذائياً لأوقات الشدة.

د- بواسطة العمل اليدوي الذي يتجلى بالدرجة الأولى بشكل أعمال يدوية تمارسها النساء، يغطي الشمريون جزءاً من حاجتهم للألبسة ومواد أخرى لازمة للتجهيز الداخلي للخيمة وللنقل، بينما يجب الحصول على معظم قطع الملابس الضرورية والأدوات المستخدمة في الخيمة وأدوات الإنتاج الأخرى من خلال التبادل التجاري مع السكان المستقرين.

ومن نتائج بحثنا حتى الآن يبرز الدور الرئيسي لتربية الماشية كأساس للحياة الاقتصادية بالنسبة لشمر تجاه بقية الفروع الاقتصادية الأخرى. ولممارسة هذا النوع من النشاط الاقتصادي يبرز دور المراعي وأماكن توفرها كأهم وسيلتين من وسائل الإنتاج.

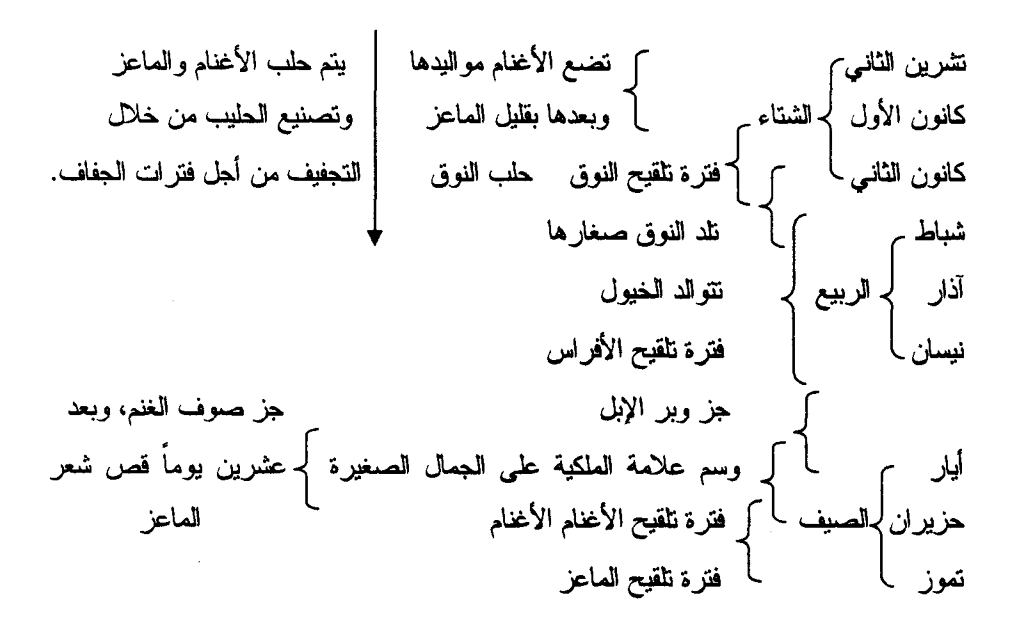
وإذا ما تابعنا في الختام مسار العملية الاقتصادية في مجال تربية الماشية والجمع والصيد في دورتها السنوية تتضح لنا بعض الظواهر المميزة

للحياة الاقتصادية عند الشمريين (قارن الجداول التالية المتعلقة بتربية الماشية واقتصاد الجمع والصيد). الشيء الملفت للنظر بالدرجة الأولى هو تركيز النشاط الاقتصادي في كافة مجالاته بعد بدء موسم المطر (من نهاية كانون الأول حتى منتصف كانون الثاني) حتى بداية فترة الجفاف (من بداية حتى منتصف أيار).

في هذه الفترة تحدث الهجرة الربيعية التي يعيش الشمريون أثناءها في ظل وجود أفضل المراعي وينشغلون بالدرجة الأولى بتصنيع الملح المتوفر بكميات كبيرة. كما يتم في هذه الفترة الانتفاع من الجمع والصيد في إنتاج مواد غذائية إضافية. وحوالي نهاية موسم المطر يتم جز صوف المواشي وتخزينه لبيعه في الخريف في السوق.

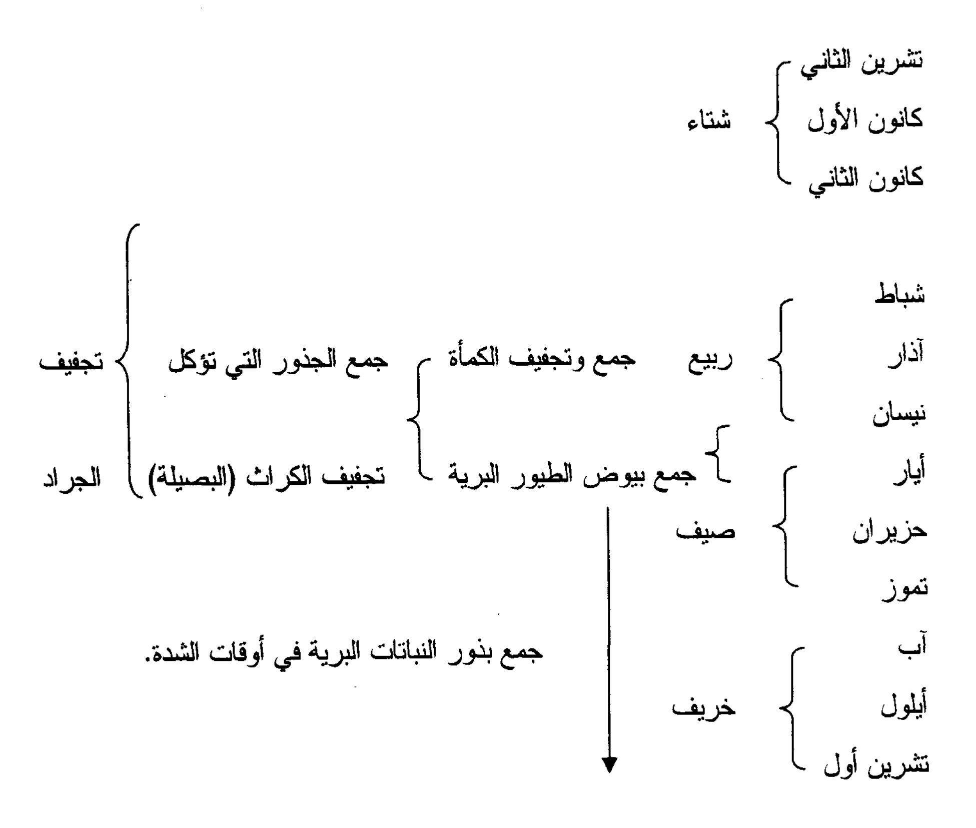
أشهر الصيف- وكما نرى في الجداول التالية- غير منتجة أبداً من وجهة نظر اقتصادية، حيث يكون البدو منشغلين بالدرجة الأولى باستخراج الماء من الآبار لتأمين قطعان الماشية من أخطار فترة الجفاف. وحوالي نهاية الصيف يتوجه الشمريون إلى الأسواق للتزود بالمؤونة ذات المنشأ النباتي والمواد الاستهلاكية الكمالية والألبسة والأدوات المنزلية والأسلحة.

الدورة السنوية لتربية المواشي



آب
أيلول
تشرين الأول
الخريف

الدورة السنوية لاقتصاد الجمع



الدورة السنوية للصيد

تشرين الثاني
كانون الأول
كانون الثاني
شتاء
يتم صيد القنفذ والضب طيلة العام (بنبش أوكارها). صيد الذئاب والثعالب وبنات آوى والضباع غير مرتبط أيضاً بفصل معين.

شباط
آذار
نيسان
الربيع
صيد الغزلان في الجزيرة
تجفيف اللحوم وحفظها
صيد الحباري وغيرها من الطيور البرية وكذلك الأرانب.

أيار
حزيران
تموز
صيف
نبش الحرادين من مكامنها

آب
أيلول
تشرين أول
خريف

الفصل الثالث

التحول الاقتصادي

هناك عمليات تحول، طرأت على تاريخ الشعوب التي تمارس تربية الماشية كنظام اقتصادي، إلى الزراعة، وبالتالي إلى نمط حياة الاستقرار في حالات كثيرة. ولهذا التغيير أسباب متعددة. وفي أغلب الحالات تكمن ضرورة قصوى خلف هذا التحول، سواء من خلال إجراءات ملزمة تتخذها الحكومة التي تسيطر على منطقة وجود البدو، أو من خلال فقدان القطعان نتيجة عملية سطو كبرى، أو من خلال الأوبئة أو فترات الجفاف القاسية، أو من خلال الطرد من أماكن الرعي من قبل عشائر بدوية أخرى أقوى،بحيث يضطر السكان البدو الذين يتعلق الأمر بهم إلى البحث عن مصدر دخل جديد للحفاظ على حياتهم.

وقلما حدث تحول طوعي من البداوة إلى حياة الزراعة المستقرة، لأن ممارسة الزراعة تتضارب مع مُثُل حياة البدو، ومع مجمل تقاليدهم التاريخية، حيث ينظر البدو إلى العمل المباشر في الزراعة على أنه منحط وشر لابد منه. وتعكس العبارة التي ذكرها الباحث «موسيل» مدى اشمئزاز البدو من نمط حياة الاستقرار، ومن السكان الحضر بشكل عام، إذ يقول على لسان أحد البدو:

«نحن البدو ليس لدينا شفعاء مثل أولئك الحضر، الذين لا يقرون بحقنا في دخول الجنة. وبصراحة لا رغبة لدينا في دخول الجنة إذا ما كان الحضر من سكانها».

كما ذكر الباحث «حتي»، وهو خبير ممتاز في أحوال العرب، في هذا السياق بوضوح أن: «الزراعة وكل أنواع التجارة والحرف اليدوية هي دون مقامه» (أي مقام البدوي).

من هذه النظرة يتضح التطور العكسي من الزراعة إلى البداوة الذي لعب مثلاً دوراً كبيراً في هجرة شمر من هضاب نجد.

وعن سورية يقول «بوشمان» «لوحظ عند بعض السكان الحضر في مراحل صعبة عودة إلى تربية الأغنام التي تعني العودة إلى البداوة».

ويورد الباحث «جمالي» بعض الأمثلة من العراق حيث غادرت بعض العشائر قراها التي سبق أن استقرت فيها، لتعود إلى نمط حياة البداوة أو شبه البداوة.

وكما سوف نعرض له بالتفصيل فقد طرأ تغير كبير على موقف شمر الرافض من الاستقرار والعمل في الزراعة في عملية استمرت عقوداً طويلة. والآن أصبح بدو شمر نتيجة لاعتبارات عملية مستعدين للتحول نحو العمل الزراعي المستقر. ولكن هذا التحول الاقتصادي لم يتم قطعاً دون إشكالات، بل اصطدم بعقبات عديدة ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية وسياسية.

تواجهنا صعوبة رئيسية في ملاحظة التحول الاقتصادي لشمر بوضوح، ألا وهي وجود مراحل مختلفة في وقت واحد تواكب الطريق نحو الاستقرار. والمراحل الانتقالية المختلفة التي وصفها الباحث «جمالي» يمكن أن تنطبق بالتمام والكمال على ظروف شمر - جربا.

«أثناء عملية تخليه عن نمط حياته البدوية في شبه الجزيرة العربية يبدو أن البدوي يدخل مراحل مختلفة للتحول قبل أن يصل إلى مرحلة الاستقرار الزراعي». فالعشيرة نفسها، بل حتى قسم من العشيرة يمكن أن يتألف من مجموعات في مراحل مختلفة تتجه جميعاً نحو الاستقرار.

بعد هذه الملاحظة الأولية نتحول إلى الموضوع الخاص بالتحول الاقتصادي عند عشائر شمر ونعالج بعض المشاكل التي نتجت عن الانتقال من الحياة البدوية القائمة على تربية الماشية إلى الاشتغال بالعمل الزراعي المستقر.

١- المحاولات القديمة للتحول إلى الزراعة وأسباب فشلها:

انطلقت أولى محاولات توطين شمر- جربا من قبل الحكومة التركية حوالي منتصف القرن التاسع عشر. ولا تقدم لنا المراجع المتوفرة في متناول أيدينا تأريخاً دقيقاً لذلك. لكن الأمر هنا يتعلق بإجراءات قسرية قام بها الأتراك أثناء حكم «أرصلان باشا» أو بالأصح «أصلان باشا» وذلك للسبب التالي:

«لتحويل عرب وادي الفرات من بدو رحل وسكان خيام إلى فلاحين يسكنون البيوت، كان المرء يأمل من ذلك استصلاح الأرض، وفي الوقت نفسه خلق نظام أسهل لجباية الضرائب. بذلت جهود كبيرة من أجل ذلك وبتكاليف باهظة أيضاً. ففي كل مكان أقيمت القرى والبيوت من الطين والحجارة، ولم يطالب العرب إلا بمغادرة خيامهم والانتقال للسكن في هذه البيوت»

خلف هذا الوصف الذي ذكره «شاو» تكمن مجموعة من الإجراءات القسرية الحساسة قامت بها الحكومة التركية وقواتها العسكرية، التي لم تكن أبداً موفقة في جعل البدو ينسجمون مع نمط حياة الاستقرار الذي لم يعتادوه ولا يرغبون به. ولم يتطرق هذا الباحث إلى السبب الرئيسي في تنفيذ هذه الإجراءات. فقد كانت للحكومة التركية مصلحة في مراقبة العشائر البدوية

المتنقلة وشبه العسكرية التي كانت قادرة في كل وقت – وهذا ينطبق بشكل خاص على شمر– على خلق مناسبات غير سارة بالنسبة للولاة الأتراك، من خلال نهب القوافل والقرى والمدن.

وبفضل السيدة «بلونت» وصلنا وصف للإجراءات المحددة التي اتخذتها الحكومة التركية في ظل «أصلان باشا». يعتمد الوصف الذي قدمته لنا هذه السيدة على التوطين الإجباري لمجموعة «سبعة» (وهي من عشائر عنزة)، ويمكن أن ينسحب ذلك أيضاً على الطرق التي اتبعت ضد شمر. تقول السيدة «بلونت»:

«سير أصلان باشا قوات ضخمة ضد فرع من «سبعة» وجدهم مخيمين في وادي الفرات وطوقهم معلناً أنها إرادة السلطان بأن يتخلوا عن حياتهم البدوية ويسيروا على نهج جديد في حياتهم كمزارعين، الأمر الذي لا شيء أكره للبدوي ولا إهانة أكبر منه. في البدء ترددوا أول الأمر لكن أخيراً وافقوا تحت التصميم القوي للجنود. فأنشأوا صفوفاً طويلة من البيوت الطينية في عدة أماكن من الوادي. ورغم قرفهم الدفين كان عليهم التظاهر بالسكن فيها طالما ظل الجنود يراقبونهم. وبعض مضي ثلاثة أشهر، عندما دعت الضرورة لنقلهم إلى مكان آخر ومن ثم سحبهم، عاد البدو دون أي إبطاء إلى الصحراء».

يبدو رد فعل البدو السريع، بعد هذا الذي قيل، مفهوماً جداً. فنمط حياتهم الاقتصادية التقليدي الذي يعتمد على تربية الماشية وعلى فروع اقتصادية أخرى متممة كان مايزال سطحياً كلياً، ولم يستطع القسر الذي مارسته الحكومة التركية على شكل عمليات، منها الإداري ومنها العسكري، أن يحقق نجاحاً، لأنها لم تمس اقتصاد البدو.

حاول الأتراك مرة أخرى وبأسلوب آخر أن يدفعوا بالشمريين نحو الاستقرار، وهذه المرة عن طريق شيخ مشايخ العشائر التي تجوب أرض العراق. وهو «فرحان بن صفوق». وهذا ما عرفناه من خلال السيدة «بلونت» بقولها:

«تم تكريم شيخ شمر بمنحه لقب باشا من قبل الحكومة ومكافأة سنوية مقدارها ثلاثة آلاف جنيه، لقاء تعهد منه على تحويل البدو التابعين له إلى فلاحين مسالمين».

ربما وجد نفسه الشيخ فرحان مضطراً أن يقدم وعوداً معينة للحكومة التركية في بغداد بشأن توطين الشمريين لأن ... وكما تتابع السيدة «بلونت» قائلة:

«سمعنا في بغداد أخباراً مفرحة عن نجاح ترتيباته ولكن ذلك لم يكن أكثر من تظاهر، لأنه خلال كل رحلتنا بين الشمريين لم نر شيئاً من الزراعة، حتى قرب مخيم فرحان».

إذن لم يكن النجاح من نصيب محاولات الحكومة التركية لتوطين بدو شمر، لا عن طريق مباشر -بالقوة العسكرية- ولا عن طريق غير مباشر، من خلال التأثير على زعيمهم. وعندما جاب «شاو» خلال عامي ١٨٧٩ - ١٨٨٠ شمال غرب الجزيرة، لخص جهود الأتراك لتوطين العشائر البدوية في تلك المنطقة، من خلال ملاحظاته الشخصية على الشكل التالي:

«كانت خطة ضخمة، يتطلب تنفيذها الكثير من الصمود والمال يفوق إمكانات الحكومة التركية. فأخفقت بالكامل ... فالعرب عادوا للسكن مجدداً في خيامهم. ومن البيوت التي تم بناؤها بتكاليف ضخمة لم يعد المرء يرى إلا الأنقاض. كما رأيتها أنا في عدة مواقع خلال رحلتي من الرقة إلى الدير».

إذن يمكن التأكيد على أن تلك المرحلة الأولى من توطين شمر- جربا تحت ضغط الحكومة التركية قد باءت بفشل ذريع. والسبب في ذلك يعود إلى فقدان الشروط الاقتصادية لتحويل نمط حياتهم واقتصادهم. ولم تتكون تلك الشروط إلا خلال العقود الأولى من القرن العشرين وبالتدريج.

٢- تحول الطبقة الاجتماعية العليا لبدو شمر إلى الزراعة:

كان للتقلبات السياسية العميقة فَي الشرق الأوسط أثر كبير على تغير العلاقات الاقتصادية بالنسبة لشمر- جربا، وذلك من خلال أحداث الحرب العالمية الأولى التي أسفرت عن انهيار الإمبراطورية العثمانية وقيام عدة دول في المنطقة (فبين ١٩٢٠ و١٩٢٢ تأسست المملكة السورية والمملكة العراقية وإمارة شرقي الأردن) تأثرت سياستها بالدولتين العظميين آنذاك، فرنسا وبريطانيا.

اتخذت الحكومتان الجديدتان في كل من العراق وسورية فوراً، وبناء على إرشادات مستشاريهم البريطانيين والفرنسيين، إجراءات فعالة قلصت إلى حد كبير من قوة العشائر البدوية السياسية والاقتصادية. ومن الإجراءات التي تم اتخاذها في بداية عشرينات القرن العشرين في كل من العراق وسورية نذكر بشكل خاص تلك التي أدت إلى إضعاف العشائر البدوية اقتصادياً، ومنها شمر، وهي:

- منع حملات الغزو التي تقوم بها عشائر البدو ضد بعضها البعض.
- إبطال الضرائب التي كانت تدفعها العشائر الضعيفة للعشائر الأقوى.
- منع اقتناء العبيد.

وسنأتي على دور اقتناء العبيد ودفع الضرائب والغزوات في حياة شمر في الفصل الرابع من هذه الدراسة.

تأثرت بهذه الإجراءات الحكومية بشكل خاص الطبقة ذات النفوذ المسيطرة اجتماعياً واقتصادياً لعائلة جربا وزعماء عشائر شمر الآخرين الذين كانوا يحصلون على دخل كبير من خلال حملات الغزو والضرائب المفروضة على الآخرين، أكثر من أفراد العشيرة العاديين. كما أن اقتناء

العبيد كان امتيازاً لا يتمتع به إلا الشيوخ. ومن الطبيعي أن لا يتم تطبيق هذه القرارات الحكومية فوراً، بل احتاج ذلك إلى عدة سنوات حتى تم تطبيقها بشكل فعال.

وبشكل مواز لهذه الخطوات الأولى لسياسة مناهضة للبدو استخدمت حكومة المملكة العراقية آنذاك طريقة تبشر بالنجاح لجعل شمر وعشائر بدوية أخرى خاضعة لأهدافها.

فقد عرضت على الشيوخ إمكانية تسجيل أجزاء من أراضي المراعي كأملاك شخصية لهم إذا ما وافقوا على تنفيذ سياسة الحكومة بهذا الشأن(•).

كان هذا الموقف جزءاً أساسياً من سياسة موظفي الاستعمار البريطاني تجاه العشائر والمعروفة في المراجع باسم «الحكم غير المباشر». ومع أن شمر - جربا قد اتخذت أثناء الحرب العالمية الأولى موقفاً مناهضاً للبريطانيين، لكن المراجع لم تذكر لنا شيئاً عن مشاركة شمر في الثورة على البريطانيين في العراق عام ١٩٢٠، لأن هذه الثورة الوطنية اقتصرت بالدرجة الأولى على المناطق الوسطى والجنوبية من البلاد. ولكن الوضع سرعان ما تغير في ظل الظروف الجديدة لحكومة الانتداب.

فبشكل خاص نزل شيخ مشايخ شمر آنذاك «عجيل الياور» عند مساعي الحكام الجدد. إذ قال عنه «أوبنهايم» «لقد عرف بكل براعة كيف يتكيف مع ظروف العصر» هكذا وصف موقف عجيل من مصالح الحكومة. ثم أضاف نفس المؤلف قائلاً:

(•) اتبع الأتراك سياسة مشابهة أيام السلطان عبد الحميد.

«لقد عهد إليه من قبل الحكومة ومن قبل الشركات صاحبة العلاقة بحماية منابع النفط وأنابيبه في بلاد ما بين النهرين وبتأمين العمال لبناء سكة الحديد التي يتم بناءها على الضفة اليمنى لنهر دجلة والتي ستصل حتى الموصل. ومن هذه المهام يتدفق عليه طبعاً دخل هائل. بالإضافة إلى أنه يتلقى إعانة شهرية من الحكومة قدرها /١٥٠/ دينار. وكمقابل آخر لخدماته تلك حصل من الحكومة على أراض واسعة في الجزيرة في ضواحي تل عفر بموجب سندات تمليك يطلق عليها اسم «لزمة».

بالتالي تحول زعيم شمر في وقت قصير إلى ملاك كبير للأراضي. لكن لم يكن لزعيم شمر دخل مباشر من أرباح النفط، كما كان الأمر عليه فيما بعد بالنسبة لزعماء العشائر المحليين في عدة مناطق عربية مثل الكويت والبحرين وقطر وغيرها.

التطور نفسه- ولو بشكل أضعف- طرأ على بقية أبناء عائلة شمر وزعماء العشيرة الآخرين الذين دعموا الحكومة في تنفيذ سياستها تجاه البدو، كما فعل شيخ المشايخ «عجيل الياور». كان على هؤلاء بشكل خاص أن يشجعوا أبناء العشيرة البسطاء على التخلي عن نمط حياتهم البدوية. وقد ذكر الباحث «مونتان» قائلاً «يعتبر النظام الحضري بمفهومه هذا مجدياً للغاية بالنسبة للزعماء، إذ سرعان ما يتحولون إلى ملاك أراضي كبار».

أول ما تم تسجيل أخصب الأراضي في سفوح جبل سنجار، وشماله وجنوبه كملكية خاصة، أي تلك المناطق التي تهطل فيها كميات كافية من الأمطار، من أجل ممارسة الزراعة دون ري. وفيما بعد أعقب الاستيلاء

على الأراضي في وسط وجنوب الجزيرة التي لا يمكن أن تصلح للزراعة دون استخدام الري الإضافي.

وبشكل مرافق لهذا التطور بدأت عملية جديدة كانت خطراً كبيراً على استمرار نمط حياة البداوة لدى شمر، ألا وهي أهمية الجمل الاقتصادية التي كانت في تراجع مستمر، إذ كانت تربيته تشكل محور النشاط الاقتصادي للشمريين. ،

وقد قيّم «هارتمان» هذا التطور الذي يهدد حياة البدو الذين يربون الجمال على الشكل التالي: «هدد شبح عدم إمكانية التسويق تربية الجمال، التي هي مصدر الدخل الرئيسي لهم. أما آخر ضربة تلقاها مربو الجمال البدو فقد كانت عملية حلول السيارة محل الجمل التي جاءت بطيئة لكن بشكل مستمر.... فمنذ أن بدأت شركة «نيرن» للنقل خدماتها الأسبوعية المنتظمة بين دمشق وبغداد عام ١٩٢٣ ازدادت المواصلات العامة والخاصة بواسطة السيارة بشكل مستمر. ففي عام ١٩٢٩ فقط قامت شركة «نيرن» للنقل بـــ /١٨٧/ رحلة مرور عبر الصحراء قطعت فيها /١٥٦/ ألف كم.

يضاف إلى ذلك أيضاً إنشاء السكك الحديدية والمواصلات الجوية بين مدن الشرق الأوسط التي وسعت فيما بعد من طاقتها في نقل الأشخاص والبضائع وتسببت في تقليص الطلب على الجمال إلى حد كبير، فهبطت أسعار الجمال هبوطاً كبيراً في وقت قصير جداً، وفقدت أسواق الجمال، التي كان الشمريون سابقاً يعقدون فيها صفقاتهم التجارية، أهميتها السابقة.

وقد وصف «هاريس» الآفاق الناتجة عن هذه التغيرات على الحالة الاقتصادية للبدو وصفاً صائباً بقوله: «قلل النقل بواسطة الآليات الحاجة

للجمال وأنذر بإلغائها. كما أوقفت الغزوات البدوية وفرض الضرائب عن طريق قوات حكومية متيقظة. فقد شمل التوسع الزراعي أفضل الأراضي التي كانت تستخدم كمراع، وأصبحت الأوضاع الاقتصادية تجبر البدو على العودة للزراعة ولو على الأقل لفترة من السنة في الأجزاء الصالحة للزراعة من أراضي الرعي- وقد سبق أن فعل ذلك- أما الاستقرار الكامل فسيتم عاجلاً أم آجلاً».

يبقى هذا التأكيد المصيب بشكل عام بحاجة إلى استكمال في نقطة هامة، إذ كانت الأجزاء القابلة للزراعة من مراعي شمر قد تحولت مسبقاً إلى ملكية خاصة لبعض أعضاء الطبقة العليا لشمر- جربا. بحيث لم تبق أراض زراعية لعامة بدو شمر.

وذكرت بعض المصادر أن العملية نفسها حدثت لعشائر بدوية أخرى كبيرة في شمال الجزيرة العربية، أي أن الشيوخ قد تحولوا إلى ملاكي أراضي كبار وانشغلوا شيئاً فشيئاً بزراعة الحبوب فوق مساحات واسعة من الأراضي التي كانت سابقاً تستخدم كمراع. وينطبق ذلك على عشائر عنزة والرولة وفدعان في سورية وعلى بدو عدوان في شرق الأردن.

وحسب معطياتهم لم يحدث التحول من ملكية الأرض الاسمية إلى الاستغلال العملي لها من قبل الشيوخ، إلا مع بداية أربعينات القرن العشرين. فقد وصف شيخ مشايخ شمر «مشعان بن فيصل» سنة ١٩٤٤ بأنها السنة التي بدأت فيها شمر بالزراعة.

واستناداً إلى تقارير الباحث «مونتان» تعود البدايات الأولى للزراعة عند شمر- على الأقل في القسم السوري من منطقة الجزيرة - إلى الثلاثينات من القرن العشرين.

أما مدى تأثير الحرب العالمية الثانية على الانتقال إلى الزراعة بالنسبة للبدو، فلا يتوضح من خلال المراجع المتوفرة بين أيدينا. لكن الافتراض بأن الحاجة المتزايدة للمواد الغذائية - وبخاصة الحبوب - نتيجة التزايد السريع لعدد سكان العراق في الثلاثينات ووجود فيالق كبيرة من القوات البريطانية أثناء الحرب، قد دفع بزعماء شمر من ملاك الأراضي في العراق للتوجه نحو الانشغال بالزراعة واستغلال إمكانات الدخل المتوفرة نتيجة ذلك. وقد كان للحكومة العراقية دور في هذا الاتجاه في دفع ملاك الأراضي على استغلال كل احتياطي زراعي في شمال البلاد بكل طاقاته.

ومن الملاحظ أنه اعتباراً من عام ١٩٤٤ حدث توجه أقوى نحو الزراعة عما كان عليه في العقدين اللذين تم فيهما توزيع الأرض القابلة للزراعة. وخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٤٤ و١٩٦٢ تحول حوالي ٢٠% من بدو شمر للعمل بالزراعة. قسم من هؤلاء الـــ ٢٠% يمارس حياة شبه بدوية. أما القسم الأعظم من الأرض الذي يستغل في الزراعة فيملكه أعضاء أسرة جربا الحاكمة وبقية زعماء شمر.

والجدول التالي يوضح لنا توزيع ملكية الأراضي في الجزيرة (حسب الوضع السائد عام ١٩٦٢). يقع القسم الأعظم من هذه الأراضي في القسم الشمالي من الجزيرة ويشمل المناطق العراقية فقط. والأرقام مأخوذة عن سجلات وزارة الإصلاح الزراعي في بغداد والمساحة مقدرة بالدونم الذي يعادل /٢٥٠٠/ متراً مربعاً.

اسم المالك	المساحة التي يستغلها (بالدونم)
مشعان بن فيصل بن فرحان	١٦٢٥٨١
سالم بن عبد العزيز بن فرحان	٣٧٧٧٤
صفوق بن عجيل	٣٤٨٢٢
ابراهيم بن مشعل بن شلال	٣٠٠١٩
مسلط بن فيصل بن فرحان	٢٤٠٦٤
أحمد بن صفوق بن فيصل بن فرحان	٢٢١٣٦
حمادي بن مطلق بن فرحان	١٦١٩٠
نوري بن فيصل بن فرحان	١٥٣٦٦
علمان بن فيصل بن فرحان	١٤٢٩٩
أحمد بن دهام بن مطلق	١٣٢٢٨
عماش بن عبد المحسن بن فرحان	١٢٢٨٢
محمد بن مشعل بن فرحان	١١٨٠١
تركي بن فيصل بن فرحان	١٠٦٨١
نايف بن فيصل بن فرحان	١٠١٩٧
فارس بن تركي بن فيصل	٩٩٣٠
عبد الرزاق بن تركي بن فيصل	٨٨٠٣
حمود بن أوكان بن غشم	٨٢٩١
عجيل بن سلطان	٨٢٦٣
متعب بن جزاع بن فرحان	٨٢٦٣
مطلق بن راكان بن عبد العزيز	٨٢٣٠
سعود بن فيصل بن فرحان	٧٦٢٣
فرحان بن ظاهر بن مطلق	٤٨٣٥
عبد العزيز بن حاج راكان	٦٦٧٩
فلاح بن حاج راكان	٦٦٧٩
طلب بن دحام بن شلال	٦١٧٨
عقاب بن جزاع بن عجيل	٦٠٧٨

اسم المالك	المساحة التي يستغلها (بالدونم)
وطبان بن فيصل بن فرحان	٤٤٤١٨
رديف بن جار الله بن فرحان	٥١٧٢
عبد الإله بن ظاهر بن مطلق	٤٨٣٥
تاضي بنت بنيان بن شلال	٤٨٣٤
شعلان بن بنيان بن شلال	٤٧٦٤
فرحان بن تركي بن فيصل	٤١٨٩
نوري بن حاروش بن عبد العزيز	٤٠٩٧
مدلول بن محمد بن مطلق	٤٠٤٦
حمود بن عبد العزيز بن فرحان	٣٠٨١
دليلة بنت هايس	٣٠٦٥
حاج راكان بن عبد العزيز	٢٧٥٦
زاهر بن مطلق بن فرحان	٢٦٧٨
نعيمة بنت عبد العزيز بن فرحان	٢١٥٠
مشعان بن تركي بن فيصل	٣٨٤٤
زيد بن مشعل بن فهد	٤٦٧٠
فوك بنت عماش بن عبد المحسن	٣٦١٨
نواف بن حميد بن مطلق	٢٧١٤
هواف بن حميد بن مطلق	٢٧١٤
بسنة بنت حميد بن مطلق	٢٧١٤
دليل بن حميد بن مطلق	٢٧١٤
أحمد بن عجيل الياور	١٩٠٧٨
محمد بن عجيل الياور	٢٩٩٢٨
صفوق بن عجيل الياور	١٧١٢٦
مشعل بن عجيل الياور	٣٣٦٣
حميدي بن عجيل الياور	٢١٤٦
محسن بن عجيل الياور	٨٦٨٠٠

يتضح من هذا الجدول أن شيخ مشايخ شمر - جربا الحالي، مشعان بن فيصل، بأرضه التي تبلغ مساحتها /١٦٢٥٨١/ دونم (أكثر من ٤٠ ألف هكتار) هو أكبر مالكي الأراضي في شمر. يأتي بعده اخوته وأبناء عمه وإلى حد ما أبناء اخوته. أما أملاك «عجيل الياور» السابقة فقد ورثها أبناءه وسجلت بأسمائهم.

ومن الجدير بالذكر هنا حقيقة أن الجدول السابق يتضمن أسماء خمس سيدات كمالكات للأراضي (تاضي بنت بنيان التي تملك /٤٨٣٤/ دونماً، دليلة بنت هايس التي تملك /٣٠٦٥/ دونماً، نعيمة بنت عبد العزيز التي تملك /٢١٥٠/ دونماً، فوك بنت عماش التي تملك /٣٦١٨/ دونماً، وأخيراً بسنة بنت حميد بن مطلق التي تملك /٢٧١٤/ دونماً).

ويعتقد أن هؤلاء النسوة قد ورثن ملكية الأرض بعد وفاة آبائهن. وربما تم تسجيل الأرض بأسمائهن فقط، بينما يقوم أزواجهن أو اخوتهن أو أي أقارب آخرين من الذكور باستغلالها اقتصادياً. يجب أن تتوضح هذه المسائل في دراسات وأبحاث تجرى في المستقبل، فهي تستحق أهمية خاصة، لأنه، حسب علاقات الملكية القديمة، لا يحق للنساء والبنات أن يرثن إلا في حدود ضيقة جداً.

وباختصار تنتج لدينا الحالة التالية: وهي أن مساحة تبلغ /٩٢٠٤٦٥/ دونماً (أي ما مجموعه حوالي ربع مليون هكتار) تعتبر ملكية خاصة لما مجموعه /٥٢/ عضواً في الطبقة المسيطرة، بينما الغالبية العظمى من شمر لا تملك أرضاً بتاتاً، ولذلك فهي مضطرة للاستمرار في حياة البداوة، أو عليها أن تعمل كمستأجري أراض، أو عمال زراعيين، عند كبار ملاك الأراضي.

أدى هذا التوزيع غير العادل للأراضي الزراعية إلى توترات حادة بين البدو الذين لا يملكون الأرض والطبقة العليا التي تملكها.

وهناك معارضة شديدة من قبل «عبده» تجاه جربا، لأنهم أيضاً يطمحون إلى ملكية الأراضي. وعلى عكسهم تقف جماعة «خرصة» إلى جانب جربا، لأنهم، كأصغر وأضعف عشيرة في اتحاد العشائر، اضطروا منذ القديم للانضمام إلى جربا ليضمنوا بقائهم على قيد الحياة.

كان لأتباع «عبده» و«سنجاري» و«صايح» في الماضي أحياناً نزاعات قوية مع أتباع عائلة جربا(•). وبعكسهم لم يشارك أتباع «خرصه» مرة في عمليات ضد جربا ولذلك كوفئوا لقاء إخلاصهم بأراض زراعية جنوبي جبل سنجار، يقومون الآن بزراعتها.

ولا يتضمن الجدول السابق هذه الأراضي، لأن الأمر يتعلق هنا بمجرد قطع صغيرة من الأرض ومسجلة في سجلات وزارة الإصلاح الزراعي ضمن فئة أملاك زراعية بمساحة مستغلة تزيد عن /١٠٠٠/ دونم. ويمكن البحث عن أسباب النزاعات بين ملاك الأراضي في حقيقة أنه لا توجد حدود واضحة تفصل بين أراضيهم.

وقد شهد المؤلف في ربيع عام ١٩٦٢ نزاعاً بقوة السلاح بين بعض زعماء السنجاري لأن الحدود الفاصلة بين حقولهم المزروعة لم تكن مرسمة بدقة ولذلك كانت سبباً للأعمال العدوانية.

وإذا ما لخصنا المادة التي تمت معالجتها في هذا الفصل لأمكننا أن نؤكد ما يلي:

أ- إن الدافع إلى الانشغال بالزراعة التي كانت سابقاً عملاً محتقراً جاء من قبل أبناء الطبقة الاجتماعية العليا لشمر- جربا الذين بحثوا

(•) جرت في السنوات الأولى من القرن العشرين حروب حقيقية بين طابت وفداغة (وهما فرعان من السنجاري) من جهة وجربا من جهة ثانية حسب ما ذكر أوبنهايم.

عن مصادر دخل جديدة بعد فقدان مصادر دخلهم السابقة ومن خلال الانخفاض المستمر لقيمة الجمل.

ب- حصل شيوخ شمر من خلال سياسة حكومة الاستعمار البريطاني وموقف الحكومة الملكية في العراق على إمكانية الحصول على ما كان سابقاً مراعي مشتركة للعشيرة وتحولهم بالتالي إلى إقطاعيين كبار.

ج- بدأ استغلال الأرض في الزراعة عملياً من قبل الإقطاعيين الجدد بالنسبة لسورية في ثلاثينات القرن العشرين بينما تأخر ذلك في العراق حتى بداية الأربعينات. وقد ساهم الوضع المتردي للمواد الغذائية أثناء الحرب العالمية الثانية في تعجيل التحول نحو زراعة الحبوب. ففي عام ١٩٦٢ كان ٢٠% من عشائر شمر قد تحولوا للعمل في الزراعة.

د- نتيجة للتوزيع غير المتساوي للأرض الزراعية انقسم الشمريون إلى طبقة صغيرة تملك مساحات هائلة من الأرض، وقاعدة عريضة من البدو الذين لا يملكون شيئاً، وهؤلاء إما استمروا في حياة البداوة، أو عاشوا كعمال زراعيين عند شيوخهم.

هـ- كان للتوزيع غير المتساوي للأرض أثر عائق على تحول السواد الأعظم من البدو الذين لا يملكون أرضاً إلى نمط الحياة المستقرة، وأدى إلى توترات بين ملاك الأراضي ومن لا يملكونها. وكان عدم وجود حدود واضحة المعالم بين إقطاعات الأراضي سبباً لمشكلة أخرى خطيرة نتجت عن التحول الاقتصادي.

٣- أنماط الزراعة المختلفة:

قبل أن نخوض في أنظمة الزراعة المختلفة التي تستخدمها شمر، يبدو من المفيد أن نتعرض لبعض الحقائق العامة المشتركة بين كل الأنظمة البارزة. وهنا يبرز السؤال عن ماهية المحاصيل التي يزرعونه؟

من الجدير بالملاحظة أن الحبوب مثل الشعير والقمح تحتل مكان الصدارة. والحقيقة نفسها يمكن ملاحظتها في بقية مناطق شبه الجزيرة العربية التي تحول فيها البدو إلى الزراعة. وهنا يختلف البدو السابقون عن الفلاحين الذين يمارسون الزراعة أصلاً ويزرعون الخضار بالإضافة إلى الحبوب. وقد عرض الباحث «ابشتاين» لمحة على نسب المنتجات الزراعية التي ينتجها البدو في القسم السوري من الجزيرة.

كان الإنتاج عام ١٩٣٧ (وهو عام وفير المطر) على الشكل التالي:

قمح	٨٥ ألف طن
شعير	٥ آلاف طن
ذرة	١٢٠٠ طن
سمسم	٧٠٠ طن
أرز	٤٥٠ طن
قطن	٢٠ طن
تبغ	٦٢٢١٣ كغ

تتضح من هذا الجدول غلبة النوعين الأولين، أي القمح والشعير، وربما يتعلق الأمر هنا بصعوبة التحول. فقد فضل البدو في بداية تحولهم إلى الزراعة التعامل مع الحبوب لأنها لا تحتاج إلى عناية كما تحتاجها مثلاً زراعة الخضار. ومع زيادة الخبرة الزراعية والإرشاد تحولوا إلى

زراعات أخرى. كانت الزراعة التي مارسها الشمريون من النوع الذي يعتمد على المساحات الكبيرة التي لا تتطلب جهوداً عالية، فلم يتبعوا نظام التسميد، وبدلاً منه كانوا يزرعون الأرض سنة ويتركونها بوراً في السنة التالية.

مسألة هامة بالنسبة للنمط الاقتصادي الجديد لدى شمر هي مسألة الري. ففي القسم الشمالي من الجزيرة تهطل كميات كافية من الأمطار للزراعة الحقلية (ما عدا سنوات الجفاف التي تمر على المنطقة بين فترة وأخرى).

أما في وسط الجزيرة وجنوبها فإن فلاحي شمر مضطرون إلى السقاية الإضافية. وهذه يؤمنونها عن طريق استغلال مياه نهري الفرات ودجلة في المناطق الهامشية، ثم من خلال استخدام مياه الآبار لري الأرض بواسطة المضخات الآلية.

وينظر الباحث «الفينستون» إلى الشرط الأساسي لتوطين البدو بقوله: «إن أول وأهم هذه الخطوات هو حفر آبار إضافية، وأية وسائل أخرى ممكنة لتأمين الماء في الصحراء. فكل الخلافات القائمة الآن بين البدو تقريباً تعود إلى النقص في عدد آبار المياه».

وقد تحقق هذا الشرط الأساسي إلى حد ما، والذي يمكن من استجرار المناطق الوسطى للزراعة، حيث تم حفر آبار ارتوازية إضافية بدعم من الحكومة.

ولكن ليست كل هذه الآبار صالحة للسقاية، نظراً لنسبة الملوحة العالية فيها. ولهذا السبب نفسه أيضاً فإن المناطق ذات الملوحة العالية في الجزيرة، أي السبخات، غير صالحة للزراعة بتاتاً.

وحسب الباحث «فيرت» الذي يعتبر خبيراً بالأمور الزراعية في هذه المنطقة، فإن أجزاء كبيرة من الجزيرة لا يمكن استجرارها للزراعة، وبخاصة الجزء الجنوبي من هذه البادية، الذي يسبب مشاكل كبيرة للزراعة، حيث يقول:

«في السنوات التي تكون فيها كميات الأمطار من متوسطة حتى كافية تنتصب عيدان هذه الحقول بكميات زهيدة ولا ترى إلا العشب ينمو في كل مكان. أما في سنوات الجفاف فلا يعادل المحصول الكمية التي استخدمت في البذار. ولذلك من المحتمل جداً أن هذه الزراعة الحقلية وسط البادية الصحراوية لا يمكنِ أن تستمر مع الأيام». وسوف نتطرق في ختام هذا الفصل إلى استغلال مناطق البور من خلال الزراعة البعلية.

أخيراً يجب أن نذكر مشكلة ثالثة نشأت عن تنامي الزراعة في اقتصاد شمر وجاءت معها بتبعات كبيرة على تربية الماشية، ألا وهي اقتطاع أجزاء من مراعي أولئك الذين استمروا في حياة البداوة والذين كانوا حتى عام ١٩٦٢ يشكلون ٨٠% من أبناء شمر- جربا.

فمن خلال عملية التطور هذه يتم اقتطاع مساحات من أراضي الرعي التابعة لشمر. وكما سبق أن ذكرنا آنفاً، كانت تلك هي المساحات الغنية بالأمطار -أي أفضل المراعي- في الجزيرة التي خسرتها تربية الماشية من خلال التحول إلى الزراعة.

ومن خلال ذلك ازدادت حدة التناقض بين شمر البدو وشمر المزارعين، ووضعت هذه الحالة مربي الماشية أيضاً في صراع مع الفلاحين الساكنين على أطراف الجزيرة، لأن البدو يحتاجون دائماً لرعي قطعانهم

بالقرب من الحقول المزروعة بالحبوب، حيث لا يعتبر رعي الحقول المزروعة حالة استثنائية. وهكذا وصلت قضية البدوي خضر بن محمد «من عشيرة شمر» في آذار عام ١٩٦٢ إلى المحكمة في بغداد، حيث رعى قطيعه السائب حقلاً مزروعاً بالقمح يعود لأحد الفلاحين، مما سبب خسائر فادحة في المزروعات. قدمت شكوى بحق البدوي وتم توقيفه، ثم حكمت عليه المحكمة بتسديد قيمة الخسائر.

وقد أشار الباحث «فيرت» إلى الحل غير المرضي لمشكلة نقص المراعي بقوله:

«معظم العشائر البدوية في العراق ترحل في الصيف إلى مناطق الري حيث تقوم باستئجار أراضي بور كمراع لقاء أجر».

من البديهي أن الرعي في مناطق البور والأراضي المحصودة – لقاء أجر أيضاً – لا يشكل بديلاً كافياً للأراضي التي اقتطعت من المراعي. ولا يمكن إيجاد الحل الناجع لهذه المشكلة إلا بتوزيع عادل للملكية بين كل أبناء شمر وإعطائهم إمكانية العمل في الزراعة.

بعد معالجة هذه المسائل التي تهم الجميع يجب بحث مختلف نظم الزراعة التي يمارسها الشمريون. ويمكن في هذا المجال التفريق بين أربعة أصناف رئيسية:

أ – نظام استئجار الأراضي عند جربا.

ب– الاستثمار الحر للأرض من قبل الشيوخ.

ج– المزارع الصغيرة عند «الرؤسا»

د– النمط شبه البدوي للزراعة.

حول النقطة أ: نظام الاستئجار هذا يقوم على الشكل التالي:

يؤجر كبار ملاك الأراضي الشمريين الأراضي المسجلة بأسمائهم إلى متعهدين برأسمال قوي غالباً من سكان الموصل أو سنجار أو تكريت ومدن أخرى في شمال العراق، بعد الاتفاق على أسلوب محدد بعقد حول توزيع المحصول. كان هذا الأسلوب هو الأول الذي مارسه شيوخ شمر في بداية استغلال أراضيهم الزراعية، وهي الطريقة الأكثر انتشاراً. يؤكد هذا النوع غير المباشر لاستغلال الأرض من خلال التأجير ما زعمه الباحث «مونتان». «أن الكثير من البدو من منشأ نبيل يرفضون أن يقوموا هم شخصياً بالعمل في الزراعة».

والاتفاق المتعارف عليه بين مالك الأرض ومستأجرها هو التالي:

يحصل المستأجر على الأرض لاستغلالها ويقوم بتأمين الآلات الزراعية والبذار والعمال وحصاد المحصول ويعطيهم أجورهم. ويتم تقسيم المحصول مناصفة بين المالك والمستأجر.

وقلما يكون المستأجرون مزارعين مؤهلين، بل في معظم الحالات تجاراً من سكان المدن. وقد أصاب الباحث «فيرت» في وصف الأثر العملي لهذا النظام بقوله:

«يتم نقل العمال الزراعيين أثناء فترة الحراثة والحصاد بسيارات شاحنة من أماكن بعيدة مع مياه الشرب. وهذه طريقة فريدة من نوعها وعلى وتيرة واحدة». يعتبر هذا الأسلوب مريحاً لمالك الأرض ولا يسبب له أي إشكال في الاستثمار. دون رأسمال ودون عمل يحصل مالك الأرض على نصيبه من الربح وهو ٥٠% من المحصول، بينما يقع عبء المخاطرة، مثل سوء المحصول في سنوات الجفاف، على عاتق المستأجر.

لم يكن مع الأسف بالإمكان الحصول على مادة إحصائية تتعلق بالأرباح التي يجنيها المالك من مثل هذا الأسلوب في استغلال الأرض. فعنها وعن أنواع الاتفاقيات التي تعقد بين مالك الأرض والمستأجر – وهي حتماً موجودة – لا تتوفر معلومات دقيقة لأنها اتفاقيات خاصة جداً بين الطرفين المتعاقدين.

ابتعد الشيوخ الذين يتبعون هذا النهج في استغلال الأرض كل الابتعاد عن حياة البادية وسكنوا المدن وتحولوا إلى إقطاعيين غائبين. ولاستكمال هذا الموضوع يجب التنويه إلى حالة استثنائية في زراعة كبار ملاك الأراضي. فقد أمر شيخ مشايخ شمر «مشعان بن فيصل» بتحويل قطعة أرض مساحتها /٢٠٠/ دونم بالقرب من مسكنه الصيفي الدائم في «الركبة» على نهر دجلة إلى بستان، قام البستانيون والعمال الزراعيين بغرس كروم العنب ومختلف أنواع أشجار الفاكهة الأخرى فيه. يذهب محصول هذا البستان إلى استهلاك بيت الشيخ الواسع أو كهدايا للزوار العديدين.

حول النقطة ب: الاستغلال المباشر للأرض باستخدام التقنية الحديثة من قبل قسم من الشيوخ يشكل مرحلة متقدمة للنظام الأول الذي سبق استعراضه. يمارس هذا النوع من الزراعة شيوخ شمر من أصحاب الملكيات المتوسطة. فهؤلاء لا يكفيهم نصف محصول أراضيهم، فيتولون بأنفسهم زراعتها باستخدام الآلات الزراعية الحديثة.

فبعد أن تجاوزوا حكمهم السلبي المسبق بعد سنوات من تحولهم إلى الزراعة، حصلوا خلال السنوات التي أعقبت الحرب على تركتورات وحصادات وشاحنات لنقل المحصول، بدأوا – بعد أن بنوا قرى ذات مساكن طينية ثابتة – بزراعة أراضيهم في شمال الجزيرة.

أما القوى العاملة فيحصلون عليها من تشغيل أبناء عشيرتهم أو الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً، وهؤلاء عادة من السكان الأكراد.

ينتشر هذا النظام الزراعي بشكل خاص في منطقة جنوب جبل سنجار. وغالباً ما يزرعون القمح فقط، أي نظام المحصول الواحد. وقد نقل لنا الباحث «فيرت» صورة توضيحية عن أسلوب الاستغلال ذاك بقوله: «يتم استثمار هذه المساحات المزروعة بالقمح غالباً آلياً. فالجرارات والحصادات تحدد صورة هذه الحقول. ومن خلال استخدام طرق الزراعة البعلية الحديثة، تخلو حقول القمح والأرض المتروكة بوراً من الأعشاب الضارة.

تقوم مساكنهم على هذه الأراضي موزعة على مسافات طويلة بين المسكن والآخر. يقطن هذه القرى بالدرجة الأولى البدو السابقون التابعون لعشيرة شمر ذات القوة والنفوذ، الذين أصبحوا فلاحين مستقرين. وقد أدى تكرار سنوات القحط إلى إفقارهم، ويدل مظهر هذه المساكن الجديدة على الإهمال والخراب».

ينقل محصول الحبوب من هذه المزارع بعد الحصاد بشاحنات إلى الأسواق الكبيرة في شمال العراق لتسويقها هناك للتجار الكبار، لكن يبقى قسم من المحصول كمؤونة للقرية ولدفع أجور الأيدي العاملة الزراعية.

وبعكس من أطلقنا عليهم في النقطة /أ/ اسم كبار ملاكي عشيرة شمر، الذين تخلوا نهائياً عن ملكية القطعان نجد لدى ملاك الأراضي من الفئة الوسطى- الذين يستثمرون أرضهم بأنفسهم- قطعاناً من الغنم والماعز تربى من أجل تزويد القرية بالحليب واللحم والصوف. يقوم صبيان برعي هذه القطعان في المناطق المحيطة بالقرية بشكل مباشر. وقد أضيف مصدر آخر للإنتاج من خلال تربية الدواجن. وأحياناً تربى الأبقار التي تبقى ليلاً وأثناء موسم الأمطار في الحظائر.

حول النقطة ج: هناك نمط من إنتاج المزارع الصغيرة يقل في أهميته بكثير عن الأسلوبين السابقين من أساليب استغلال الأرض، وهو أسلوب مزارع «الرؤسا"» أي زعماء أفخاذ وبطون عشائر شمر، الذين- بعكس الشيوخ - حصلوا على اقطاعات صغيرة من الأرض وبظروف مناخية غير مناسبة.

هؤلاء يسكنون مع أتباعهم في قرى مبنية من الطين أقيمت على مقربة من بئر ارتوازية أو أكثر، حيث تستغل مياه الآبار للشرب وإلى حد ما لري الحقول. و«الرؤسا» ليسوا أقوياء من الناحية الاقتصادية لدرجة تمكنهم من اقتناء الآليات لزراعة أراضيهم، لذلك يعملون بنفس الطرق التي يعمل بها الفلاحون في العراق.

وقد وصف حالهم الباحث «عارف»: ورشة العمل الزراعي عند البدو حالياً بسيطة جداً.. فالمحراث البسيط لا يغوص عميقاً في التربة، ولا آليات لديهم على الإطلاق. هناك يستخدم الحمار للجر ويتم جني المحصول بالمنجل اليدوي، والإنتاج قليل بحيث قلما يفيض منه شيء بعد أن يحسبوا حساب مؤونة البيت، يمكن بيعه في السوق. ويحفظ فلاحو شمر غلالهم من الحبوب في مطامير عميقة في الأرض تغطى بالبسط ويردم فوقها التراب. أما بالنسبة لقطعان الماشية فالوضع مشابه لما هو عليه في النقطة /ب/.

حول النقطة د: إن نمط الزراعة شبه البدوي هو الظاهرة المميزة لانتقال شمر إلى الاستقرار. فهو يجسد حلاً توفيقياً بين تربية الماشية وزراعة الأرض. وقد حلل الباحث «غلوب» الأسباب الباعثة عليها بقوله:

«قد تكون سنة سيئة بالنسبة للجمال لكنها جيدة بالنسبة للأغنام، أو سنة سيئة للأغنام قد تكون جيدة للحبوب. فإذا ما ملكت معظم العشائر قطعان الماشية والزراعة بآن معاً تكون أقل عرضة للدمار والجوع».

تتخذ الدورة السنوية لشبه البدو هؤلاء الصورة التالية:

تحضير الحقول للبذار في الشتاء، بذر الحبوب عقب هطول المطر في كانون الأول والثاني. وبحسب قدرة المالك الاقتصادية تتم حراثة الأرض بالتراكتور والمحراث الحديدي أو بالمحراث الخشبي الذي يجره الحمار. وبعد بذر الحبوب في التربة تغادر المجموعة بأكملها القرية وترحل مع القطعان إلى مناطق الرعي في أواسط الجزيرة حيث تسكن – كما في السابق – في خيام وتكرس حياتها منذ بداية شباط حتى آخر نيسان لتربية الماشية. وقد تلتفت أيضاً إلى فروع اقتصادية مساعدة مثل الجمع والصيد، حسب الإمكانات المتوفرة.

وفي نهاية نيسان أو بداية أيار، أي بداية فترة الجفاف، تبدأ رحلة العودة إلى المقر الرئيسي في القرى الطينية المهجورة حيث يكون محصول الحبوب قد نضج. تحصد الحبوب ويباع ما يزيد منها عن الحاجة في السوق ويقضي «شبه البدو» الصيف في قريتهم حتى موسم البذار التالي.

تطوى الخيام في الصيف وتحفظ في البيوت الطينية. (يسمى الواحد منها «دوم» جمعه دوام) مبنية بشكل بسيط، فهي مستطيلة الشكل على الأرض مباشرة لها فتحة باب وفتحات ضيقة للتهوية والنور. وهي – شأنها شأن الخيمة البدوية – مقسمة إلى قسمين، واحد للرجال وآخر للنساء. أي أن مواصفات الخيمة انتقلت إلى مواصفات البيت الطيني. والسقف مبني من جذوع خشبية وفوقها حصر من سعف النخيل التي تزال قبل مغادرة القرية في الربيع. وكثيراً ما يتم نصب الخيام قرب البيوت الطينية التي هي أشبه بالمضارب التي كانوا يشيدونها قرب آبار المياه.

يملك «شبه البدو» بالإضافة إلى الحيوانات التقليدية، (الجمل والأغنام والماعز) الحمير من أجل فلاحة الأرض، ثم الدجاج، وإلى حد ما البقر. ومن أجل العناية بالبقر يجب أن يتخلف قسم من السكان في القرية، بينما يذهب بقية السكان بمرافقة القطعان إلى المراعي الربيعية. بهذا الأسلوب يتم توفير العلف الطبيعي المتوفر حول القرية للرعي الصيفي.

وقد نوه الباحث «فيرت» أنه في سنوات الجفاف يتم تحويل الأرض المزروعة إلى مراع بقوله: «إذا ما تبين في سنوات الجفاف أن المحصول لن يكون جيداً، يدعون المواشي ترعى في الحقول».

تمكن أنصاف البدو الشمريون من خلال التوجيهات المناسبة والدعم المادي من قبل الحكومة من الانتقال إلى حياة الاستقرار دون صعوبات. وما تزال روح العصبية القبلية موجودة عندهم. على عكس من تحدثنا عنهم في النقطتين /أ وب/ حيث: إما لم يعد للشمريين البسطاء أي علاقة بالزراعة، أو أنهم مرتبطين بمالك الأرض الإقطاعي الذي يستغل قوة عملهم.

٣- مساكن شمر الحالية في الجزيرة:

في الجدول الذي سنعرضه بعد قليل يتعلق الأمر بالقرى التي أنشئت في الجزيرة حتى ربيع عام ١٩٦٢، ويعيش فيها الشمريون، قسم منهم كمستقرين وقسم آخر كشبه مستقرين. لكن الجدول الذي وضعه المؤلف من خلال مقابلات مع عدد من المعنيين لا يرقى إلى الكمال لأنه في كل عام تضاف إليه قرى جديدة.

ويتعلق الأمر بهذه المساكن التي أقيم القسم الأعظم منها في خمسينات القرن العشرين، بأماكن استقرار تمارس فيها الزراعة بالنظم التي سبقت الإشارة إليها في النقاط /ب/ و/ج/ و/د/.

يطلق الشمريون أنفسهم على سكان هذه القرى اسم "شمر الفلاحين" بخلاف ما يسمون بـــ «شمر البدو». على رأس كل قرية يقف المختار (جمعه مخاتير) وهو الملاك الذي غالباً ما يكون أيضاً زعيم المجموعة التي تقطن القرية. فهو الذي يتخذ القرارات الاقتصادية والاجتماعية في القرية.

تعطي هذه القرى بشكل عام الانطباع بالفقر. فكلها تقريباً بلا كهرباء وقليل منها مزود بمضخة لاستغلال مياه الآبار. كما تصاب البيوت الطينية دائماً من خلال الأمطار والعواصف بأسوأ الأضرار ما عدا حالة استثنائية واحدة تشكلها قرية «ربيع» شمال جبل سنجار التي تحولت بفضل دعم الحكومة العراقية إلى قرية نموذجية.

وقد وصفتها صحيفة «عراق تايمز» Iraq Times في ٣١/ كانون الثاني/ ١٩٦٢ على الشكل التالي:

«بنت لهم (أي شمر) الحكومة الجمهورية قرية حديثة، وهي قرية ربيع على الحدود العراقية السورية، والتي يمكن أن تعد من بين أحدث القرى في العالم أجمع. فقد تم تزويدها بالكهرباء وأجهزة تنقية الماء والمدارس والمستوصفات والمراكز الاجتماعية». وفيما يلي جدول المجموعات السكنية في الجزيرة التي يشتغل فيها الشمريون بالزراعة.

اسم القرية	المجموعة	العشيرة	اسم المختار
أبو رعسين	فداغة	سنجاري	حجر أبو وتيد
العبير	فداغة	سنجاري	حمّيد
مستريحة	فداغة	سنجاري	الديخ
أم كيف	فداغة	سنجاري	أياد
أم خواشيش	فداغة	سنجاري	أسود الماعيج
العالية	فداغة	سنجاري	الهيلم
تل كديش	فداغة	سنجاري	فياض
تل غانم	فداغة	سنجاري	نحر جابر
أم جوير	فداغة	سنجاري	هايل سعود
تل جيور	فداغة	سنجاري	فرحان اللقلوق
بير المحمود	فداغة	سنجاري	متعب جديم
بير مليحان النمش	فداغة	سنجاري	مليحان النمش
السيلة	فداغة	سنجاري	خشم البارودي
العميلي	فداغة	سنجاري	محمد العميلي
بير محمد الأبهول	فداغة	سنجاري	محمد الأبهول
شط الأتيجي	فداغة	سنجاري	؟
بير تركي السعود	فداغة	سنجاري	تركي السعود
الزعلانة	فداغة	سنجاري	دريعي عبيد
المركب	فداغة	سنجاري	محمد سمرماد
أم الدبان	فداغة	سنجاري	سطام الهيمة
غلفوص	فداعة	سنجاري	سعود المولى
بير خليف الغدير	فداغة	ذسنجاري	خليف الغدير

اسم القرية	المجموعة	العشيرة	اسم المختار
عواض	فداغة	سنجاري	عواض السهيلي
جدوع	فداغة	سنجاري	جدوع عقية
العالية	طابت	سنجاري	هزاع متعب الهادب
جريفي	طابت	سنجاري	أبيض الدليلي
مرزوقة	طابت	سنجاري	سفرق الراضي
تل الهليل	طابت	سنجاري	؟
جاعر الهيال	طابت	سنجاري	جربي محيطل
حمدانية	طابت	سنجاري	أبطار النملة
زمان	طابت	سنجاري	سكاب الشوباط
الجلميد	عمود	خرصه	أياد بن مجيول
أم زنابير	عمود	خرصه	دبوس ربيعي
المحمودية	؟	خرصة	حمود عجيان
تل سمير	زوبة	خرصة	هاجي دنيدش زعيل
قرهاس	أسلام	صايح	أحمد بن عشيبح
ربيعة	أبناء عائلة جربا		نايف بن فيصل
تل حيال	أبناء عائلة جربا		راكان بن عبد العزيز
ألموني	أبناء عائلة جربا		مشعان بن عجيل
جلبرات	أبناء عائلة جربا		؟
تل الهوى	أبناء عائلة جربا		تركي بن فيصل
أم جرفة	أبناء عائلة جربا		نواف بن نوري
أم دهام	أبناء عائلة جربا		شعلان بن بنيان
المشرف	أبناء عائلة جربا		فارس بن تركي
تل مطر	أبناء عائلة جربا		سعود بن فيصل
قرصور	أبناء عائلة جربا		مسلط بن فيصل

اسم القرية	المجموعة	العشيرة	اسم المختار
قران	أبناء عائلة جربا		عبد الرزاق بن تركي
دبشية	أبناء عائلة جربا		أحمد صفوق
عوينات	أبناء عائلة جربا		أزان بن وطبان
بير عقلة	أبناء عائلة جربا		فهد بن مشعان
مواشة	أبناء عائلة جربا		حزيري بن ميزر
أبو غولة	أبناء عائلة جربا		ابراهيم بن مشعل
البطحة	أبناء عائلة جربا		محمد الذياب
خبازة	أبناء عائلة جربا		أحمد بن هزاع
أبو حجيرة	أبناء عائلة جربا		سطام بن فارس
تل طلب	أبناء عائلة جربا		طلب بن تهام
تل وطبان	أبناء عائلة جربا		محمد بن وطبان
السمان	أبناء عائلة جربا		نايف بن فيصل
السفير	أبناء عائلة جربا		جدعان بن دويش
الرقوبة	أبناء عائلة جربا		مشعان بن فيصل
الزكرية	أبناء عائلة جربا		فرحان بن هايس
قاني عطار	أبناء عائلة جربا		منيف بن فيصل

٤- التغيرات التي طرأت من خلال التحول الاقتصادي:

نتيجة التحول الذي طرأ خلال العقود الماضية على الحياة الاقتصادية لبدو شمر من الاقتصاد البدوي القائم على تربية الماشية إلى الزراعة المستقرة، حدثت تغيرات حاسمة شملت كل نواحي حياتهم تقريباً. وقد سجلت أقوى مظاهر التحول عند أولئك الذين تحولوا كلياً إلى نمط حياة الاستقرار من شمر. ولكن شملت هذه التغيرات أيضاً أولئك الذين تحولوا إلى حياة أشبه بالبداوة أي «نصف حضر» وأولئك الذين استمروا على نمط حياتهم البدوية السابقة.

وفي نظرتنا إلى مظاهر التحول في مختلف المجالات الاقتصادية علينا أن نميز بوضوح أياً من المجموعات الرئيسية الثلاث المشار إليها - أي المستقرين ونصف المستقرين والبدو - تأثرت بشكل مباشر بهذه التغيرات.

تغير نمط الحياة: فقد الشمريون الذين استقروا بشكل كامل الصفة المميزة التي تتصف بها حياة البدو - وهي الترحال - إذ يقضي فلاحو شمر كل أوقات السنة في قراهم المشيدة من الطين. ويقوم الرعاة المكلفون بالإشراف على قطعان القرية من الأغنام والماعز برعي هذه القطعان قرب القرية فقط ويعودون بها مساء إلى حيث السكن الدائم.

وبناء على ذلك فإن إسقاط صفة «بدو» عن هذه المجموعة مبرر لأن تعريف كلمة بدوي كراع متنقل تجعل من المناسب أن نطلق على شمر المستقرين اسم «شمر الفلاحين».

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الشيوخ الذين تحولوا إلى إقطاعيين استبدلوا حياة الفاقة والعوز في البادية منذ مدة طويلة بنعم المدينة ورغد عيشها، أو الذين اختاروا لهم واحدة من القرى الواقعة في منطقة أملاكهم كمقر دائم للسكن.

أما بالنسبة لأولئك الذين يعيشون حياة نصف بدوية فالأمور تختلف. فهم يستأنفون في أشهر الربيع (من بداية شباط حتى نهاية نيسان) حياة التنقل المعتادة ويعيشون مع قطعانهم في البادية. وبدلاً من قضاء الصيف في مخيماتهم الكبرى قرب الآبار، كما كانوا يفعلون في السابق، وكما يفعل حتى الآن القسم الذي استمر في حياة التنقل، يستقرون أثناء فترة الجفاف في قراهم المبنية من الطين، أو بالأحرى يكرسون وقتهم للعمل في حقولهم الواقعة حول قراهم.

وقد فقد هؤلاء البدو نصف المستقرين الكثير من حرية حركتهم قياساً بترحالهم السابق. ولم يعد الترحال إلى المراعي يستغرق في الربيع أكثر من مسيرة أربعة إلى خمسة أيام، وهذا يعادل مسافة قد تصل حتى /١٠٠/ كم بعيداً عن قراهم.

أما بالنسبة لنمط حياة شمر البدو الذين لم يتحولوا إلى الزراعة بسبب عدم ملكيتهم الأرض، فلم يطرأ الكثير من التغير قياساً بالسابق. فهم مضطرون نتيجة تربيتهم للجمال والأغنام والماعز للحفاظ على وتيرة ترحالهم القديمة مع فارق واحد هو قصر المسافات الفاصلة بين مراعيهم الشتوية والصيفية التي كانوا يتميزون بها في السابق، لأنهم مجبرون على تفادي الرعي في المناطق التي كانت سابقاً مراعي وأصبحت الآن مزروعة، كما سبق أن ذكرنا آنفاً. ولا يسمح لهم برعي مواشيهم في تلك الأراضي إلا بعد الحصاد ومقابل أجور.

تغيرات في مجال الثقافة المادية: يتجلى التغير الأبرز في مجال الثقافة المادية لدى شمر في مسار التحول الاقتصادي بوضوح في استبدال الخيمة المتنقلة بالمنزل الطيني الثابت. ولم يكن وقع هذا التحول سهلاً على الشمريين، ففي الكثير من القرى نرى بيوت الشعر التقليدية منصوبة قرب البيوت الطينية مباشرة.

نجد لدى البدو نصف المستقرين كلا النمطين من أنماط المساكن، الخيمة في الربيع والبيت الطيني في الصيف والشتاء.

كما شهدت الأدوات التي يستخدمها الشمريون في مساكنهم أيضاً تغيراً، إذ حلت أدوات المطبخ المصنوعة من الألمنيوم والمطلية بالمينا محل الأدوات النحاسية السابقة.

وكذلك أدخلوا مدافئ ومصابيح البترول التي توفر الدفء والنور. وفي الكثير من البيوت نجد أجهزة الراديو التي تعمل على البطارية. وحلت الصفائح التي كانت بالأصل تحوي بنزين محل الضروف الجلدية لحفظ المياه. ومن إطارات السيارات المستعملة يصنعون دلاء سحب الماء والصنادل.

وكذلك بالنسبة لملابس الشمريين فقد طرأ عليها في الوقت الحاضر تغيرات كبيرة. إذ يحصلون على قطع ملابس مستعملة مثل السترات الصوفية والمعاطف والبناطيل وأغطية الرأس وغيرها من السوق، ويلبسها الرجال والنساء والأطفال. ولكن التطور في مجال الألبسة يتم عند البدو ببطء شديد مقارنة مع التطور في هذا المجال بالنسبة للمدن. وما تزال العناصر المميزة للباس البدوي القديم موجودة، وقد حصل نوع من المزج القسري بين قطع الملابس "الغربية" والزي التقليدي.

تجديد عملي آخر بالنسبة للبدو نجده على الآبار. والأمر يتعلق هنا بمجاري السقاية المبنية من جدران حجرية بطول يصل إلى عدة أمتار اسمها «جابي» يتم فيها تفريغ مياه البئر، يمكن أن يرتوي منها عدد كبير من الحيوانات في وقت واحد. بذلك يتم إرواء القطعان على البئر بسرعة لا تقارن بأوعية السقي الجلدية التي كانت تستخدم قديماً في ارواء الحيوانات.

هناك تغيرات جذرية طرأت في مجال النقل، فكل ملاكي الأراضي الأغنياء من شمر يملكون سيارات (شاحنة أو سياحية خاصة) وتعتبر السيارات الأمريكية «البيك أب» التي تناسب البيئة، مرغوبة.

يستخدم مالكو السيارات من البدو نصف المستقرين عرباتهم أيضاً لنقل الخيام إلى مخيمات المراعي الربيعية. ويصف «مونتان» المهام متعددة الجوانب التي تؤديها السيارة عند البدو بقوله:

«لم تكن السيارة هذه المرة مجرد وسيلة للسفر إلى المدينة المجاورة، بل أيضاً وسيلة عمل حقيقية بالنسبة للزعيم الذي لا يزال يمتلك مجالاً واسعاً للترحال. فعن طريقها يرسل بأوامره ويتلقى أخباراً ويحكم في النزاعات وينتقل بها إذا لزم الأمر إلى العاصمة لتحصيل حق». كما تستخدم شمر أيضاً الدراجات الهوائية في تنقل الأشخاص في كثير من الأحيان، والتي حلت الآن محل أحصنة الركوب سابقاً.

وسوف نشير في الهامش إلى الدور الكبير للآليات الزراعية، التركتورات والحصادات وغيرها في مزارع الشيوخ التي يتم الإنتاج بواسطتها بأحدث التقنيات الزراعية.

تغيرات في مجال تربية الماشية: تغيرت تربية الماشية تغيراً مضاعفاً من خلال التحول إلى نمط حياة الاستقرار.

أولاً: قلل المستقرون من عدد مواشيهم من حيث الكمية، وفي أغلب الحالات قضي على تربية الجمال نهائياً.

ثانياً: طرأ تغير على القطعان من حيث النوعية عند المجموعات الثلاث التي انقسمت إليها شمر. فشمر الفلاحون وحتى نصف المستقرين بدأوا بتربية الأبقار، كما أصبحوا يربون الحمير التي كانوا قبلاً يحتقرونها، لأنهم يحتاجون إليها كحيوانات للجر والنقل في المزارع الصغيرة.

كما بدأت المجموعات الثلاث بتربية الدواجن. حتى بدو شمر الرحل لديهم الآن دجاج ينقلونه معهم على ظهور الجمال أثناء الترحال. ولا يتعلق الأمر هنا بتربية دواجن كفرع اقتصادي، بل يتم الحصول عليها أحياناً من السوق، وهي من أعراق وسلالات مختلفة. يتم حجز الدجاج ليلاً في أقفاص مصنوعة من سعف النخيل، وفي النهار تتجول حرة حول الخيمة.

وتضع الدجاجات بيضها في حفر بالأرض على أطراف القسم النسائي من الخيمة، ومعدل إنتاجها من البيض لا بأس به. ونتيجة لانخفاض الطلب على الجمال فقد تحول اهتمام شمر البدو إلى تربية الأغنام والماعز.

ومن خلال هذا التطور ابتعدوا إلى حد كبير عن نمط حياتهم الاقتصادية التقليدي الذي كان يعتمد على الجمال بالدرجة الأولى. وبصفتهم مربو حيوانات صغيرة فقد أظهروا استعداداً كبيراً للتحول إلى الحياة نصف المستقرة ثم المستقرة فيما بعد، أكثر مما هي عليه الحال لدى مربي الجمال. والسبب الذي دفع إلى هذه الظاهرة يراه الباحث «غلوب»:

«لذلك فعندما تنتقل عشيرة من تربية الجمال إلى تربية الغنم فهذا دليل واضح على الرغبة المتزايدة في الرفاهية والإعراض عن الإقدام على تربية الجمل الصعبة في الصحراء».

بذلك يمكن للمرء أن يرى في التحول المتزايد نحو تربية الحيوانات الصغيرة الخطوة الأولى على طريق الاستقرار. وفي هذا السياق تستخدم طرق جديدة في تربية الحيوانات، مثل استخدام أعلاف إضافية من التبن عندما لا تتوفر المراعي الجيدة وترك الحيوانات في حظائر بدائية مبنية من الطين خلال فترة المطر بالنسبة للبدو نصف المستقرين.

وهناك جهود ملحوظة حتى لدى بدو شمر الرحل لاتقاء النتائج المضرة لفترات المطر في الشتاء على وضع القطعان، حيث يتم احتجاز الأغنام والماعز أثناء الهطولات المطرية القوية داخل الخيمة ثم إطلاقها خارجاً بعد توقف الهطول.

بغض النظر عن تغطية الحاجات الخاصة للحليب واللحم والصوف ما يزال الهدف الرئيسي من تربية الماشية لدى شمر كما كان في السابق، ألا وهو بيع الحيوانات في الأسواق، بذلك تتم تغطية قسم كبير من الطلب على اللحم لدى السكان المستقرين.

أما صوف الأغنام ذات الإلية الدهنية فهو لحد الآن غير مناسب إلا لصناعة اللباد وبعض المنسوجات المحلية، لأنه من حيث النوعية لا يستطيع أن ينافس صوف غنم مارينو في السوق العالمية.

ولنترك الآن بحث مسألة فيما إذا كانت إمكانية تحسين نوعية الصوف، التي أثبت الباحث «هورنيتشيك» أنها ممكنة ستستغل في المستقبل. ويشير هذا الباحث قائلاً: «من ملاحظة تشكل خصلات صوف خراف العراق وخصائص صوف الأغنام الكبيرة تجعل من الممكن اختيار الغنمة للتربية التي كان صوفها وهي صغيرة ذا خصلات جيدة، وقد يكون لهذا الاختيار أهمية اقتصادية لا يستهان بها».

وطرأت أيضاً تغيرات أساسية في مجال تربية الخيول. فبينما كان كل شمري بالغ يطمح في السابق إلى ملكية فرس ليعتبر محارباً معترفاً به، لم نعد نجد لدى شمر البدو إلا القليل من الأحصنة، أما عند شمر المستقرين فقد اختفت نهائياً تقريباً. وهناك سببان رئيسيان لذلك:

أولاً: لم تعد هناك حاجة إلى أحصنة الركوب بعد الاقلاع عن عادة الغزو. أما بالنسبة لتنقل الأشخاص فقد أثبتت السيارات والدراجات الهوائية على أنها أفضل وأقل تكلفة.

ثانياً: ظهر وباء موت الخيول القادم من إفريقيا في كافة مناطق الشرق الأوسط، وتسبب بهلاك أعداد هائلة من الخيول. ولكن يجب أن لا نخاف من الزعم الذي أطلقه الباحث «مورتيس» من أن الحصان سيصبح قريباً في شبه الجزيرة العربية «أسطورة قديمة» لأن تربية الحصان العربي ما تزال تمارس في عدة مؤسسات لتربية الخيل في الشرق الأوسط.

تحول أهمية الفروع الاقتصادية المساعدة: اختفى عند شمر الفلاحين الفرعان الاقتصاديان المساعدان المتمثلان في الجمع والصيد نهائياً، نظراً لأن الفلاحين قلما يجدون فرصة للجمع أو الصيد نتيجة انشغالهم الدائم بالأعمال الزراعية. والأمر مختلف عند شبه المستقرين أو البدو من شمر. فهؤلاء يجمعون أثناء إقامتهم الربيعية في البادية بعض المنتجات الغذائية ذات المنشأ النباتي، وبخاصة الكمأة، وتجفيفها. ونظراً لأن أسراب الجراد لم تعد تظهر إلا بين فينة وأخرى بسبب إجراءات المكافحة التي يقوم بها "قسم المكافحة" الدولي، فإن الجراد لم يعد له الآن أهمية غذائية للبدو.

والصيد أيضاً اختفى نهائياً تقريباً عند شمر، لأن عدد الطرائد البرية نقص بشكل كبير جداً في مناطق شمال شبه الجزيرة العربية نتيجة عدم وجود إجراءات حماية للحيوانات البرية. وإذا ما تم اصطياد بعض الغزلان بين فترة وأخرى بواسطة السيارة فإن ذلك لا يشكل أهمية اقتصادية في حياة شمر. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن صيد الحيوانات الصغيرة من قبل الصبيان الذي يمارس حتى الآن بصورة أو بأخرى.

تغيرات في مجال تبادل السلع: ازدادت العلاقات التجارية لشمر في ظل الظروف الاقتصادية الجديدة - مقارنة مع الماضي - ازدياداً كبيراً، وتضاعفت الروابط مع المدن والأسواق عدة مرات، بعد أن أصبح الوضع العام أكثر سلامة. في التجمعات السكنية الأكبر في الجزيرة التي يستوطن فيها الشمريون، استوطن عدد من التجار الذين يغطون حاجة سكان القرى إلى المواد الغذائية والاستهلاكية من كافة الأنواع، وأصبح وصول سكان هذه التجمعات السكنية التي لا يوجد فيها تجار إلى الأسواق القريبة أكثر سهولة قياساً بأماكن المراعي البعيدة سابقاً. وينعكس تحسن إمكانات تسويق الحيوانات إيجابياً على شمر البدو حث يقول «غلوب» حول هذه النقطة:

«إن السهولة التي يمكن بها تحويل الحيوانات إلى سيولة نقدية أدت إلى تقليص حجم القطعان وإلى تقليص مخزون الحبوب. لكنها طرحت كمية أكبر من المال في التداول ووفرت ملابس أفضل وفرش وشاي وسكر وكماليات أخرى كانت سابقاً قليلة الوجود عند البدو».

وبينما كانت سابقاً كل النشاطات التجارية عند شمر من اختصاص الرجال، أصبحت مع ظهور تربية الدجاج لدى شمر الحضر وشمر البدو إمكانية ممارسة أعمال تجارية من قبل النساء. فعلى عاتقها يقع بيع البيض والدجاج الحي في الأسواق، فالرجل ينظر إلى بيع هذه الأشياء ... كشتيمة لا يتحملها....

ورغم تراجع الطلب على الجمال بشكل عام تراجعاً كبيراً، فقد توفرت لشمر البدو الذين لايزالون يملكون قطعاناً لا بأس بها من الجمال منذ بضع سنوات إمكانية تسويق جديدة، إذ يقوم التجار الكبار بشراء هذه الحيوانات لتصديرها كحيوانات ذبح، وبخاصة إلى مصر وسورية، حيث توجد هناك حاجة إلى لحم الجمل.

امكانات دخل أخرى عند البدو خارج نطاق تربية الماشية والزراعة:

ضمن إطار الربط بين العراق وسورية بوسائل المواصلات من خلال بناء الطرق والسكك الحديدية واستخراج الثروات الأرضية وبخاصة النفط، حصل العديد من أبناء عشائر شمر على إمكانية تأمين مستلزمات حياتهم من خارج نطاق تربية الماشية والزراعة.

فقد أمن بدو شمر العمال لشركة استخراج النفط البريطانية. فالبدو سرعان ما يتعلمون أشياء تقنية ويفهمون بها ويطورون أنفسهم ليصبحوا تقنيين تدعو الحاجة إليهم. ولكن الأمر يتعلق هنا بمجرد مسألة عابرة وليس بعمل دائم. وهم في غالبيتهم شباب يقومون بهذه الأعمال ثم يعودون بعد مدة إلى ذويهم.

والشيء نفسه ينطبق على الشباب الذين يتطوعون لبضع سنوات في الخدمة لدى شرطة الصحراء أو في الجيش. ويتمتع الشمريون في العراق بوضع خاص لا يشملهم بسببه التجنيد الإجباري. كان حوالي ألف شمري في بداية عام ١٩٦٢ متطوعين في سلك الشرطة. وقد استخدموا في حملات القوات العراقية عامي ١٩٦١- ١٩٦٢ ضد الأكراد.

تأثير الحكومة على توطين شمر: سبق التنويه في بداية هذا الفصل إلى اهتمام الحكومة المبدئي في التوطين النهائي للبدو الرحل الذين يعيشون في مناطق نفوذها. وقد ازداد هذا الموقف قوة خلال العقود القليلة الماضية.

لخصت السيدة «بيسار» النقاشات التي جرت في ندوات حول الرفاه الاجتماعي أقامتها منظمة اليونسكو لحل مشكلة البدو (بيروت ١٩٤٩، القاهرة ١٩٥٠، دمشق ١٩٥٢)، حيث شاركت في هذه الجلسات، بقولها:

«افترض معظم المتحدثين بأنه من البديهي أن أفضل مساعدة يمكن أن تقدم للبدو هي تحضيرهم. ولتقديم هذه المساعدة لا تكفي النية الحسنة، بل إن

ذلك يتطلب الدعم المالي الكبير، والمساعدة الفنية والإرشاد لتسهيل تأقلم البدو المستقربن مع نمط الحياة الجديدة».

لكن في هذا المجال كان الوضع في الجزيرة متدهوراً. فالصعوبة الرئيسية نشأت بلا شك من التوزيع غير العادل للأرض، الذي سبق أن تحدثنا عنه، والذي يعرقل عملية تحول البدو الحاليين إلى الزراعة. لا شك أن إصلاحاً زراعياً حقيقياً – وليس مجرد شكلياً – كالذي كان عام ١٩٥٩ في ظل حكومة عبد الكريم قاسم – سوف يساعد على توطين ما بقي من بدو شمر، مساعدة كبيرة.

تقف الحكومات العربية ذات التوجه القومي حيال قضية حل مشكلة البدو أمام مهام أسهل بكثير من تلك التي واجهت الحكومة التركية سابقاً، لأن تغيرات جذرية طرأت على الظروف الاقتصادية والسياسية خلال العقود الفاصلة بين الزمنين، كما أن سلطة الدولة أصبحت أقوى مقارنة مع السابق. "فبمساعدة الشرطة والجيش والدبابات والطائرات أصبح الحضري الآن متفوقاً على البدوي في كل مجال، فقد زال خوف الفلاحين من البدو، والدولة العراقية الفتية متوجهة في كل مؤسساتها ومشاريعها نحو السكان الحضر" هكذا كتب الباحث «فيرت» عام١٩٦٢.

إذن فالدافع نحو الإنجاز النهائي لعملية توطين بدو شمر وبقية بدو المنطقة يجب أن ينبع من الحكومات المعنية، التي عليها أن تحمل همّ خلق الظروف الموضوعية لتمكين البدو من تحقيق واقع حضري مستقر. وقد عبر «الجمالي» بكل الوضوح عن التبعات الأخلاقية لمثل هذه الخطوة الحاسمة، التي تعني نهاية حياة البداوة بقوله:

«لا يستطيع أحد الإدعاء أن البدوي كان أكثر سعادة في حياة الترحال من حياة الاستقرار، حيث تحققت له إمكانية العيش بسلام وأمن بتوزيع معقول للثروات والظروف الصحية الأفضل والوقت للتجديد المستمر».

باستثناء حفر عدد من الآبار الارتوازية وإقامة بعض مراكز الرعاية الصحية وبعض المدارس الابتدائية قلما قام العراق حتى الآن بأية خطوات أخرى. وهنا تقف مهمة ضرورية من أجل المستقبل القريب.

ولكن حتى إذا ما افترضنا أن الحكومة قد خلقت كل الشروط الضرورية لاستغلال كل أراضي الجزيرة الصالحة للزراعة، فإن مساحات شاسعة تبقى، ولا يمكن استغلالها إلا كمراع، لأن التربة لا تصلح للزراعة من وجهة نظر اقتصادية نتيجة لظروف بيئية. فقسم معين من شمر سوف يمارس في المستقبل أيضاً تربية الماشية.

وقد صاغ الباحث «الفنستون» هذا المستقبل لعشائر بدوية أخرى بدقة متناهية بقوله:

«إن الظن بأن مستقبل البدو يمكن أن يحل بشكل مرض عن طريق مجرد التوطين، هو في كل الأحوال نظرة سطحية للمسألة. فبالدرجة الأولى لا تتوفر الرغبة في أن يقلع كل البدو عن حياة الترحال. فإن لم يعد هناك بدو تضيع مصادر الصحراء كمراع لقطعان الأغنام والجمال الكبيرة التي تشكل الاحتياط الغذائي من اللحم في الشرق الأوسط، ولا تتوفر مراعي بديلة يمكن تأمينها فوراً».

لكن هذه الحجة البينة لا تعني بالطبع المحافظة على الطرق التقليدية في تربية الماشية وعلى نمط الحياة المتوارث عند شمر. وسيكون من الضروري أيضاً عند الحفاظ على تربية الماشية في الأجزاء الأقل صلاحية للزراعة من شمال الجزيرة العربية، اتخاذ إجراءات مختلفة لرفع إنتاجية الاقتصاد البدوي.

وقد وضع الباحث «شيكيله» مطلبين رئيسيين لتحقيق هذه الرغبة:

«أولاً: يجب وجود عدد كبير من الآبار موزعة في الأراضي المخصصة للرعي بحيث تمكن من الاستغلال الأكمل نسبياً للعلف الطبيعي الذي توفره المراعي.

ثانياً: يجب خلق توازن في تأمين الأعلاف من خلال وجود مخزون من العلف الاصطناعي. فإذا ما تحقق هذان المطلبان لا يبقى سبب ولا ضرورة للترحال. وتصبح تربية المواشي مستقرة وثابتة وتدخل في خدمة السوق العالمية».

ولا نخطئ في ختام هذه الملاحظات على العلاقات الاقتصادية المتغيرة عند شمر جربا إذا ما عرضنا فكرة أن مربي الجمال السابقين هؤلاء قد بدأوا في اتجاه تطور سينتهي في وقت غير منظور إلى اختفاء البداوة بشكل كامل.

بذلك يتوصلون بدون شك، بعد التغلب على التناقضات والصعوبات المقرونة حكماً بهذه العملية، إلى مستوى أرفع، فيما يخص إمكانيات إنتاجهم ونمط حياتهم، منه في ظل ظروف البداوة الكاملة.

تنسجم اتجاهات التطور التي ترتسم معالمها عند شمر مع عمليات تطور مشابهة في بلدان كثيرة في غرب آسيا وفي إفريقيا. وقد توصل الباحث «هيرتسوغ» بعد اختبار الحالة بين السكان البدو في هذه المناطق إلى نتيجة:

«معظم حكومات هذه البلدان التي فيها بدو تقوم بالدعاية الآن لسياسة تحضير البدو، ولكن أية منها لا تحاول أن تجعل البدو – بأسلوب حياتهم واقتصادهم التقليدي – يندمجون بجدية كجزء ثابت في كيان الدولة. ولا يقتصر ذلك على الخطب والقرارات التي تصدر من أجل الاستهلاك الداخلي التي تطالب بتوطين البدو، بل تمتد أيضاً لتشمل اجتماعات المنظمات الدولية، مثل الجامعة العربية أو في الاجتماعات الإقليمية لمنظمة الرفاه الاجتماعي التابعة للأمم المتحدة.

ولن تكتمل معالجة مسألة التحول الاقتصادي، أي توطين البدو الرحل، إذا ما أغفلنا التطور الجذري والتغيرات الاجتماعية الكبيرة. وهذا ما سنعالجه في الفصل القادم.

الفصل الرابع

التغيرات في النسيج الاجتماعي لشمر- جربا من خلال التحول إلى الزراعة

١- نظرة عامة على التركيب الاجتماعي:

جلبت التغيرات الاقتصادية الجذرية التي سبق عرضها معها مظاهر تغير كبيرة في القطاع الاجتماعي. وسنحاول في هذا الفصل أن نستعرض التحولات التي طرأت على الكيان الاجتماعي لشمر- جربا، بحيث نضع هذه التحولات أمام العلاقات الاجتماعية الأصلية التي عرفناها من خلال المراجع المختصة وتلك التي أضافها المؤلف من خلال ملاحظاته ودراسته الشخصية.

يتركز البحث هنا على تلك المسائل الاجتماعية التي تسهل علينا فهم العلاقات الاقتصادية إلى حد كبير، أي مسألة الملكية والشؤون القضائية ودور الزعماء ... إلخ.

أما المجال الواسع لحق الضيف والقوانين الناظمة للحماية واللجوء سوف لن نسترسل في التطرق إليها، مثلها مثل قانون العقوبات البدوي الواضح. وكلما تابعنا تاريخ عشائر شمر في المراجع المتوفرة، تبدو لنا مجتمعاً ذا تقسيم وتراتب اجتماعي.

فوجود عدة مراتب لزعماء العشائر، ودوائر القضاء والقادة الحربيين، مع المهام المنوطة بكل منهم، سبق أن أشرنا إليها في الفصل السابق، وهي تعبر عن التراتب الاجتماعي بكل وضوح.

تشكل العصبية أساس الحياة المشتركة عند شمر، وهي الروابط القائمة على قرابة الدم التي أشار إليها سابقاً ابن خلدون في مقدمته. كما أشار العديد من المؤلفين إلى الدور الهام لمجموعة القرابة الدموية في حياة البدو، فقد علقت السيدة «بلونت» على ذلك بقولها: «قد يقضي البدوي كل حياته من المهد إلى اللحد دون أن يقضي يوماً واحداً لوحده، فحياته حياة مجتمع».

والأهمية الكبيرة التي يقيمها البدو للقرابة الدموية تتجلى بوضوح في ثلاثة مظاهر مميزة في حياة شمر الاجتماعية، وكذلك بالنسبة لعشائر البدو الأخرى وهي:

أ- هناك اهتمام كبير جداً بمسألة النسب، فكل بدوي يعرف نسبه الذي يعود غالباً إلى عدة أجيال خلت. فمعرفة النسب ونسب شيخ العشيرة تعتبر معرفة أساسية لكل بدوي، ويتم نقل هذه المعرفة من الآباء إلى الأبناء.

يتم تثبيت نسب الزعماء، كما ذكر «بروينليش»: «بحرفية، فلكل عشيرة رجل أو عدة رجال متميزون، وبالنسبة لزعيم ذو اعتبار تكون معرفة تاريخ العلاقات الاجتماعية وعلاقات القرابة لعشيرته والعشائر المجاورة وكذلك تطبيق ما ينتج عن ذلك من تراكيب اجتماعية، قضية في منتهى الأهمية».

هناك مثال على معرفة النسب الذي يعود إلى تاريخ ذي جذور عميقة تمثله شجرة عائلة جربا وهو (بيت محمد). ولكن مما يجب ملاحظته هو أن علاقات النسب ليست في كل الأحوال موثوقة بشكل مطلق، لأن البدوي بحد ذاته قلما اعتاد أن يفكر بأسلوب تاريخي. فلا يضيره أن ينسب رجلاً عاش

قبل بضعة أجيال إلى اسم ما عاش في غابر الأزمنة، أو أن يترك آخرين يسقطون في سلسلة النسب. وهناك خاصية معينة لشجرات نسب العشائر وهي حقيقة أنها لا تتضمن اسم أية امرأة، رغم الحرص على أن تكون من عائلة محترمة عند عقد قرانها.

ب- هناك قضية أساسية عند البدو تتمثل في نظام الزواج من داخل الأسرة أو العشيرة، وهو ما يعرف عندهم بالزواج من ابنة العم. وحسب هذا النظام يحق عادة للشاب أن يتزوج بابنة عمه. «فالزواج الداخلي الإجباري هو واحد من أهم قواعد تنظيم العلاقات بين البدو وأعضاء من مجموعات غير بدوية».

ومن خلال قواعد الزواج هذه فإن إمكانية الزواج المختلط مع غير البدو هي في أدنى مستوى لها. وزواج القرابة لدى شمر يزال متبعاً حتى الآن، لكنه مع ذلك ليس الأسلوب الوحيد. فزعماء العشائر بشكل خاص يتزوجون نساءهم (يجوز لهم حسب الشرع الإسلامي الزواج بأربع نساء) غالباً من عشائر أو فروع مختلفة لأسباب ودوافع سياسية. وفي هذه الحالة يحرصون على أن تكون المرأة نداً له من حيث النسب، أي يجب أن تكون من عائلة مشايخ.

ج- من أجل الحفاظ على مجموعة القرابة الدموية تجاه الآخرين هناك عادة البدو منذ أقدم الأزمنة بالأخذ بالثأر، وهو قانون الصحراء القديم الذي يقوم على مبدأ الدم بالدم، الذي ورد في العهد القديم ثم في القرآن الكريم (سورة البقرة الآية ١٣٧) الذي يقول بقتل القاتل. وفي الأسلوب البدوي المعدل لممارسة الثأر للدم هناك اصطلاح "خمسة" الذي ما يزال حتى الآن ساري المفعول.

وتشمل «الخمسة» كل أقارب الرجل حتى الدرجة الخامسة. وكل هؤلاء تشملهم عملية الأخذ بالثأر عند حدوث حالة قتل، إما إيجابياً: أي مطلوب منهم الأخذ بالثأر حتى الدرجة الخامسة، أو سلباً: أي معرضون لعملية الأخذ بالثأر حتى الدرجة الخامسة.

ونتيجة للتمسك الشديد بهذه القاعدة بدأ الآن عند البدو اعراض عن عمليات القتل، لأن الدم المسفوح يتطلب بدوره دماً ويهدد الموت ليس فقط المذنب لوحده، بل أيضاً كل من يمت له بصلة القربى.

وفي حالات كثيرة يستعاض عن الأخذ بالثأر بدفع الدية أو حق الدم، الأمر الذي يتطلب عادة مباحثات طويلة وصعبة بين العائلتين المعنيتين بالأمر.

كانت شمر تفرض في السابق تعويضاً عن حالة القتل /٥٠/ جملاً وفرساً وبارودة. وبعد أن دخل المال في الحياة الاقتصادية لشمر أصبحت الدية تدفع نقداً وتبلغ حوالي /٥٥٠/ ديناراً. أما عادة أخذ فتاة من عائلة القاتل بالإضافة إلى المبلغ النقدي، لتصبح زوجة لشقيق أو ابن المقتول فهي ليست معروفة عند شمر. وقد أشار «أوبنهايم» إلى الموقع الخاص لزعماء العشائر بخصوص الأخذ بالثأر – والعمل به بشكل فعال – بقوله:

«إن الأخذ بالثأر هو واجب ليس على عائلة المقتول فحسب، بل أيضاً على كل العشيرة، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بشيخ». وبشكل أوضح يتجلى الموقع المميز للطبقة الاجتماعية العليا عند شمر بالنسبة للبسطاء من البدو إذا ما أخذنا علاقات الملكية بعين الاعتبار، التي سوف نأتي على ذكرها بالقدر الذي يمكن للمادة المتوفرة لنا أن تعطي معلومات عنها.

٢- قضايا الملكية وأحوال القضاء في مرحلة البداوة:

من الصعب جداً أن نحصل على صورة واضحة عن المعلومات القليلة المتناثرة التي ذكرها رحالة القرن التاسع عشر إلى الشرق عن علاقات الملكية لدى عشائر شمر. مثلاً ليست هناك إحصائيات عما كان لدى مختلف المجموعات الشمرية من رؤوس ماشية. وهذه حقيقة يمكن توضيحها من خوف البدو من فرض الضرائب على مواشيهم. فقد فرضت الحكومة التركية سنوياً مبلغاً من المال عن كل رأس ماشية، لكن شمر لم تكن تدفع هذه الضريبة إلا في حالات استثنائية.

هناك منطلقات عامة تنطبق على ملكية وسيلتي الإنتاج الرئيسيتين لمربي الماشية وهما المرعى والماء. ويفيد الكثير من الأشخاص العارفين في عشائر شمر أن الجزيرة، من منطقة شمالي بغداد حتى الخابور، كانت في السابق مراعي مشتركة لعشائر شمر الذين كانت لهم ديرتهم الخاصة والتي كانت من الاتساع بما يكفي لتأمين العلف لكل القطعان في ظل ظروف عادية.

كان على أتباع العشائر الأخرى التي لا تنتمي إلى قبيلة شمر، وتدع قطعانها ترعى في الجزيرة، أن تدفع «خوّة» إلى عائلة شيوخ الجربا، بشكل مواشي أو حبوب أو مال. وكانت هذه «الخوّة» تدفع كل عام، وبالقوة إذا ما تطلب الأمر ذلك. ولا تشمل هذه الخوة الاستفادة من مياه الآبار، فلم يذكر شيء عن دفع أي شيء لقاء مياه الآبار في الجزيرة. أما العشائر المعادية، أو تلك التي ترفض دفع «الخوة» فكانت شمر تطردها من الجزيرة بالقوة وتحرمها بالتالي من استخدام المراعي وأماكن المياه.

لم توجد ضمن قبيلة شمر، من الناحية القانونية، أية امتيازات لأية مجموعة من الأشخاص فيما يتعلق بملكية الماء والمرعى. لكن في الواقع كان استغلال المراعي ومصادر المياه مختلفاً، أي حسب ملكية قطعان الماشية.

وكما يمكننا الحصول على إشارات عديدة، كانت هناك اختلافات كبيرة بهذا الخصوص من حيث الثروات.

يقول «شاو»: «إن مركز ونفوذ الفرد يتحدد حسب حجم ما يملكه ... أي من ماشية». وأجاب «أوبنهايم» عن نفس التساؤل بقوله: «يجب أن يكون الشيخ دائماً واحداً من أغنى رجال العشيرة ليكون قادراً على القيام بواجب الضيافة بما يليق بكرامته».

كما يعتبر «هارتمان» أن ثروة الزعيم هي واحدة من أهم مظاهر أهليته، ويطلق عليه اسم «المبرز بين أقرانه» وهذه التسمية أطلقها أيضاً مؤلفون آخرون وتدعو للتأمل إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التفوق الاقتصادي للشيوخ مقابل جماهير البدو البسطاء. فتجاه هذه الحقيقة لا يمكن للمرء بعدها الحديث عن مجتمع المساواة.

وإذا ما نظرنا على ضوء ذلك لأصبح للقول الذي ذكرناه آنفاً عن الملكية المشتركة لكل شمر للماء والكلأ اعتبار آخر يختلف كلياً. فاستغلال وسائل الإنتاج لتربية الماشية هو أكثف بكثير عند الشيوخ الذين يملكون قطعاناً أكبر من تلك التي يملكها العامة من البدو. بعبارة أخرى فإن الشيوخ الأقوى من الناحية الاقتصادية يطالبون بطبيعة الحال بنصيب من المراعي المتوفرة والمياه أكبر من نصيب الأضعف اقتصادياً الذين لا يملكون إلا قطعاناً قليلة العدد. كما يتجلى الموقع المتميز للزعيم مثلاً أثناء المخيمات الصيفية الكبيرة بوجود خيمته على مقربة مباشرة من البئر. بينما تنصب خيام عامة أبناء العشيرة بعيدة عنه.

وهناك مظهر خارجي من مظاهر الموقع الاقتصادي المتميز للزعماء يتجلى في الوسم الخاص الذي توسم به جماله كعلامة فارقة، بينما هناك علامة واحدة توسم بها ماشية كل بقية أفراد العشيرة.

ترتبط ملكية الشيخ للقطعان الكبيرة ببذل المزيد من الجهد، الأمر الذي لا يستطيع تقديمه، حتى ولو بمشاركة كل أعضاء أسرته، لذا فهو مضطر للاستعانة بقوة عمل إضافية يقوم بها الرعاة لقاء أجر يقدمه لهم. وغالباً ما يتعلق الأمر بشباب عزاب يقومون على خدمة قطعان الجمال في البادية. والواجب الأساسي للراعي هو:

١- الحرص على إيجاد المرعى الجيد.

٢- ارواء القطيع بانتظام.

٣- حماية الماشية ليلاً ونهاراً من الحيوانات البرية واللصوص.

يقوم على رعي قطعان الأغنام والماعز، التي لا تبتعد في مراعيها عن المخيم، مثل قطعان الجمال، عادة صبيان وبنات، ويشارك أيضاً أطفال الزعيم في هذا العمل.

تحمل أشكال تقسيم العمل هذه بلا شك طابع علاقات استغلال، لأن أجرة الراعي هي أقل بكثير من النفع الناتج عن عمله (مواليد جديدة في الربيع، الحصول على الحليب والصوف واللحم). كما يتضح استغلال قوة العمل الغريبة (أي من خارج أبناء العشيرة) من قبل الزعيم، مثل اقتناء العبيد بصورة أكثر جلاء.

ففي خيمة كل شيخ تقريباً كان يوجد في السابق بعض العبيد من أصل إفريقي (ويطلق الشمريون على العبيد اسم المنطقة التي جاؤوا منها، مثلاً يقولون حبشي، نوبي، مومباسي، أو سوداني) تم شراؤهم من سوق العبيد في الحجاز ونقلهم إلى الجزيرة. فالذكور من العبيد يقومون على حراسة الشيخ ولكل منهم عمله في الخيمة. أما النساء من العبيد فيعملن كخادمات لدى زوجات الشيخ، إذ يقمن بتحضير الطعام وجلب الماء وحطب الوقود ثم بناء وهدم الخيمة. ولا يتلقى العبيد أية أجور زيادة على حاجتهم من الطعام واللباس.

ويحرص الشمريون وعشائر بدوية أخرى كل الحرص على عدم حصول تزاوج بين العبيد والبدو ذوي الدم البدوي النقي. فإذا ما تزوج رجل من امرأة من العبيد يقوم أقاربه بقتله. (كما ذكر موسيل) فالعبيد يتزاوجون فيما بينهم.

شكل ثالث- لكن مستور- من أشكال استغلال الشيخ للقوة العاملة الغريبة يتمثل في تعدد الزوجات عند الزعماء. فالقدرة المادية تسمح للشيخ أن ينفق على أسرة كبيرة، بينما على البدو الفقراء أن يقتنعوا بزوجة واحدة. يضاف إلى ذلك السعي لإنجاب عدد كبير من الذرية تقوي بدورها من المكانة الاجتماعية للزعيم.

وفي الواقع يعتبر الزواج من عدة نساء في ظل تقسيم العمل الذي يتميز به المجتمع البدوي أكثر نفعاً من الزواج بواحدة. إذ يعوض دفع مهور الزوجات بعملهن فيما بعد في مجال الحرف اليدوية وفي مشاركتهن في تحضير المنتجات الحيوانية.

ولكن يبقى السؤال مفتوحاً حول مدى تخفيف أعباء هذه الأعمال عن نساء الزعماء من خلال عمل العبيد من النساء، إذ تنقصنا المعلومات الدقيقة حول هذه النقطة.

بناء على ما تقدم تبدو لنا فرضية الباحث «هينينغر» في بحثه حول قانون الملكية عند البدو التي يقول فيها: «بشكل عام تعتبر منزلة الشيخ اسمية، أي منصب شرف لا تعتمد على قوته المادية» أنها غير صحيحة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار إيرادات الشيوخ من الضرائب المفروضة على الآخرين، ومن نصيبهم من غنائم الغزو.

فضريبة «الخوّة» التي تدفعها العشائر التي تعيش في كنف شمر كانت بالدرجة الأولى من نصيب الشيخ الأعلى، وللزعماء الآخرين نصيبهم أيضاً، إذ يتقاسمون هذا الدخل فيما بينهم. وقد أفاد أشخاص معينون من شمر أن مقدار هذه الضريبة يبلغ ٥-٦ ليرات في العام عن كل خيمة أو بيت.

كانت هذه الضريبة تدفع بشكل نقدي أو عيني. وكانت تجبى بانتظام دقيق، وغالباً ما يكلف الشيخ عبيده بتحصيلها بالقوة، بحيث تنغص على دافعيها حياتهم، وخاصة القرى الممتدة على أطراف الصحراء التي كانت بالكاد تستطيع أن تحافظ على وجودها. ولكن من خلال دفع هذه الضريبة كان السكان يعيشون بأمان من غزو العشائر البدوية الأخرى، لأن شمر كانت تضمن حماية أولئك المكلفين بدفع «الخوّة» لها.

كثيراً ما قام الشمريون بغزوات على العشائر البدوية المعادية لهم. وكان الدافع الرئيسي للغزو هو الرغبة بزيادة الملكية الشخصية للحيوانات من خلال الاستيلاء على القطعان (وبخاصة الجمال). وقد فسر الكثير من المؤلفين الغزوات البدوية على أنها نوع من «الرياضة الوطنية» لا تراعى فيها المصلحة الاقتصادية التي تشكل الدافع الأساسي له.

وقد ذكر «أوبنهايم» «أن الشيخ الذي يهتم بسمعته يقوم سنوياً بغزوة أو أكثر قد تستمر أسابيع بل شهوراً». ويشير نفس الكاتب بأن ليس من الضروري أن يكون الشيخ في كل مرة على رأس الغزوة. فإذا ما برز أحد أعضاء العشيرة كمحارب خبير، يصبح عقيداً، أي قائداً للحملة. ولكن منصبه هذا ينتهي بانتهاء الحملة. وقد ثبت أن وظيفة العقيد مربحة جداً في الغزوات الناجحة. وتوزع الغنائم على الشكل التالي:

خشر: أي أن الغنائم تقسم أول الأمر على كل المشاركين فيها بالتساوي، ثم يأخذ العقيد من كل واحد جملاً، وهذا يسمى حق العقيد.

غارة: يأخذ كل مشارك في الغزو الجمال التي استولى عليها شخصياً. ويقدم في النهاية كل منهم جملاً للعقيد كحصته الشخصية.

روق: وهو نوع من نظام تقسيم الغنائم، حيث يحصل كل مشارك في الغزو على جملين «حزيزة وعديدة» والباقي يعود للعقيد.

يتم تحديد طريقة توزيع الغنائم قبل الشروع بالغزوة. أما بالنسبة لتوزيع الغنائم من الأغنام والماعز، التي تلعب دوراً ثانوياً في الغزوات، فيتبع المبدأ التالي: يذهب ثلث الغنائم للعقيد ويوزع الثلثان بالتساوي بين بقية المشاركين.

إذن يحصل قائد الغزو على جزء من الغنائم أكبر مما يحصل عليه بقية المشاركين، وبالتالي يتكمن من زيادة حجم قطيع مواشيه ويرفع من منزلته الاجتماعية، ليصعد بالتالي ويصبح في عداد الفئة الاجتماعية العليا.

بقي أن نقول أن الأملاك التي يتم الحصول عليها عن طريق الغزو هي أملاك غير مضمونة نسبياً، لأن كل غزو ناجح يدفع بالمتضررين للقيام بعمليات انتقام.

هناك طريقة أخرى من طرق تجميع الثروات تحت ظروف حياة البداوة لا علاقة لها بالاجتهاد الشخصي في العمل، بل تتعلق بنظام القضاء عند شمر. ورغم أنه لم يكن يوماً للبدو قوانين ثابتة مكتوبة، فإن لهم قضاء عرفي واضح ينتقل شفاهة من جيل إلى آخر.

فبينما يقوم الشيخ بدور الحكم في فض النزاعات، هناك من جهة أخرى عائلات تتوارث مسألة القضاء ويختار أحد أعضائها للقيام بمنصب القاضي. أما قول «أوبنهايم» في هذا الصدد:

«لشمر ثلاثة قضاة مباشرين (رئيسيين) وهناك أيضاً اثنا عشر قاض ثانوي. يتم تعيينهم بين حين وآخر نتيجة لبراعة خاصة يمتازون بها» يختلف قليلاً عن المعلومات التي حصل عليها المؤلف حول القضاء عند شمر. وحسب هذه المعلومات فإن لشمر أربعة عائلات تتولى شؤون القضاء بالوراثة وهي:

ابن سعدي من عشيرة خرصه.

ابن عامود من عشيرة سنجاري.

ابن عجيل من عشيرة جربا.

ابن تلاع من عشيرة عبده.

كل ممثل من هذه العائلات يشغل المنصب القضائي «حاكم أو عارف» طيلة حياته.

يتلقى القاضي أجراً معيناً لقاء حل النزاعات القضائية، وهذا يختلف من حال إلى حال، سواء ممن يكسب القضية أو ممن يخسرها، أو من كليهما معاً، يدفع هذا الأجر بالماشية. كتب «أوبنهايم» حول هذه النقطة: «تكاليف الدعاوى تكون نسبياً باهظة وتدفع بالماشية وبالدرجة الأولى بالغنم أو بالجمال».

كما يمكن أن تدفع على شكل سلاح أو ملابس أو خيل أو مال. كما ذكر بعض المؤلفين. ويطلقون على التعويض الذي يتلقاه القاضي تسمية «رزقة».

ومن خلال هذا الدخل يحوز القضاة على ملكيات تفوق بكثير ملكيات أبناء العشيرة العاديين. ويتم تنفيذ الحكم الصادر عادة بضغط من الرأي العام، حيث يتم تعيين أشخاص محددين لضمان تنفيذ الحكم الصادر.

بناء على ما تقدم يمكننا أن نميز بين ثلاث فئات من المنتمين لشمر قادرة على زيادة ممتلكاتها الشخصية من المواشي والسلع المادية الأخرى زيادة كبيرة، من خلال الامتيازات التي توفرها لها مراكزها، وهي:

١- الزعماء الذين تتفاوت ملكياتهم من واحد إلى آخر وعلى رأسهم شيخ المشايخ بدون شك، إذ يتدفق عليه معظم الدخل الذي يأتي من الضرائب المفروضة.

٢- قادة عمليات الغزو الذين يحصلون على القسم الأعظم من الغنائم بصفتهم القيادية.

٣- القضاة الذين يحق لهم الحصول على دخول مرتفعة كتعويض عن عملهم في إصدار الأحكام القضائية.

بهذه المجموعة حددنا الطبقة الاجتماعية العليا لشمر- جربا في ظل الظروف التي تخضع لها حياة البداوة. ونتيجة قوانين الوراثة السائدة لدى شمر هناك حرص شديد على بقاء الأملاك داخل العائلة، لأنها تورث مع المنصب إلى السلف. وبشكل عام يحتل الابن البكر «الكبير» مركز الأب المتوفى. فهو الذي يتولى منصبه ويرث عنه الخيمة وما فيها من ممتلكات وقطعان الماشية.

هناك شذوذ عن هذه القاعدة عندما يتولى فرد آخر من أفراد العائلة منصب الوالد، أما أملاكه فتوزع بين عدد كبير من الورثة. ويمكن للأب مثلاً أمام عدد من الرجال «شهود» أن يقرر كيفية توزيع ما يملكه قبل وفاته. يتم اشهار هذه الوصية الشفهية علناً، وتنفذ بعد وفاة صاحبها. وإذا توفي رجل دون أن يترك أبناء تؤول الورثة إلى إخوته أو إلى أقارب بالدم ذكور أحياء.

أما خلافة الشيخ على المشيخة فإن لأهلية الابن البكر لشغل هذا المنصب أهمية كبيرة. وإذا ما حصل هناك اتفاق على أن هذا المرشح لا

يصلح لشغل هذا المنصب، يتم تنصيب أحد أبناء المتوفى الآخرين، أو أخيه، أو ابن أخيه، أو عمه، أو أحد أبناء عمه، في منصب الشيخ. وكثيراً ما نشبت نزاعات حادة بين المؤهلين لشغل المنصب، أدت إلى مآس دموية داخل أسرة الشيخ. وفي كل مرة كان لقوة المرشح وقدرته على اتخاذ القرار أهمية كبيرة، لأن «خلق الأمر الواقع يساعد على كسب رضى الجماهير فيما بعد».

من المهم في الشأن المتعلق بقانون الملكية عند الحلول محل «الموظفين» في مجتمع العشيرة هو حقيقة بقاء الوظيفة والممتلكات داخل العائلة المعنية، وبذلك تبقى دائرة العائلات من أصحاب الامتيازات، ولنقل الأغنياء، محدودة عند شمر.

يقل تراكم الثروات التي تأتي على حساب المجموعة في أيدي أفراد معينين من البدو من خلال الالتزامات التي ترتبها عليهم مهامهم. فالواجبات الملقاة على عاتق الزعيم أو القاضي تقضي بعودة بعض هذه الأملاك إلى المجموعة: «فالضيافة تقع بالدرجة الأولى على عاتق الشيخ الذي من مهامه استقبال الغرباء، وقبل كل شيء بقاء منزله مفتوحاً في كل الأوقات لأبناء عشيرته.

فسماحة وكرم الشيخ من الصفات التي طالما ذكرتها المراجع وركزت عليها. وعلى الشيخ أن يحافظ على هذه القيم البدوية العريقة ويثبتها للغرباء الذين يستقبلهم ويستضيفهم، ولأبناء عشيرته الفقراء الذي يجب عليه أن يعيلهم في أوقات الشدة.

فجزء من مؤونة الشيخ يستخدم كمؤونة جماعية، إذ يؤول في أوقات الشدة إلى أبناء العشيرة المعوزين. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن منصب القاضي، إذ يأتيه المتقاضون ويحلون ضيوفاً عليه لمدة قد تمتد لعدة أيام.

إذن يمكن في نهاية هذه الملاحظة استخلاص بعض الملاحظات عن العلاقات الاجتماعية لدى شمر في ظل نمط الحياة البدوية الذي يقوم على الترحال. منها أنه كان هناك تقسيم اجتماعي بارز المعالم ضمن المجموعة مقترن بفروقات كبيرة في الملكيات. كما أن ملكية قطعان الماشية الكبيرة والمواد الأخرى تورث داخل العائلات صاحبة الامتيازات وتبقى ضمن إطار ضيق. ومن خلال أنماط السلوك المرتبط بالتقاليد، والملزم بالنسبة للزعماء والقضاة، كان لأعضاء العشيرة الآخرين جزءاً معيناً من ثروة الطبقة العليا.

٣- قضايا الملكية وأحوال القضاء بعد الانتقال إلى الزراعة

تحوّل في مهمة الشيوخ

قادت معالجة أسباب تحول الطبقة الاجتماعية العليا عند شمر - جربا الزراعة إلى نتيجة أن هذا التحول قد حصل تحت ضغط الضائقة الاقتصادية.

وفي ظل المتغيرات السياسية بعد الحرب العالمية الأولى في بلدان الشرق الأوسط خسر شيوخ شمر بعض مصادر الدخل التي كانت تدر عليهم ثروات من خلال اجراءات حاسمة قامت بها الحكومات العراقية - البريطانية والسورية - الفرنسية.

ففي عام ١٩٢٠ منعت حكومة فيصل الأول تحصيل ضريبة الخوة. وفي الوقت نفسه تقريباً اتخذت الحكومة موقفاً صارماً ضد الغزوات التي يقوم بها البدو، بحيث لم تحدث في منتصف العشرينات سوى غزوات قليلة متفرقة سرعان ما تم القضاء عليها.

تحدث الكاتب «فيلد» في دراسة صدرت عام ١٩٥١ عن عمليات غزو قام بها الشمريون على قرى في الجزيرة خلال عامي ١٩٢٠- ١٩٢١. وفي

الجانب السوري قام الشمريون بغزوات ضد «فدعان» ولكن وضع حد نهائي لهذه الغزوات عام ١٩٢٦ من خلال خطة «سلام دير الزور» وبالتالي خسرت الطبقة الاجتماعية العليا مبالغ طائلة من الضرائب التي فرضوها ومن غنائم الغزو الكبيرة.

يضاف إلى ذلك ما ذكرناه سابقاً عن انخفاض أسعار الجمال نتيجة تراجع الأهمية الاقتصادية للجمل كوسيلة للنقل، الأمر الذي أدى إلى ضعف شديد لحالة البدو الاقتصادية.

ورغم منع اقتناء العبيد – منذ عام ١٩١٠ في ظل حكومة السلطان عبد الحميد – استمر عملياً لفترة طويلة بعد ذلك، لأن العبيد الذين أعلن عن تحررهم بقوا في مخيمات سادتهم. ولم يتحرر العبيد إلا بعد الثورة العراقية عام ١٩٥٨.

وفي سعيهم إلى الحصول على مصادر دخل جديدة التقت مصالح الشيوخ مع جهود الحكومة نحو وضع البدو تحت المراقبة والسيطرة. ومن أجل استعدادهم للمساعدة على تحقيق أهداف الحكومة الجديدة، أي لتفعيل الإجراءات المتخذة إدارياً، تم منح زعماء شمر جربا – وعى رأسهم شيخ المشايخ «عجيل الياور» – الأراضي.

وقد سبق أن استعرضنا ذلك في الفصل الثالث وذكرنا أنه خلال سنوات قليلة تحولت أفضل الأراضي التي كانت سابقاً مراعي مشتركة إلى أملاك خاصة لبعض الزعماء، وبذلك حدث عملياً التحول الحاسم في مجال الملكية. أسفر هذا الوضع الجديد عن سلسلة كاملة من مظاهر التحول في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والقانونية.

لم تظهر العلاقات المتغيرة بوضوح إلا بعد بدء استغلال الأرض بشكل عملي في بداية الخمسينات، إذ تحولت أجزاء شاسعة من أراضي الجزيرة،

التي كانت مراعي، إلى أراض زراعية توزع غلالها بالدرجة الأولى بين مالكي الأرض ومستأجريها، بينما رحل من لا أرض له- وحافظ على حياة البداوة- إلى المناطق التي لا مالك لها في الجزيرة والتي لا تصلح للزراعة.

بهذا التطور اقترنت عملية انقسام المجتمع البدوي- المختلف بالأصل من حيث المركز الاجتماعي ومن حيث الثروة إلى طبقتين متناقضتين:

طبقة ملاك الأراضي، تقابلها طبقة عريضة ممن لا أملاك لهم. ولم يتغير شيء عند من يملك عشرات الآلاف من الدونمات والجماهير العريضة من البدو التي لا أملاك لها بعد قانون الإصلاح الزراعي الذي أصدرته الحكومة العراقية.

ففي هذا القانون الذي بدأ العمل به عام ١٩٥٩ ورد التالي:

«لا يجوز أن تتجاوز المساحة المزروعة التي يملكها شخص واحد مساحة ألف دونم أراضي مروية أو ألفي دونم أراضي بعلية. وفي حالة وجود النوعين من الأرض فإن دونماً واحداً من الأرض المروية يعادل دونمين من الأرض البعلية».

تبدو هذه التناقضات الناتجة عن التوزيع غير المتساوي لملكية الأراضي في التركيب الاجتماعي عند شمر واضحة عندما نستعرضها من خلال مثال على التحول الذي طرأ على وظيفة الشيوخ.

كان لكل شيخ في مرحلة البداوة الخالصة من حياة شمر عدد كبير من المسؤوليات تجاه المجتمع الذي يتولى قيادته، عليه أن ينفذها، إذ كان عليه السهر على تحقيق الانسجام والاتفاق داخل عشيرته، تأمين المؤونة الدائمة من أسواق المدينة في الوقت المناسب، ثم ملاحقة قضايا متعددة، مثل النزاعات التي تنشب باستمرار، والحروب الجديدة، الذهاب للغزو والعودة منه، الوضع العام في الصحراء، منسوب الماء في الآبار، هطول الأمطار، وأحوال العشائر الصديقة والمعادية، وأن يترأس اجتماعات المجلس.

أما مهام شيخ المشايخ فقد كان لها إطار أوسع، فهو ممثل العشيرة نحو الخارج ويحاور الغرباء، ويمنح الألقاب والأوسمة والألبسة الفخرية. وعن طريقه تفرض الضرائب على العشيرة ومعه تعقد الاتفاقات. وفي حالة عصيان تقوم بها العشيرة فهو الذي يعتقل ويودع في السجن، حسب ما كتب الباحث «بروينليش». ينطبق هذا الوصف لمهام الشيخ وشيخ المشايخ أيضاً على الأحوال الأساسية عند شمر.

ظهرت البدايات الأولى للتحول الذي طرأ على هذه المهام منذ القرن التاسع عشر، حيث كانت الحكومة التركية آنذاك تسعى من خلال منح لقب باشا ودفع مبلغ شهري من المال، إلى وضع شمر تحت نفوذها بطريق غير مباشر، من خلال شيخ مشايخهم، ، وتجعل منه إلى حد ما واحداً من موظفي إدارتها.

وقد أوضحنا في الفصل السابق أن هذه الرغبة لم يكن لها أن تتحقق. ولم تنفذ هذه المساعي إلا خلال السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى حيث مورس ضغط شديد على الطبقة الحاكمة في شمر من خلال ما سمي بالإجراءات القسرية للحكومة الجديدة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى انفتاحهم على السياسة الجديدة الذي قابله تملك الأرض، فمن خلال ذلك تغير الوضع كلياً.

والآن بعد أن أصبحت الحكومة المركزية أقرب إلى البدو مما كانت عليه عندما كانت في استنبول، أصبح اعتراف الحكومة الرسمي بشيخ المشايخ يهدد بإحداث توتر اجتماعي بين عامة أبناء شمر والشيخ، فهو كنوع من ممثل عن الحكومة أو حتى موظف لديها، يبعد عنه عامة أبناء البدو.

يعود هذا الذي أطلق عليه «هارتمان» اسم التوتر الاجتماعي بين البدو البسطاء وزعمائهم لأسباب اقتصادية، إذ يعزى إلى الفروق في قضايا الثروة بين كبار ملاكي الأراضي وأولئك الذين لا يملكون الأرض.

هذا القانون الذي لم يكن يظهر بهذه الحدة في ظل العلاقات التي كانت سائدة أثناء مرحلة تربية الماشية، حيث كان لمجمل العلاقات الاجتماعية والعشائرية ملامح بطريركية. فهذا التباين في موضوع الثروة بين هاتين الطبقتين الجديدتين بدأ يتوضح من عام إلى آخر، حيث يغنى ملاك الأراضي باستمرار من خلال الدخل الذي تدره عليهم الزراعة، بينما لا يستطيع من لا يملكون أرضاً أن يزيدوا مما بحوزتهم، أو بالأحرى افقروا جداً بعد تركهم تربية الماشية وبدئهم العمل في أراضي الشيوخ كعمال زراعيين.

فإذا ما ازدادت قوة الشيخ باستمرار وأصبح أميراً صغيراً ومالك أراض غني، وتحول العامة إلى كتلة بشرية متعلقة به، فإن التركيب الاجتماعي للبداوة قد يتخلخل، بل يزول.

من خلال ثرواتهم الجديدة أصبح بمقدور الشيوخ أن يبنوا أو يشتروا بيوتاً في المدن، وأن يسكنوها بشكل دائم أو مؤقت. وقد استفاد عدد منهم من هذه الإمكانية. بذلك توثق انفصال الزعماء الذين تحولوا إلى الزراعة عن مجتمع العشيرة بشكل جلي. «فالحياة المرفهة في المناطق المستقرة جعلت شيوخ العشائر متمركزين حول أنفسهم بدلاً من تمركزهم حول العشيرة».

يتحدث «أغات القلا» عطفاً على الحديث عن هذه الطبقة المتشكلة حديثاً من الإقطاعيين الجدد، فهذا الاصطلاح مضلل - حسب رأي المؤلف - لأن الأمر هنا لا يتعلق بعلاقات إنتاج إقطاعية، بل بعلاقات استغلال رأسمالية واضحة.

وكنتيجة لمعالجة مسألة التحول الذي طرأ على وظيفة الشيوخ يمكننا استخلاص التالي: تحول قسم من زعماء العشائر السابقين إلى ملاك للأراضي من خلال الاستملاك الخاص للأرض. وهؤلاء قاموا بتجميع الثروات من خلال استخدام قوة عاملة غريبة.

وبينما كان الاهتمام بمصالح العشيرة كمجموعة يشكل محور اهتماماتهم في السابق، أصبح الآن السعي نحو المنفعة الخاصة يحتل المركز الأول في اهتماماتهم في ظل الظروف المتغيرة، ولم يعد للمجموعة نصيب في ثروات الشيوخ، بعكس ما كان عليه الأمر في السابق. ولو لم يتغير هذا الوضع من خلال خطوات مناسبة من قبل الحكومة (الإصلاح الزراعي وغيره...) لكانت النتيجة الحتمية هي خلافات ذات طابع طبقي.

نظرة على وضع الشمريين الذين حافظوا على نمط حياة البداوة تظهر أن هؤلاء ما زالوا يتمسكون بالعصبية القبلية لمجموعات البدو الرحل، وما يزال الزعيم يمارس مهامه الوظيفية ضمن التنظيم العشائري، وأن هناك نوعاً من التناقض الاجتماعي بين شمر البدو بمجموعهم، وبين ملاك الأراضي.

ونتيجة للتغير الذي طرأ على أرض المراعي، التي دخلت في الاستثمار الزراعي، تقلص حجم القطعان وأدى ذلك بالتالي إلى إفقار البدو، ونقص حجم قطعان الجمال لصالح قطعان الأغنام والماعز، لأن إمكانية تسويق المواشي الصغيرة أصبحت أكبر.

وبسبب العلاقات المتغيرة مع المستقرين نشأت أشكال جديدة كلياً لملكية الحيوانات، يطلق عليها الشمريون اسم «موسم». وهي عبارة عن قطعان من الغنم بالدرجة الأولى، تعود ملكيتها لأحد سكان المدن الواقعة على أطراف الجزيرة، ويعهد برعايتها إلى بدوي، يتقاسم منتجاتها مع المالك بموجب اتفاق خاص بينهما.

وقد اطلع المؤلف على مثال من هذا النوع عند بدو «خرصة» حيث يتم توزيع الأرباح على الشكل التالي:

يأخذ المالك نصف الزبدة المصنعة من الحليب، وكذلك الأمر بالنسبة للصوف. ويأخذ المالك أيضاً الخراف التي تولد كل ربيع ما عدا بعض الخراف الذكور التي يحق للراعي أن يذبحها لتلبية احتياجاته المنزلية الخاصة. كما تذبح الخراف المريضة وتؤكل، لكن يجب إثبات أن الذبح كان ضرورياً ولا بد منه. ويمكن لصاحب القطيع أن يسترد قطيعه في كل وقت.

إذن الأمر يتعلق باتفاق منفعة مشتركة بين ساكن المدينة الذي يساعد البدوي على تحسين شروط إعالة أسرته، لكنها لا تعني أبداً زيادة أملاك البدوي القائم على تربية القطيع، لأن أي زيادة على عدد الرؤوس في القطيع

تعود على المالك، رغم أنه لا يؤدي أي عمل في سبيل ذلك. وقد تحدث بعض المؤلفين عن علاقات مشابهة لدى بدو فلسطين.

قد يقع البدو في أزمات اقتصادية صعبة تحت عبء علاقة ارتباط مادية مع الدائنين في المدينة. فمن خلال الفائدة المرتفعة قد يصابون بالدمار ولا يبقى لهم إلا خيار واحد، هو بيع ما بقي عندهم من قطعان، والتحول إلى الزراعة، وبالتالي الارتباط بملاك الأراضي. وهنا يكمن أيضاً سبب من أسباب اتجاه شمر نحو التحول من البداوة إلى حياة الاستقرار.

كما طرأت تغيرات كبيرة في مجال الشؤون القضائية عند شمر، إذ تم التخلي شيئاً فشيئاً عن قانون العرف المتبع لدى البدو لصالح التطور الحديث.

ومن خلال ذلك فقد القضاة البدو مراكزهم شيئاً فشيئاً، الاجتماعية منها والاقتصادية. فجزء كبير من مجال مهمة القضاة - تسوية النزاعات التي تنشأ عن سرقة المواشي- اختفى من خلال السلم العام الذي ساد الجزيرة. أما في حالة حدوث جرائم كبيرة، (حوادث قتل، سرقة ونهب وعصيان ضد الدولة وغيرها) فتتدخل الآن قوات الأمن التابعة للدولة التي تمثلها مراكز عديدة لخفر الصحراء في منطقة الجزيرة.

حتى في الجنح الصغيرة، (وكما سبق أن ذكرنا حادثة البدوي الذي ترك قطيعه يرعى في حقل أحد الفلاحين، واضطر للمثول أمام المحكمة في بغداد)، فقد بدأت الآن سيادة قانون الدولة على حساب قانون العشيرة العرفي، رغم أنه في سورية وفي العراق أيضاً تسعى الحكومتان

لاستبدال قانون العشيرة شيئاً فشيئاً بالقانون المدني مع مراعاة بعض جوانب قانون العشائر.

إذن الأمر لا يتعلق بقضية وحيدة الجانب من قبل الدولة تتجاهل فيه قانون العشائر. وكمثال على ذلك نذكر أن الحكومة تعترف لشمر حتى الوقت الحاضر بحق حمل السلاح الناري في البادية حتى بدون رخصة رسمية. وحسب طبيعة الأشياء لا يمكن تجاهل الظن بأن قضاة شمر قد بدأوا يفقدون وظيفتهم المتوارثة التي آلت إلى الجهات الحكومية المختصة.

٤- دور التنظيم العشائري:

إذا ما طرحنا السؤال عن دور النظام العشائري عند شمر - جربا قبل وبعد حياة الاستقرار ومدى تأثره بالظروف الاقتصادية المتغيرة، فسنصل إلى مجال لم يتم بحثه من قبل، ولا يتوفر لدينا عنه إلا القليل من المعلومات، وهي متضاربة إن وجدت.

لذلك لا يمكننا في هذا الفصل إلا أن نقتصر على إدراك ملامح التطور فيما يخص النظام الاجتماعي عند شمر بعد بداية التحول الاقتصادي، وبخاصة أن الانتقال من البداوة إلى الاستقرار ما يزال مستمراً، وبالتالي لا يمكن بعد الحصول على معلومات يمكن أن نستخلصها ونركن إلى صحتها.

وقد سبق أن نوهنا إلى أن شمر - جربا عبارة عن قبيلة مؤلفة من أربعة عشائر رئيسية، يجمعهم اسم مشترك، ولهم شيخ مشايخ معترف به من الجميع، وتجمعهم علاقات قرابة حقيقية أو وهمية. ويبدو تنظيمها

الاجتماعي داخل المجتمع البدوي كما عرضه عدة رجال موثوقين على الصورة التالية:

عائلة – فرقة – فخذ – عشيرة – قبيلة. يتوافق هذا الترتيب مع دراسات أخرى حول العشائر البدوية في شمال الجزيرة العربية ويختلف عن تسميات أخرى ذكرها مؤلفون آخرون.

ربما يرجع هذا الاختلاف في التسميات إلى اختلافات لغوية وتعابير تتعلق بالمؤسسات الاجتماعية نفسها.

ومن جهة أخرى هناك فروق مؤكدة داخل التنظيم العشائري بين عشيرة بدوية وأخرى. فلم نعثر على كلمة تستخدم للتعبير عن عدة عائلات تربطها رابطة القرابة كحلقة وصل بين العائلة والفرقة. وربما يعود ذلك إلى عدم شيوع الأسرة الكبيرة عند عشائر بدو شمال الجزيرة العربية.

حول تسميات الفرق والأفخاذ والعشائر عند شمر – جربا هناك معطيات مفصلة أدلى بها عدد كبير من المؤلفين. وهذه المادة تختلف في قيمتها وتتناقض أحياناً. كما أن الاحاطة التامة بالعدد الكبير من أسماء الشعوب البدوية المنتشرة فوق أرض مترامية الأطراف تعتبر مهمة في غاية التعقيد بالنسبة لباحث فرد، وربما مستحيلة.

قدم لنا الباحث «روسو» أول تعداد لأسماء مجموعات شمر، كان ذلك في بداية القرن التاسع عشر. فقد قسم «همج شمر» إلى ثلاث وثلاثين مجموعة، حيث لم يفرق بين فخذ وعشيرة بل ذكرها في قائمة واحدة، لذلك لا يمكن الوثوق بها.

ربما كان ما ورد في أحد المراجع الصادرة عام ١٩١٩ عن وزارة الحرب الإنكليزية بعنوان «القبائل العربية في ولاية بغداد» حول تقسيم شمر - جربا، أكثر غنى في المعلومات، حيث وردت العشائر والأفخاذ والفرق منفصلة عن بعضها مع اسم زعيم كل منها، ولكن مع ذلك يبقى هذا العرض مليء بالثغرات.

يقتصر العرض الذي قدمه الباحث «مونتان» لمختلف مجموعات شمر على وصف العشائر الأربعة الرئيسية من نجد وهي عبدة وسنجاري وأسلام (صايح) وتومان، حيث تقدم أفراد من العشائر الثلاث الأولى حتى الجزيرة، بينما لم يصل أبناء العشيرة الأخيرة، أي تومان، إلا إلى جنوبي العراق.

يعود الفضل إلى الباحث «أوبنهايم» في إعداد العرض الواضح لتقسيمات شمر - جربا، حيث ينطلق في القائمة التي أعدها من التوزيع الإقليمي لشمر بعد الحرب العالمية الأولى. ويعالج أولاً شمر سورية، التي يفهم منها أن عشيرة سنجاري هي المقصودة ومن ثم شمر العراق التي تشمل خرصة، صايح وعبدة. وتتضمن لائحة «أوبنهايم» أيضاً أسماء الأفخاذ وزعمائها، لكنها لا تتضمن أية معطيات عن الفرق.

أما العرض الأكثر تفصيلاً، وربما أيضاً الأكمل لتقسيم قبيلة شمر إلى عشائر وفرق وأفخاذ مع اسم زعيم لكل من هذه التنظيمات، فهو الذي قدمه الباحث «فيلد» الذي أعد جدولاً كاملاً لكل تقسيمات شمر الشماليين (المقصود بذلك شمر - جربا) مقابل مساعدة شخصية قدمها له شيخ المشايخ آنذاك «عجيل الياور».

ويتوافق التركيب الاجتماعي للقبيلة الذي عرفه المؤلف أثناء إقامته عند شمر إلى حد كبير مع الجدول الذي أعده «فيلد» لكنه لم يرقَ إلى مستوى كماله.

الشيء المثير للانتباه عند السؤال عن انتماء هذه الفرقة أو تلك إلى فخذها هو كثرة اختلاف الآراء بين أبنائها حول الوحدة الاجتماعية الأعلى التي تنتمي إليها الفرقة. وربما يمكن تفسير هذه الاختلافات بصعوبة الاحتفاظ بأكثر من ١٨٠ اسم من أسماء العشائر والفخاذ والفرق في الذاكرة، ويمكن في إطار هذه الدراسة الاستغناء عن ذكر كل هذه الأسماء، لأن الأهم في موضوعنا هذا هو وظيفة هذه التجمعات كل على حده، ومعرفة علاقاتها مع بعضها البعض.

يمكن تقسيم هذه المجموعات - حسب وظيفتها - إلى فئتين رئيسيتين:

١- الوحدة السياسية للقبيلة والعشيرة نحو الخارج والتي لا تتجلى بوضوح إلا في حالات طارئة كهيئة عسكرية - إدارية (في حالة النزاعات المسلحة مثلاً).

٢- وحدة الفرقة والعائلة التي تتجلى في القطاع الاجتماعي، الاقتصادي ذات الأثر الكبير الموجه نحو الداخل.

ويرى «بروينليش» الذي عكف على دراسة مسائل التنظيم الاجتماعي للعشائر البدوية العربية بتعمق، أن هناك مجموعة من الصفات تتصف بها القبيلة التي تتألف من عشائر وهي: أن تكون مستقلة وأن تكون لها مصالح واحدة على الأقل في المسائل الكبرى. ويجب أن يكون شيخ أعلى معترف به وأن تحمل اسماً مشتركاً وتشعر بالتجانس. وغالباً ما يكون لها شجرة نسب مشتركة.

هذه الصفات تنطبق في أهم نقاطها على قبيلة شمر- جربا إذا ما قارناها مع الحقائق التي أوردناها في بداية هذه الفقرة. والشيء المعقد هو قبل كل شيء مسألة شجرة النسب المشتركة لعشيرة شمر.

يتوصل «أوبنهايم» في أبحاثه حول نسب عشائر شمر إلى نتيجة أن ليس لدى شمر نظام موحد للنسب وقال: «يبدو أن مثل ذلك النظام كان موجوداً في السابق، لكنه لم يعد موجوداً نتيجة تفكك العشيرة (ربما من خلال الهجرة من نجد) والأرجح أنهم تخلوا عن هذا النسب منذ وقت طويل لأن نسبهم في العراق لا يختلف عنه في نجد فحسب، بل منقسم في العراق أيضاً».

إنه ليس استنتاج خاطئ إذا ما أرجعنا عدم وجود شجرة نسب مشتركة لقبيلة شمر إلى التاريخ المعقد لهؤلاء البدو - كما سبق أن ذكرنا عن التاريخ العرقي لشمر - الذين يمثلون شعباً مزيجاً، وحد خلال عملية استقراره بين عناصر من شعوب مختلفة في جنوب شبه الجزيرة العربية.

إن أصغر وحدة اجتماعية واقتصادية عند شمر هي العائلة التي غالباً ما تسكن خيمة واحدة. وفي حالة تعدد الزوجات يمكن أن تتوسع هذه العائلة الواحدة وتتوزع على عدة خيام. يرأس كل عائلة أكبر الأعضاء الذكور سناً. وتشكل عدة عائلات تجمعها قرابة الدم (اخوة الرجل وأبناؤه وأبناؤهم الذكور البالغين مع زوجاتهم وأطفالهم) مجموعة عائلية، تخيم معاً طيلة العام وترحل معاً وتمارس نشاطها الاقتصادي معاً. فالأمر يتعلق هنا بحياة اقتصادية جمعية لمجموعة العائلات، مع احتفاظ كل عائلة بمفردها بحق ملكية الماشية.

تكاد المراجع تخلو مع الأسف من أية إشارات إلى هذه المسائل الهامة في العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية بين العائلات الإفرادية والمجموعات العائلية والفرق.

هناك عدة مجموعات عائلية تجمع بينها علاقات قرابة حقيقية تتحد معاً لتشكل فرقة بزعامة رئيس. وعدة فرق تتحد معاً لتؤلف فخذاً يتزعمه الشيخ الذي يجب أن يعترف به رؤساء الفرق المختلفة.

مجموع الأفخاذ وعددها عند شمر يتراوح بين أربعة (عند العبدة) وسبعة (عند خرصة) تشكل العشيرة التي لم تعد موجودة عملياً إلا بالاسم نتيجة انقسامها إلى عدة أفخاذ، ولا تتجلى وحدتها إلا في حالات الطوارئ.

تعترف مجموعة الشيوخ بعضو معين من عائلة جربا القيادية، وهذا الشخص يعتبر الممثل الأعلى للقبيلة (أي شيخ المشايخ) ويمثل شمر نحو الخارج.

إذا ما قارنا بين شكل التنظيم العشائري لشمر- جربا خلال فترتي قبل وبعد التحول الاقتصادي لخرجنا بنتيجة أنه حتى الآن لم تطرأ تغيرات جديرة بالملاحظة. فقد حافظ تركيب العشيرة من حيث ملامحه الأساسية على وضعه السابق حتى الوقت الحاضر.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

باستثناء بعض ملاك الأراضي الذين انفصلوا عن رابطة العشيرة، لأنهم سكنوا في المدن، تعيش غالبية شمر حتى الآن ضمن التجمعات الاجتماعية التقليدية - الأسرة - المجموعة الأسرية - الفرقة، الفخذ، والعشيرة. وهذا الواقع ينطبق ليس فقط على شمر البدو، بل أيضاً على نصف المستقرين والمستقرين من شمر الذين- كما يتضح من إلقاء نظرة على جدول يتضمن المستوطنات الحالية في الجزيرة - يسكنون في القرى

المبنية من البيوت الطينية بشكل منفصل وتخضع لسلطة رئيس أو شيخ. فالأمر يتعلق هنا بوضوح بالشكل الخارجي لتنظيم العشيرة، حيث حصل تحول واضح في مهام الزعماء السابقين الذين أصبحوا فيما بعد من كبار ملاك الأراضي.

ليس من السهل تقييم هذا الوضع، لأن الانتقال إلى نمط الحياة المستقرة لم ينته ولن ينتهي قبل انقضاء مدة طويلة. فحتى عام ١٩٦٢ كان ثلاثة أرباع شمر ما يزالون يعيشون حياة بدوية. ولا يمكننا حتى الآن أن نتنبأ بالصيغ الجديدة لحياة شمر الجماعية في ظل ظروف نمط حياة الاستقرار، لأن التطور من البداوة إلى الاستقرار ما يزال جارياً.

من هذا المنظور يبدو الوجود المؤقت لأشكال التنظيم العشائري الذي تتميز به حياة البداوة مفهوماً.

إن السؤال المطروح في بداية هذه الفقرة، حول دور التنظيم العشائري في مرحلة التحول الاقتصادي عند شمر، يمكن أن تجيب عليه التغيرات الاقتصادية الجذرية التي طرأت في العقود الماضية على صميم التنظيم العشائري القديم.

فالعلاقات الاقتصادية التي نشأت حديثاً ما تزال فتية، ولم تتضح معالمها بشكل كاف لتؤثر على التحول في أشكال التنظيم الاجتماعي الأصلي. لكن يمكن الآن أن نؤكد أن المؤسسات التقليدية قد تخلصت من مضمونها الاقتصادي القديم وبدأت تتخذ طابعاً ثانوياً، ولن تبقى مستمرة مع التطور اللاحق إلا على شكل بقايا.

نتائج البحث

يمكننا في ختام هذا العمل أن نلخص نتائجه على الشكل التالي:

١- وصلت شمر- جربا منطقة سكنها الحالي، أي الجزيرة، عن طريق عدة موجات هجرة توجهت منذ نهاية القرن السابع عشر من مرتفعات نجد في وسط شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي. وقد تكاثفت حركة الهجرة بشكل خاص في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وكان لذلك أثر بظهور الوهابيين الذين وقفت منهم شمر موقفاً عدائياً.

ومع هذه الهجرة نحو الشمال كان على شمر- جربا أن تتنازع مع عدة عشائر بدوية- وبخاصة مع الموالي وعبيد وعنزة- على مراعيهم. وفي بداية القرن التاسع عشر غزت البادية الواقعة بين الفرات ودجلة وثبتت قوتها تحت قيادة عائلة شيخ الجربا في هذه المنطقة. بينما كان للعشائر الشمرية- عبدة- سنجاري- وصايح- وجود في وسط الجزيرة العربية، كانت الخرصة كعشيرة رابعة، تابعة للقبيلة أول ما نشأت في الجزيرة.

٢- تكونت العلاقات بين شمر وجيرانهم الجدد بشكل سلمي إلا في حالات استثنائية تغلبت فيها شمر على العديد من العشائر الأضعف، المستقرة أم البدوية، وأخضعتها لدفع الخوة، وعاش الشمريون مع خصومهم الأقوياء،

وبخاصة أكراد قبيلة ملي وعنزة في حالة نزاع مستمر لاقى التعبير عنه في الغزوات المستمرة والمتبادلة.

كانت العلاقات مع سكان المدن الواقعة في المناطق المتاخمة للجزيرة أول الأمر متوترة جداً، لكنها بدأت فيما بعد بالتحول التدريجي إلى سلمية، لأن الشمريين كانوا مجبرين على تبادل السلع مع السكان المستقرين.

٣- كانت تربية الجمال تحتل مركز الصدارة في حياة شمر الاقتصادية، إذ كانت إمكانات الفائدة المتنوعة من الجمل تؤمن للشمريين أساس حياتهم. مقابل ذلك لعبت تربية الأغنام والماعز دوراً ثانوياً، ولم يكن لتربية الحصان أية أهمية اقتصادية تذكر، واقتصر دورها الرئيسي على المجال العسكري.

٤- يتمم الشمريون مصادر الغذاء المتوفرة لهم من خلال جمع المنتجات الغذائية البرية، النباتي منها والحيواني، ومن خلال الصيد، لدرجة تتغير بتغير الظروف الطبيعية. ويشكل تصنيع الكمأة والجراد ولحم الغزلان لحفظها كمؤونة، جانباً اقتصادياً ذا أهمية كبيرة. أما في مجال القنص فيسود الصيد بالجوارح وكلاب الصيد الذي ينظر إليه كامتياز تتمتع به الطبقة الاجتماعية العليا.

٥- لإشباع حاجتهم من الغذاء النباتي واللباس والأدوات المنزلية والأسلحة كان الشمريون مجبرين على تبادل منتجات مواشيهم (حيوانات حية، زبدة، صوف وجلود) مع السكان المستقرين. ففي المرحلة التي شملتها الدراسات اتخذت علاقات التبادل عند الشمريين الصيغة المتطورة لقانون بضاعة- مال- بضاعة. وسار التبادل التجاري إما عن طريق التجار

الوسطاء الذين كانوا يشترون الماشية في البادية، أو من خلال زيارات مباشرة للأسواق التي تحدث مرة في العام في فصل الخريف بعد أن تتوفر في الأسواق محاصيل الحبوب والتمور.

٦- سعت حكومة الإمبراطورية العثمانية، التي كانت تتبع سياسة متبدلة تجاه شمر، منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى توطين شمر وغيرها من العشائر البدوية، وذلك من أجل بسط نفوذها على هؤلاء البدو. وحاول الولاة الأتراك عدة مرات باستخدام القوة العسكرية والإجراءات الإدارية القسرية، توطين البدو. لكن هذه المحاولات فشلت كما فشلت الجهود الرامية إلى كسب الطبقة العليا من خلال الامتيازات، لأن الشروط الاقتصادية لتحويل نمط حياة البدو الاقتصادية لم تكن قد وجدت بعد.

٧- فقد الشمريون عدة مصادر للدخل من خلال الظروف السياسية والاقتصادية المتغيرة في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، خاصة هبوط أسعار الجمال الذي ألحق بهم خسائر اقتصادية جسيمة. فأبناء الطبقة الاجتماعية العليا لدى شمر- جربا سعوا إلى إمكانات جديدة لتجميع الثروات، ووفرت لهم الحكومات الجديدة فرصة الحصول على أقسام من مناطق الرعي القديمة لتتحول إلى ملكيات خاصة، على أن يقوم الشيوخ مقابل ذلك بمساعدة المؤسسات الحكومية على تحقيق أهدافها.

٨- بدأ استغلال الأرض من خلال زراعة الحبوب في القسم السوري من الجزيرة في ثلاثينات القرن العشرين، وتأخر ذلك في القسم العراقي حتى بداية الأربعينات. ويمكن التمييز في زراعة الشمريين بين أربعة نظم مختلفة لزراعة الأرض.

أ. نظام التأجير الذي يمارسه كبار ملاك الأراضي من عائلة جربا الذين يؤجرون أراضيهم إلى غرباء عن العشيرة (تجار في المدينة ومتعهدين) ويتركون لهم حرية استغلالها، حيث يتم توزيع المحصول بناء على اتفاق بين الطرفين.

ب- الاستغلال الذاتي للأراضي من قبل قسم من الشيوخ الذين يستخدمون الآلات الزراعية الحديثة في إنتاج الحبوب، ويقوم أبناء عشيرتهم والفلاحون الذين لا أملاك لهم بالعمل في مزارعهم.

ج- المؤسسات الزراعية الصغيرة لرؤساء الفرق ذوي الإمكانات الاقتصادية الضعيفة الذين عليهم أن يرتضوا بطرق الزراعة التقليدية ولا ينتجون إلا جزءاً يسيراً فائضاً من أجل السوق.

د- الزراعة نصف المستقرة التي تعتبر ظاهرة انتقالية لشمر على الطريق من البداوة إلى الاستقرار. فالبدو نصف المستقرين ينشغلون في الربيع بتربية الماشية على النمط البدوي ويعودون إلى العمل في الزراعة من الصيف حتى الشتاء. هؤلاء يستخدمون أنواعاً من المساكن تتناسب مع النشاط الاقتصادي الذي يمارسونه: الخيمة البدوية، والمسكن الطيني خلال فترة الاستقرار.

٩- جلبت بداية تحول اقتصاد شمر- جربا من البداوة إلى الزراعة المستقرة- رغم أن عدد المشتغلين بالزراعة لا يشكل أكثر من خمس عدد شمر- جربا- تغيرات هامة في جميع مجالات الحياة الاقتصادية. وأكثر من تأثر بهذه التغيرات هم شمر المستقرون، الذين فقدوا الملامح المميزة للبداوة (حياة الترحال) كلياً. كما طرأت مظاهر التحول على شمر المستقرين ونصف

المستقرين والذين حافظوا على بداوتهم في مجالات تربية الماشية والثقافة المادية وعلاقات التبادل. ووجد قسم من شمر إمكانات دخل خارج نطاق تربية الماشية والزراعة، مثل بناء الطرق ومد السكك الحديدية، أو في شركات النفط المحدثة أو في سلك الشرطة والجيش.

١٠- أظهرت العلاقات الاجتماعية عند شمر- جربا سابقاً وفي ظل ظروف الاقتصاد البدوي تراتباً اجتماعياً جلياً مقروناً بفروق في الملكية- ملكية قطعان الماشية بالدرجة الأولى- وتم حصول الطبقة العليا على ملكيات كبيرة من قطعان الماشية مقابل أبناء العشيرة البسطاء من خلال المكاسب الآتية من الخوات والغزوات والأمور المتعلقة بالقضاء.

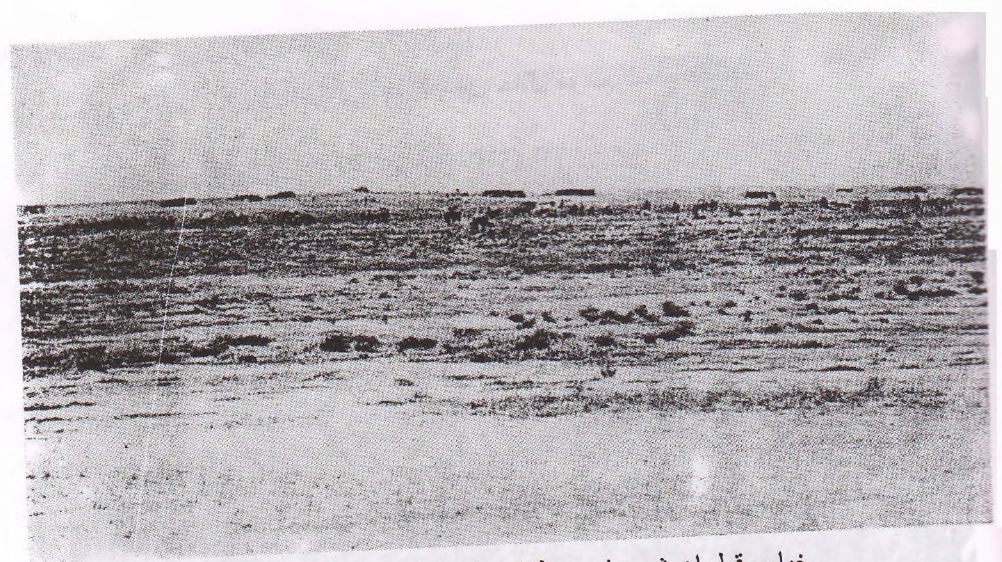
ويدخل في عداد الطبقة العليا لشمر زعماء الفرق والأفخاذ وقادة الغزوات والقضاة وشيخ المشايخ كممثل أعلى للقبيلة. ومن خلال قوانين الميراث المعمول بها ظلت أملاك الطبقة المسيطرة اقتصادياً محصورة ضمن دائرة محدودة من الأشخاص. وكان لمجموع أعضاء العشيرة، حسب معايير السلوك المقترن بالتقاليد، نصيب معين من ثروات الطبقة الاجتماعية العليا.

١١- نتيجة للتغيرات في المجال الاقتصادي برزت أيضاً مظاهر تحول اجتماعية متنوعة، فالشيوخ السابقون وأفراد عائلة جربا تطوروا إلى ملاكي أراضي أغنياء، بينما بقيت عامة البدو دون أية ملكية أراضي. حتى بعد صدور قانون الإصلاح الزراعي عام ١٩٥٩ لم يطرأ أي تغير على هذه الحقيقة. فانقسام مجتمع البدو- الذي كان بالأصل مختلفاً من حيث الثروات لكن يشكل وحدة من حيث الوظيفة- إلى طبقتين متناقضتين، كان النتيجة الحتمية لهذا التطور.

أدى الوضع الجديد لشمر البدو إلى نشوء علاقات ملكية لم تكن معروفة قبلاً فيما يخص قطعان الماشية، وإلى عملية إفقار تنمو باضطراد. أما القضاء التقليدي عند البدو فقد حل محله القانون المدني في ظل الظروف الجديدة، مع أن التشريع الجديد يأخذ بعين الاعتبار التصورات المتعلقة بأمور القضاء عند البدو.

١٢- حتى الآن لم يتأثر التنظيم التقليدي لعشائر شمر- جربا تأثراً كبيراً بالتحول الاقتصادي التي أثبت نفسه. وبما أن تطور شمر من البداوة إلى الزراعة المستقرة ما يزال يأخذ مجراه، فلا يمكن الآن أن نطلق مقولات نهائية حول المسألة المعقدة المتمثلة في نشوء أشكال جديدة من التنظيم الاجتماعي.

إن البحث في هذه المسألة الهامة متروك للأبحاث المستقبلية، لكن مع ذلك يمكن القول الآن أن الصيغ التقليدية للنظام العشائري عند شمر بعد أن فقدت نظامها الاقتصادي الأصلي، ستأخذ في المستقبل شكل البقايا الباقية.



خيام وقطعان شمر في منطقة عباجية (الجزيرة الوسطى)

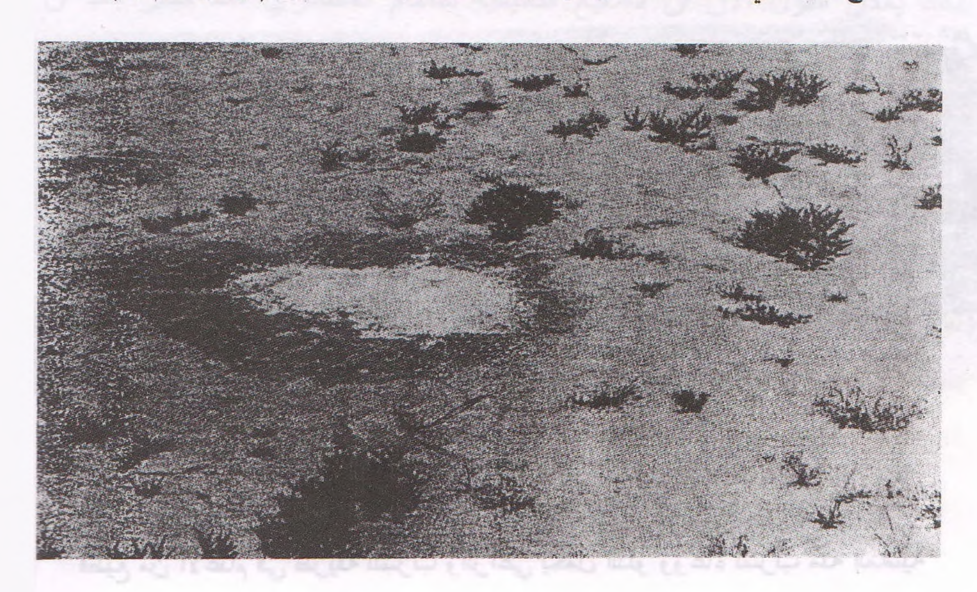


قطيع من الأغنام في طريقه للشرب والراعي يحمل الدلو ووعاء تشرب منه الماشية

نبات وفير في أحد الوديان خلال موسم المطر الطبيعي



ملح جاف في منطقة ذات أرض سبخية بنباتاتها الخاصة بها (مرعى للجمال)



فيصل بن فرحان، شيخ مشايخ شمر- جربا
قبل الحرب العالمية (الصورة الأصلية
بحوزة شيخ المشايخ الحالي مشعان
بن فيصل)





شيخ مشايخ شمرا - جربا الحالي مشعان بن فيصل

زعماء عدة مجموعات من عشيرة شمر خلال زيارة لهم عند شيخ المشايخ

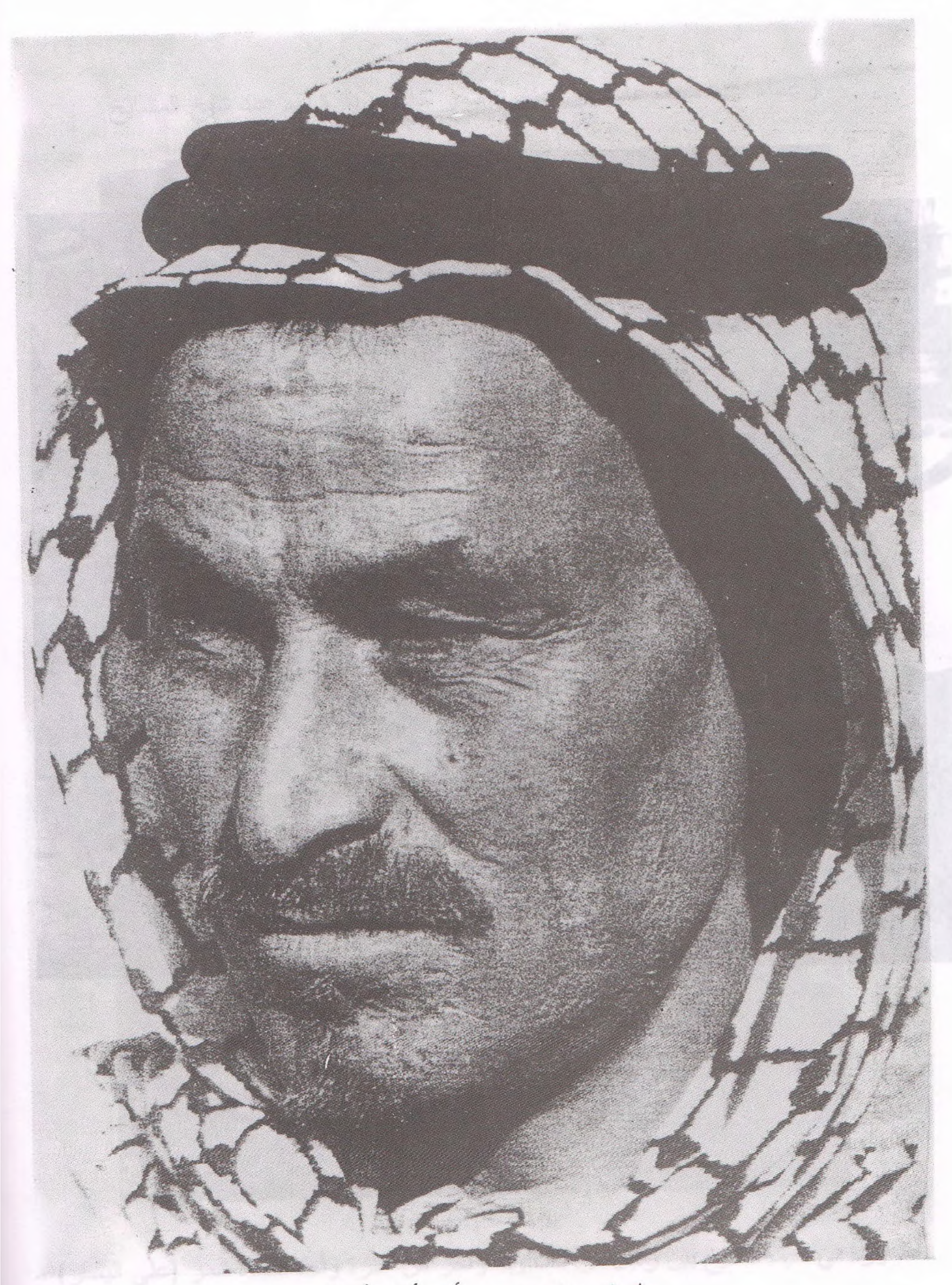




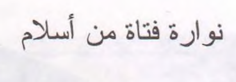
مشاورة في خيمة الشيخ بين رجل من الصلوبة وآخر من عنزة وأحد قضاة شمر (على اليسار)
وسلال الشفيري، رئيس إحدى مجموعات عشيرة عبدة



خيمة شيخ مشايخ شمر

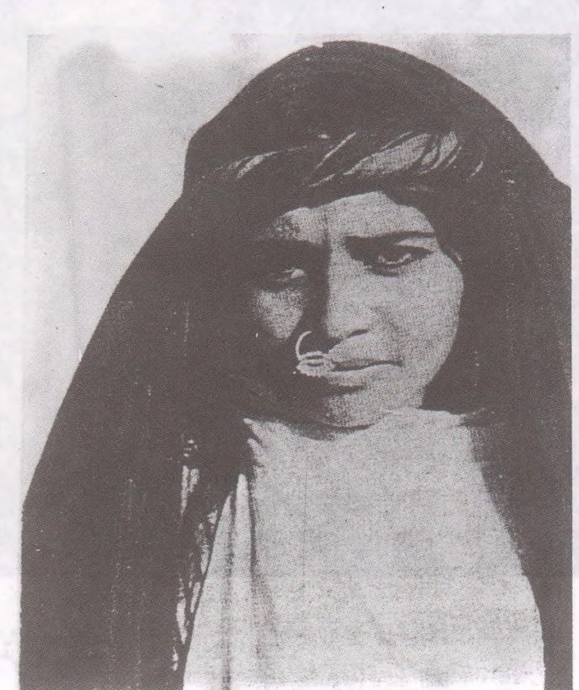


حانوش بن حسين – أحد أبناء أسلام

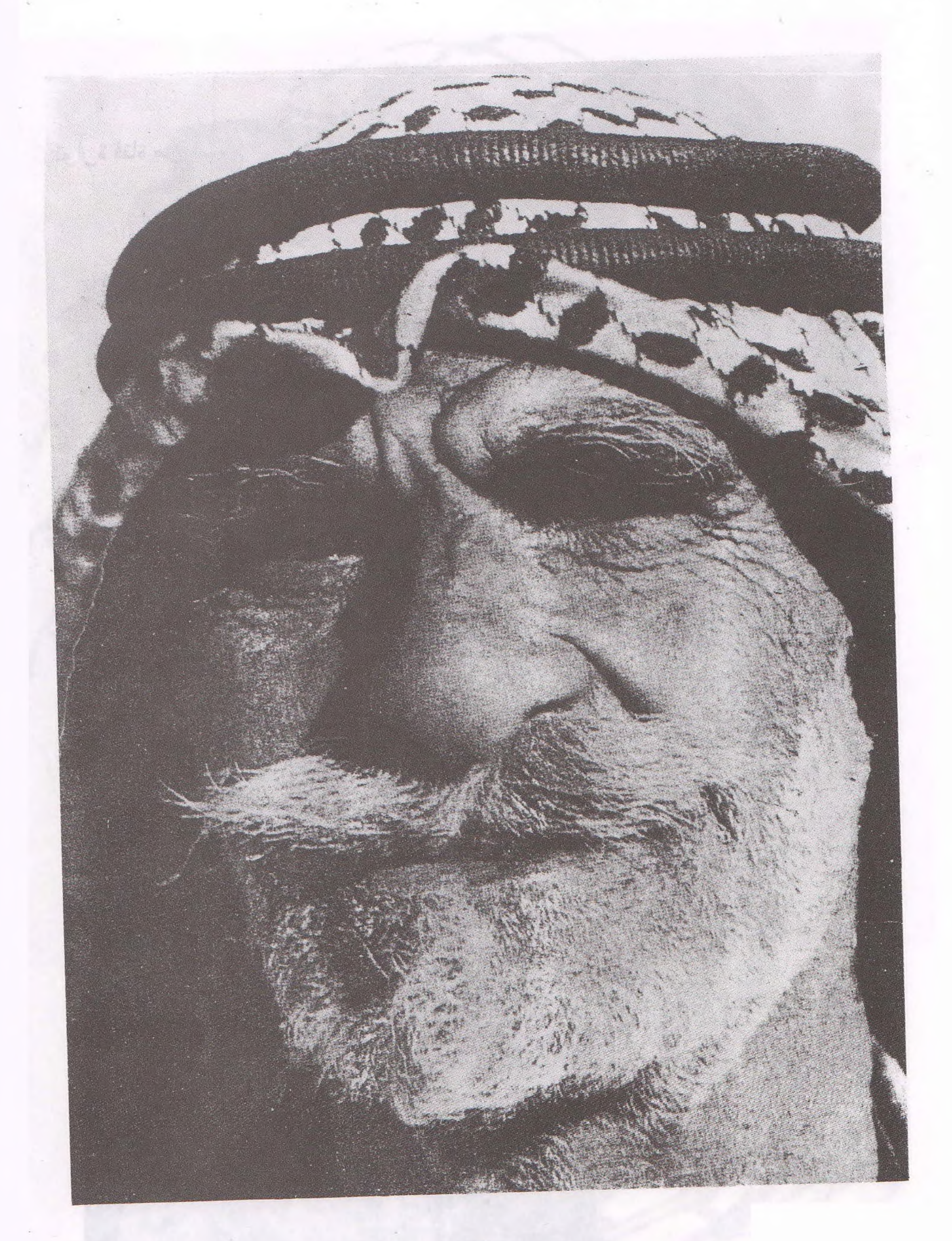


نوارة فتاة من أسلام



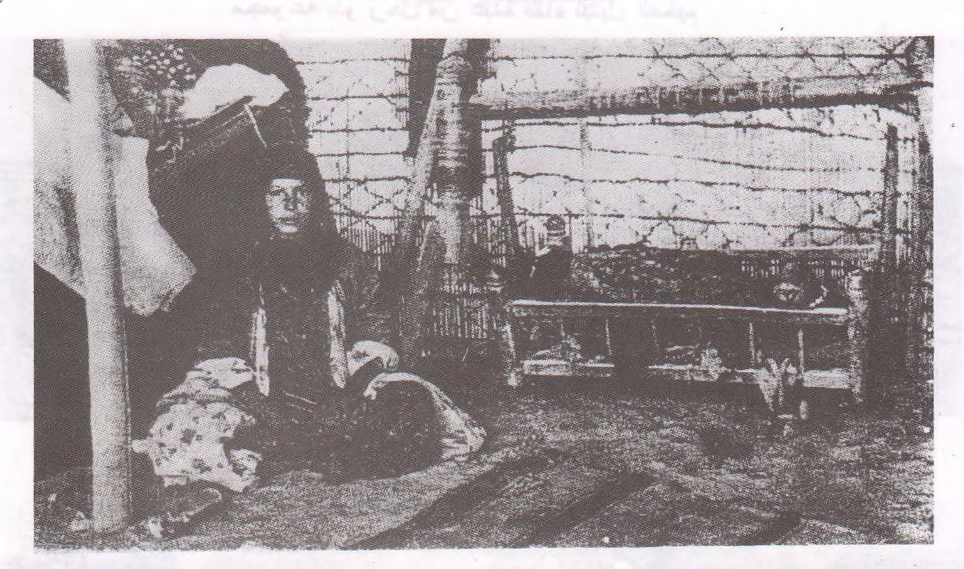


فراخة سيدة شابة من أسلام



صقر بن حمود أحد رجال أسلام

في القسم النسائي – على اليمين سرير يرقد فيه طفل





تناول القهوة في خيمة شيخ المشايخ الكبرى قرب زومان، شمال غرب هترا

مجموعة بدو رحل من عبدة أثناء تبديل المخيم



نصب الخيمة – نشر النسيج المصنوع من شعر الماعز



الجدران الجانبية للخيمة الجاهزة وداخل الخيمة الذي يساعد على التهوية



أدوات تحضير القهوة



ناقة مع وليدها في أحد المراعي الربيعية



الأغنام ذات الإلية الدهنية أثناء الشرب





فرس عربية نبيلة المنشأ

تقيد الأغنام معاً ويقوم أحد الرعاة بحلبها



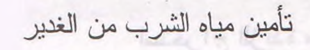


استخراج الزبدة من خلال خض الضرف المملوء بالحليب

تجفيف منتجات الحليب للاحتفاظ بها كمؤونة (بكل)







تأمين مياه الشرب من الغدير



على بئر ارتوازي، يتم سحب الماء بدلو مصنوع من الجلد

أسلحة شمر القديمة. خيالة مع رماحهم في نهاية القرن التاسع عشر مأخوذة عن صورة التقطها أوبنهاين)





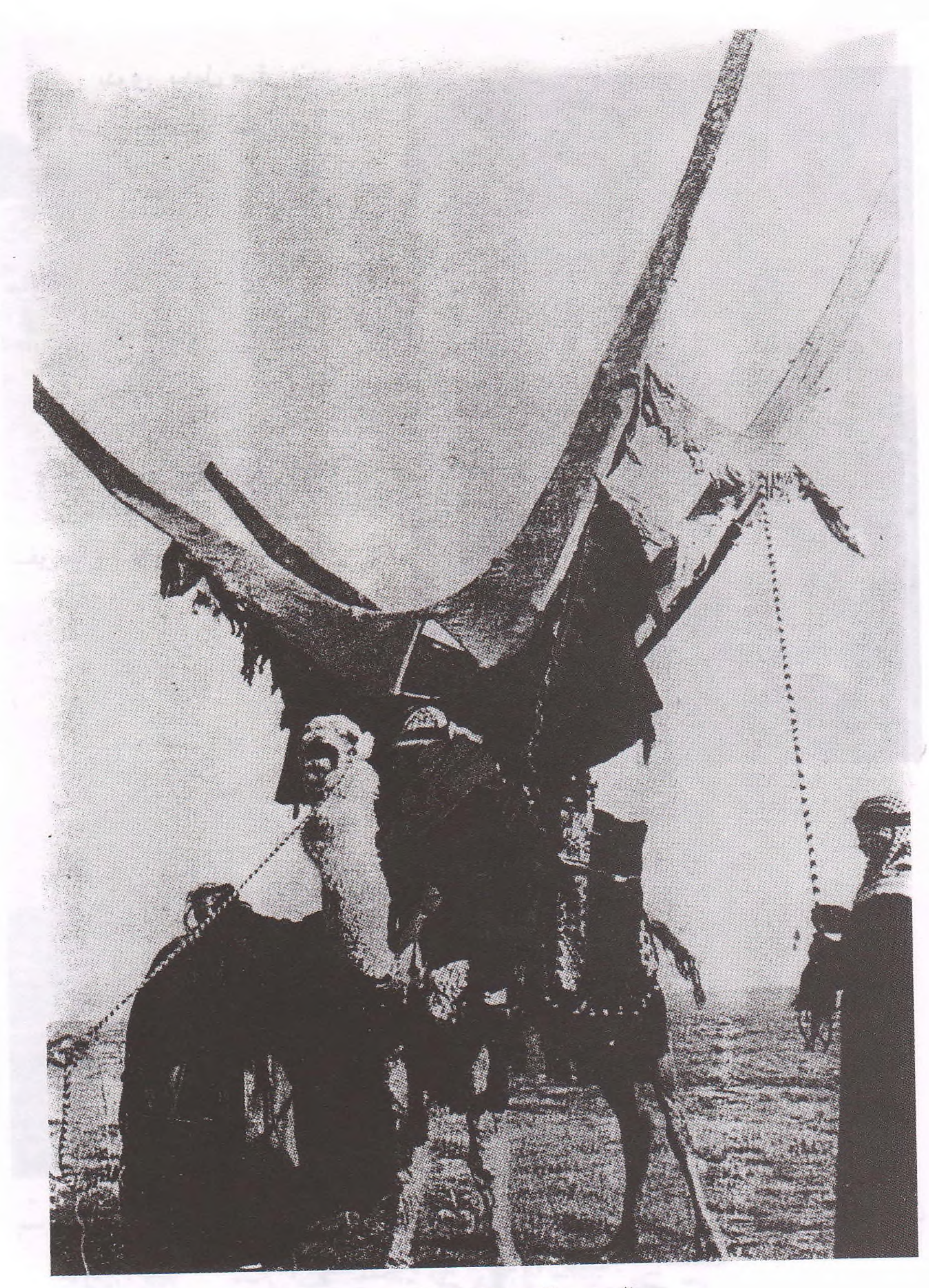
أسلحة شمر الحديثة – مجموعة أسلام مع قربينات وبنادق الصيد.



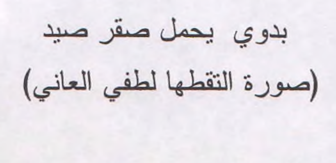
البدو أثناء البحث عن الكمأة



الكمأة البيضاء التي يتم جمعها في الربيع، تجفف ثم تحفظ كمخزون غذائي



الهودج الكبير لشيخ مشايخ شمر.

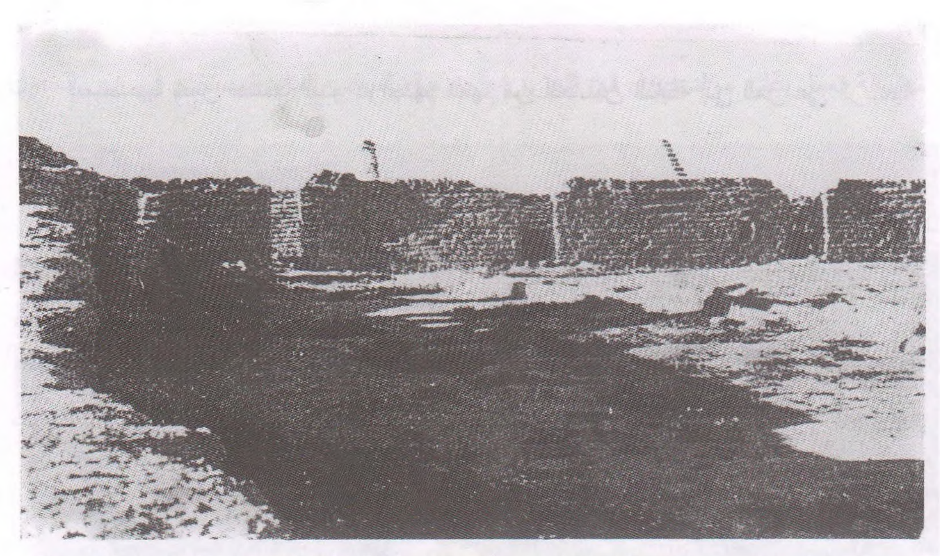


بدوي يحمل صقر صيد
(صورة التقطها لطفي العاني)

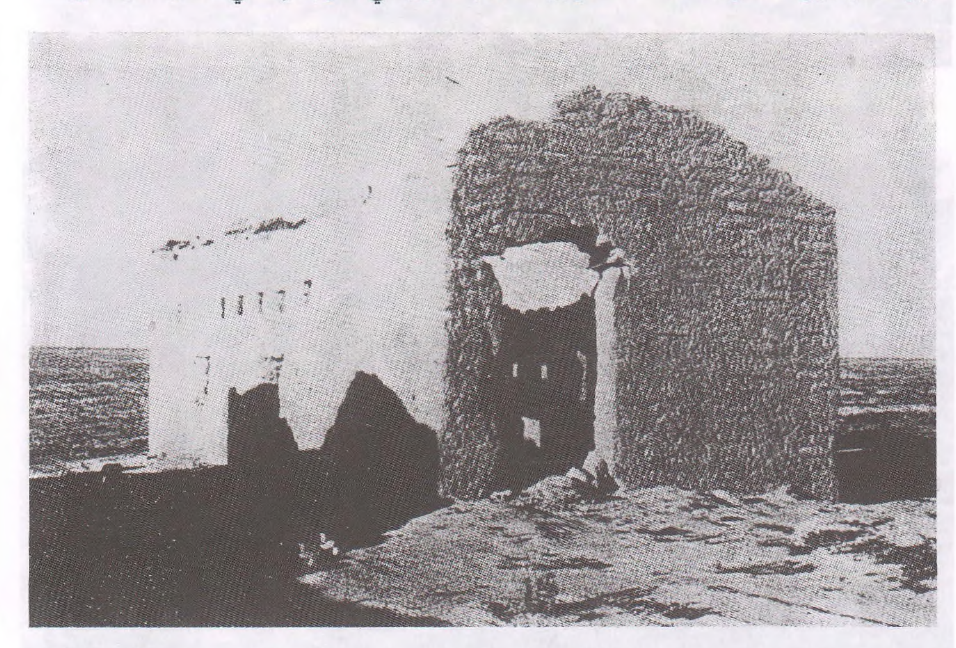




كلب صيد
(سلوقي)
لصيد الغزلان



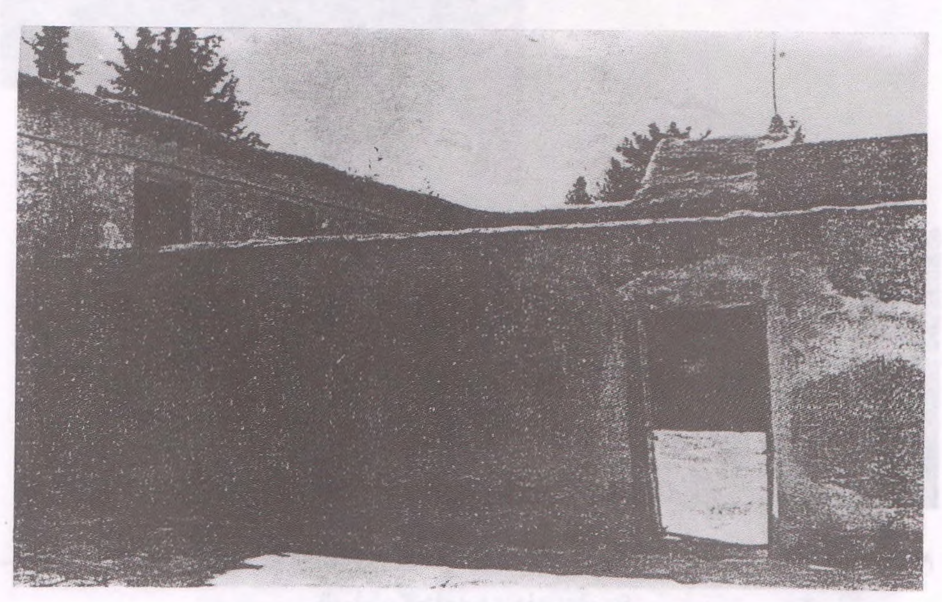
بيوت مهجورة لشمر نصف المستقرين – لا يسكنون في القرية إلا في الصيف والخريف



مساكن مصنوعة من طين مجفف بالهواء – والسقف من سعف النخيل يتم لفه أثناء موسم المطر ووضعه في داخل المسكن

يصطحب شمر نصف البدو دواجنهم معهم من المساكن الثابتة إلى المراعي الربيعية





منزل ريفي لشمر المستقرين في إحدى القرى على نهر دجلة

مضخة تعمل على مولد ديزل في الجزيرة الجنوبية، لسحب الماء المستخدم في ري الحقول



بئر ارتوازي مع تمديداته

افتتاح بئر ارتوازي بواسطة مضخة ديزل في الجزيرة الوسطى





زراعة مروية. حقل مع قنوات رئيسة وفرعية وخلفها القرية

تجديد في حياة البدو. درس يعطيه مدرس مكلف من قبل الحكومة العراقية





تعبير ظاهري عن التحول الثقافي المعاصر حيث تحل الألبسة الأوروبية شيئاً فشيئاً محل الأزياء البدوية التقليدية

بمصاحبة الربابة يتغنى البدو ببطولاتهم

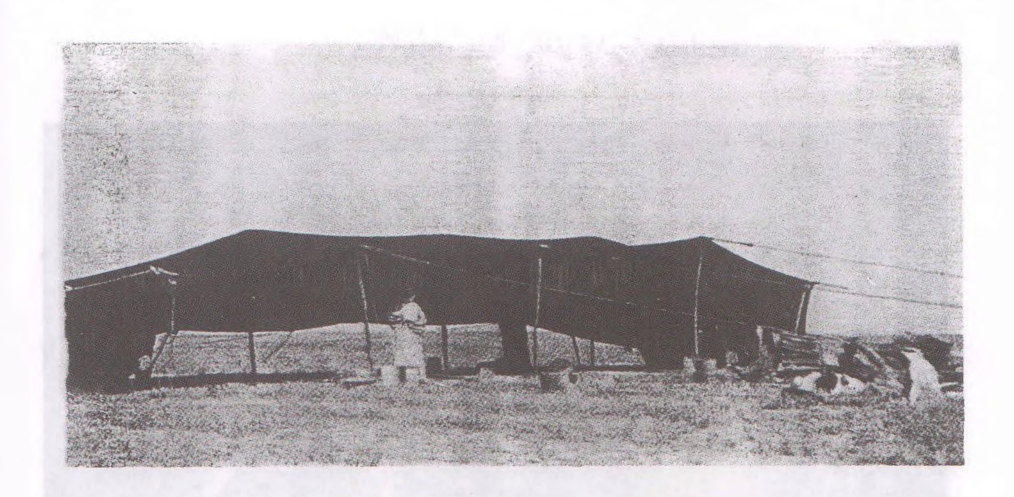




زوجة المؤلف أطلق عليها اسم ريما (اسمها الحقيقي ريناته) واعتبرها الخبير القانوني لدى الشيخ ابنته المتبناة

بمصاحبة الربابة يتغنى البدو ببطولاتهم





هنا يتم استقبال الضيوف



وعقد الاجتماعات



الغنم والجمال
أأهم ما يملكه
البدوي

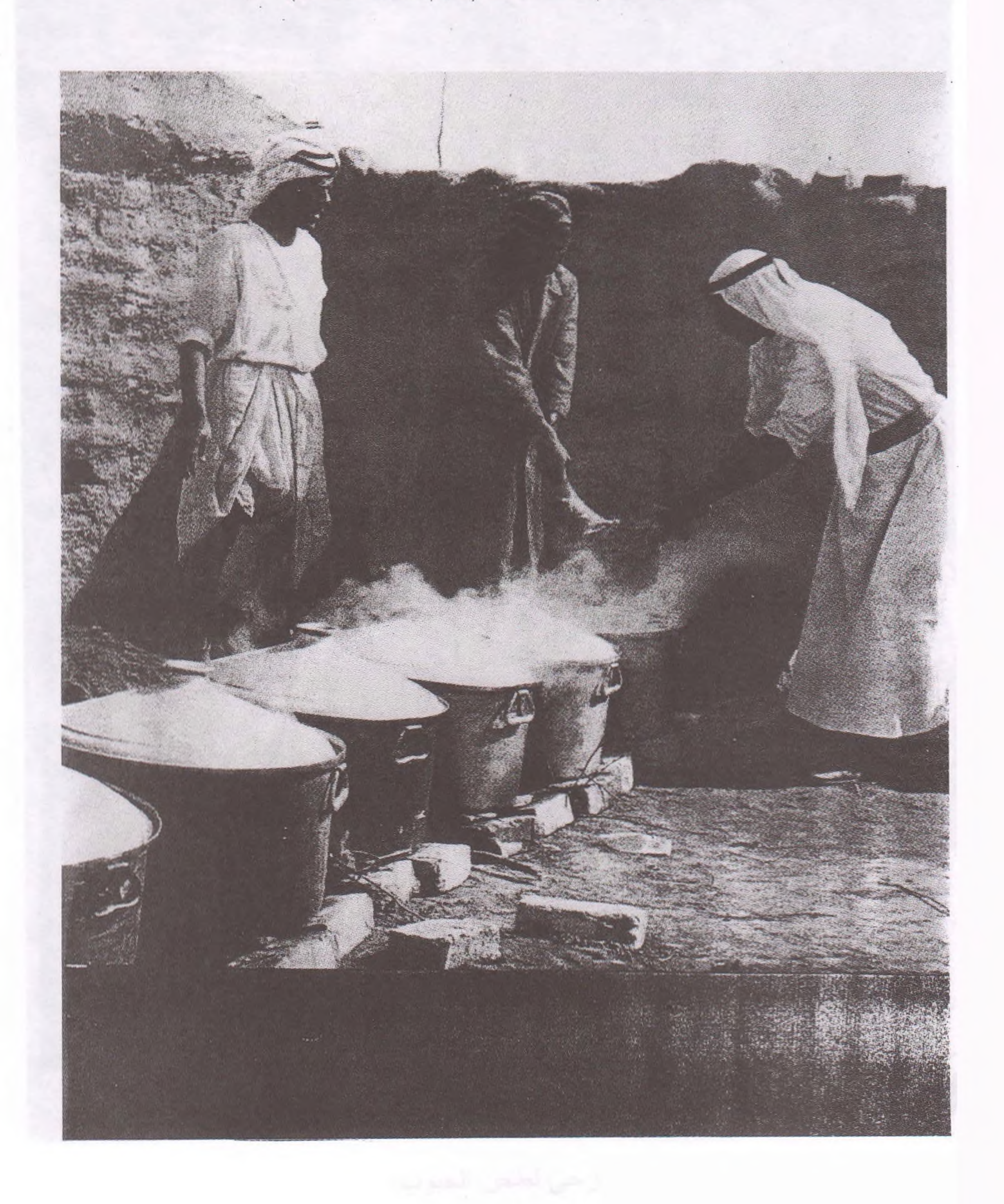
تشكل الملح في البادية





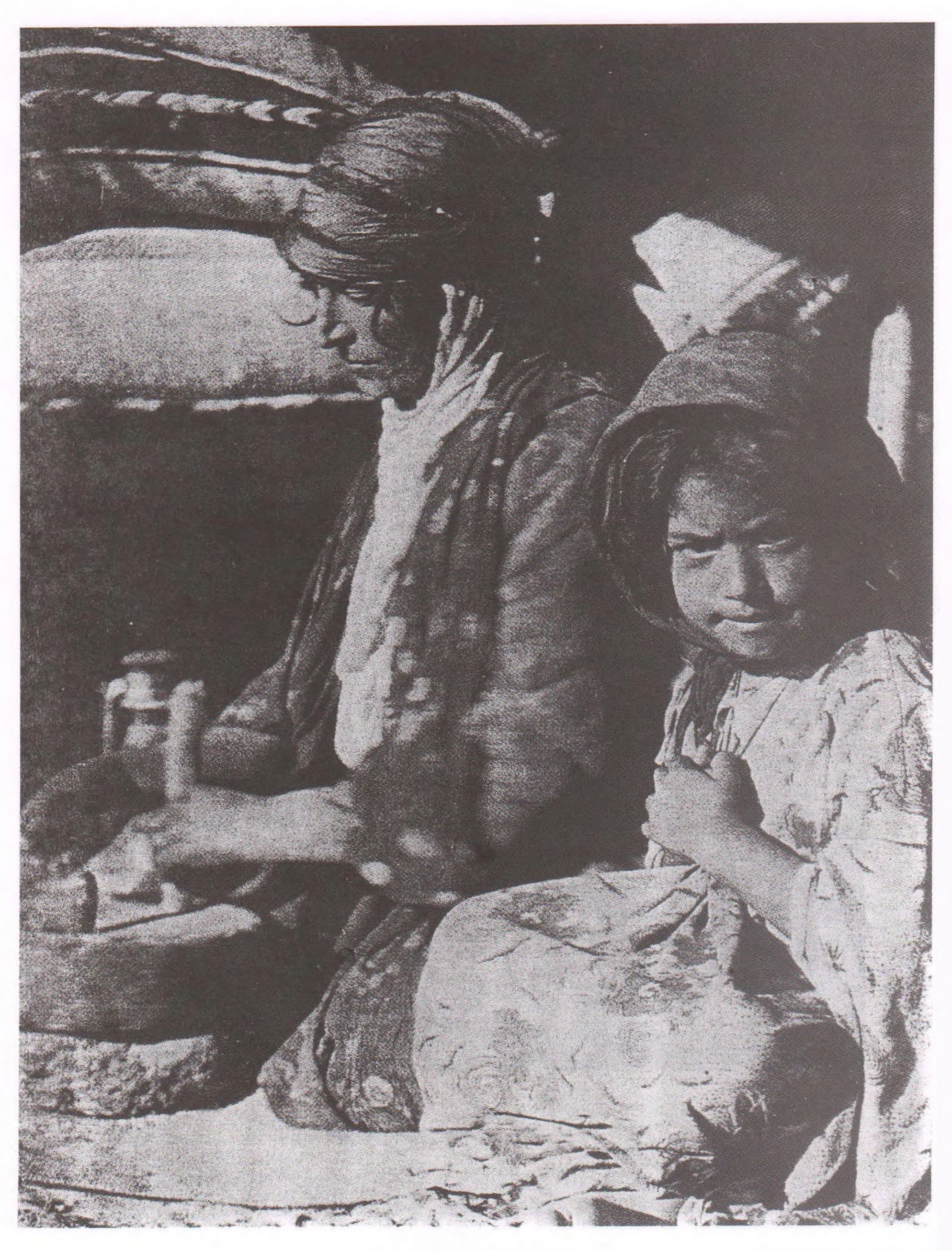
سحب الماء من البئر

تحضير طعام المناسبات (قدوم ضيوف مثلاً)



البدو في غاية الكرم. ذبح خروف على شرف الضيف





الرحى لطحن الحبوب



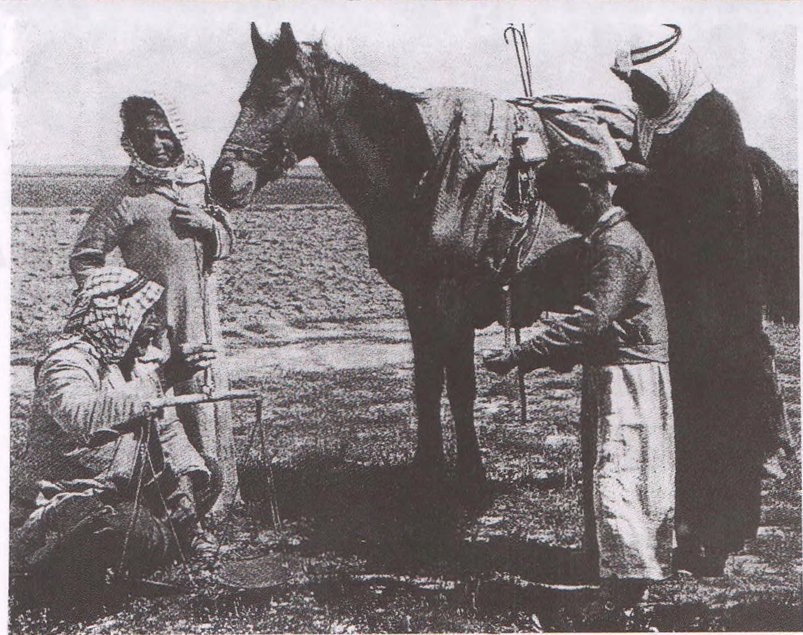
الكمأة تعتبر طعاماً فاخراً عند البدو



مهد طفل من الخشب. والتمائم تقي الصغير من شر العين الحاسدة

بهذا الضرف المصنوع من جلد الماعز يصنع البدو الزبدة من اللبن





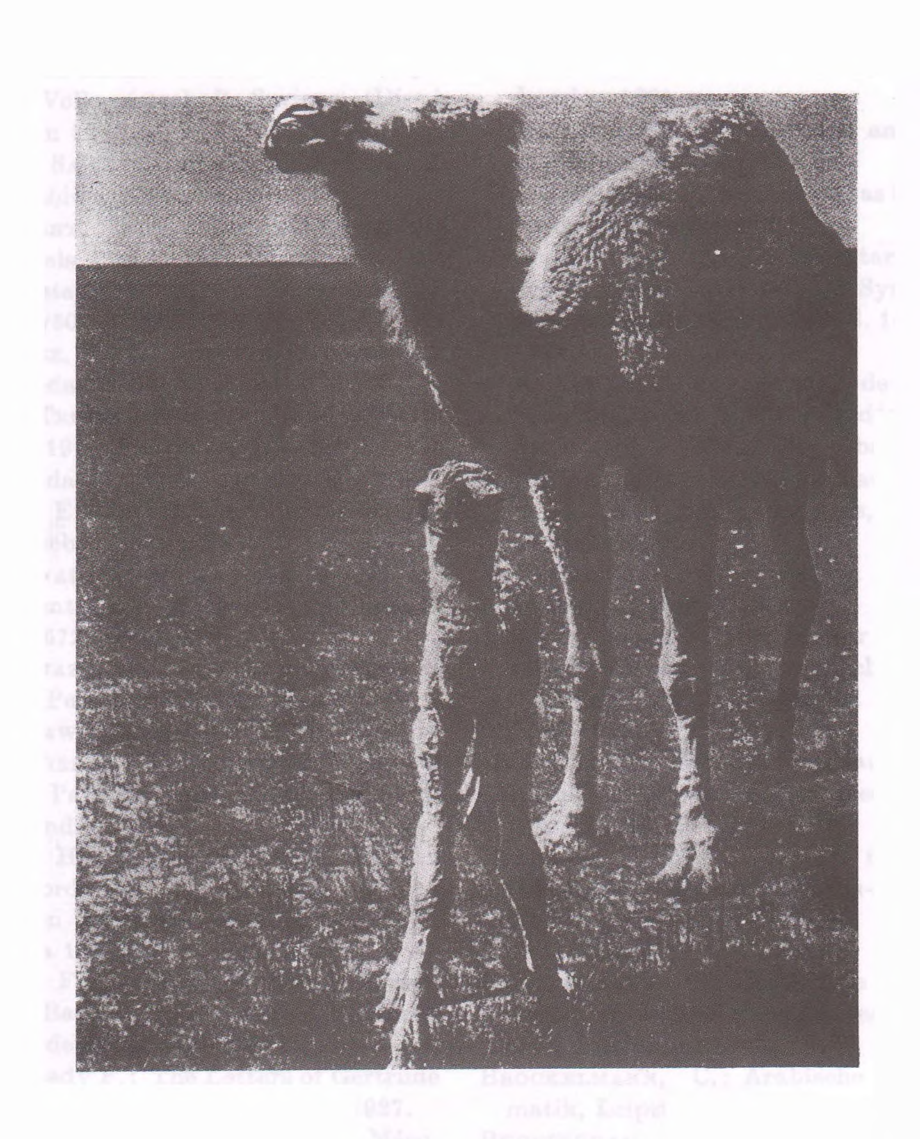
ها قد أقبل البائع الذي يتبادل معه البدو منتجاتهم



على هذا النول ينسج البدو البسط والأحزمة



البدو فرسان شجعان والحصان مصدر فخرهم



الجمل سفينة الصحراء

LITERATURVERZEICHNIS المراجع والمصادر

ACLAND, P. E.: Notes on the camel in the Eastern Sudan, in: Sudan Notes and Records XV, 1932, S. 119–149.

AGAT AL-KALA: Versuch einer Analyse der Volkswirtschaft Syriens, (Diss.), Berlin 1959.

'AMIN SA'ID: Al-daula al-'arabiya al-mutaḥida, Kairo 1936.

ALBRIGHT, W. F.: Zur Zähmung des Kamels, in: Zeitschrift für die alttestamentliche Wissenschaft 62, 1949/50, S. 315.

ALLOUSE, B. E.: Birds of Iraq, Bd. I, Baghdad 1960.

ARAB TRIBES of the Baghdad Wilayat July 1918, Issued by the Arab Bureau Baghdad, Calcutta 1919.

'ĀREF EL-'ĀREF: Die Beduinen von Beerseba, Luzern 1938.

ASHKENAZI, T.: La tribu arabe: ses éléments, in: Anthropos 41/44, S. 657–672, 1946–49.

ASHKENAZI, T.: Tribus semi-nomades de la Palestine du Nord, Paris 1938.

AL-AZZAWI, A.: Notes on the Yezidis, in: FIELD, H.: The Anthropology of Iraq, Part II, No. 1, Cambridge 1951, Appendix C.

BARTH, H.: Reisen und Entdeckungen in Nord- und Central-Africa in den Jahren 1849 bis 1855, Band I–V, Gotha 1857.

BARTH, F.: Nomads of South Persia. The Basseri Tribe of the Khamseh Confederacy, London 1961.

BELL, Lady F.: The Letters of Gertrude Lowthian Bell, 2 Bde., London 1927.

BINDER, H.: Au Kurdistan en Mésopotamie et en Perse, Paris 1887.

BISSAR, F. A.: Die Frau bei den Aneze und ihre Welt, (Diss.), Göttingen 1957.

BLUNT, Lady A.: Bedouin Tribes of the Euphrates, 2 Bde., London 1879.

BLUNT, Lady A.: A Pilgrimage to Nejd, the cradle of the Arab Race, 2 Bde., London 1881.

BODENHEIMER, F. S.: Animal and man in Bible Land, Leiden 1960.

BODENHEIMER, F. S.: Insects as human food, The Hague 1961.

BOUCHEMAN, A. de: La Sédentarisation des nomades du Désert de Syrie, in: L'Asie Francaise, No. 320, S. 140–43, 1934.

BOUCHEMAN, A. de: Matériel de la vie bédouine, recueilli dans le désert de Syrie (tribu des Arabes Sba'a), in: Institut Français de Damas Documents d'Études Orientales, Bd. 3, Damascus 1934.

BRÄUNLICH, E.: The Well in Ancient Arabia, Leipzig 1925.

BRÄUNLICH, E.: Beiträge zur Gesellschaftsordnung der arabischen Beduinenstämme, in: Islamica 6, 1933, S. 68–111.

BRENTJES, B.: Wildtier und Haustier im Alten Orient, in: Lebendiges Altertum, Bd. 11, Berlin 1962.

BRENTJES, B.: Die Schafzucht im Alten Orient, in: Ethnographisch-Archäologische Zeitschrift 4. Jg., Heft 1, 1963, Berlin 1963, S. 1–22.

BROCKELMANN, C.: Geschichte der islamischen Völker und Staaten, München und Berlin 1943.

BROCKELMANN, C.: Arabische Grammatik, Leipzig 1953.

BUCKINGHAM, J. S.: Travels in Mesopotamia, 2 Bde., London 1827.

BURCKHARDT, J. L.: Notes on the Bedouins and Wahabys, London 1830.

Campbell, C. G.: Tales from the Arab Tribes, Illustrated by J. B. Wright, London 1949.

Caskel, W.: Max Freiherr von Oppenheim (1860–1946) Nachruf, in: Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft 101, NF Bd. 26, S. 4–8.

Caskel, W.: Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, H. 8, Geisteswissenschaften; Köln und Opladen 1953.

Caskel, W.: The Bedouinization of Arabia, in: Studies in Islamic Cultural History, ed. by C. E. von Grunebaum, The American Anthropologist, Bd. 56, Nr. 2, Memoir Nr. 76, S. 36–46, April 1954.

Caskel, W.: Entdeckungen in Arabien, Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, Heft 30, Köln-Opladen 1954.

Charles, H.: Tribus moutonnières du Moyen-Euphrate, in: Documents d' Études orientales de l'Institut français de Damas, Beyrouth 1939.

Clauss, L. F.: Als Beduine unter Beduinen, Freiburg i. Br. 1933.

Clauss, L. F.: Semiten der Wüste unter sich, Berlin 1938.

Coles, F. E.: Dust-Stormes in Iraq, London 1938.

Coon, S. C.: Caravan – the story of the Middle East, USA 1952.

Coon, S. C.: The Nomads, Social forces in the Middle East, ed. Sydney Nettleton Fisher, Cornell Univ. Press 1955.

Curasson, G.: Le Chameau et ses maladies, Paris 1947.

Dahlke, D.: Wasser für Iraks Beduinenstämme, in: Sächsische Neueste Nachrichten vom 31. 1. 1964.

Denham, Clapperton and Oudney: Narrative of travels and discoveries in Northern and Central Africa by Major Denham, F. R. S., etc., London 1826.

Denham u. Clapperton: Entdeckungsreise in dem nördlichen und mittleren Africa, Jena 1826.

Dickson, H. R. P.: The Arab of the Desert (A glimpse into Badawin life in Kuweit and Saudi Arabia) 3rd ed., London 1959.

Dickson, H. R. P.: Kuwait and her Neighbours, London 1956.

Dirr, A.: Einiges über die Jeziden, in: Anthropos XII/XIII, 1917/18, S. 558–574.

Dostal, W.: Die Sulubba und ihre Bedeutung für die Kulturgeschichte Arabiens, in: Archiv für Völkerkunde XI (1956), S. 15–42.

Dostal, W.: Zur Frage der Entwicklung des Beduinentums, in: Archiv für Völkerkunde XIII (1958), S. 1–14.

Dostal, W.: The Evolution of Bedouin life, in: L'Antica Società Beduina Università di Roma – Centro di Studi Semitici, Studi Semitici 2, Roma 1959, S. 11–34.

Doughty, Ch. M.: Travels in Arabia Deserta, Bd. I u. II, London 1936.

Doughty, Ch. M.: Wandering in Arabia Deserta, London 1939.

Dowson, Sir E.: An Inquiry into Land Tenure and Related Questions, London and Baghdad 1932.

Dowson, V. H. W.: Dates and Date Cultivation of Iraq, Agricultural Directorate, Ministry of Interior, Mesopotamia, Memoir III, 3 Bde., Cambridge 1921–23.

Edmonds, C. J.: Kurds, Turks and Arabs, London 1957.

Eihardt, W.: Die Kulturform des Nomadismus in ihrer geographischen Bedingtheit, (Diss.), Köln 1923.

Elphinston, W. C.: The future of the Bedonin of Northern Arabia, in: International Affairs, Vol. XXI, No. 3, July 1945.

Enzyklopädie des Islam, (Hrsg. M. T. H. Houtsma u. a.), 4 Bde., Leiden/Leipzig 1908–24.

Epstein, E.: The bedonin problem in the Middle East, in: Actes du 19 Congrès International des Orientalistes, Rom 1935.

EPSTEIN, E.: Transjordan: the nomad problem in Transjordan; agricultural development the only solution; vast areas of suitable land available but lack of development funds hampers progress, in: Palestine and Near East Economic Magazine, vol. 9, S. 87–90, Tel Aviv 1937.

EPSTEIN, E.: The Bedouin of Transjordan: their social and economic problems, in: Journal of the Central Asian Society, vol. 25, S. 228–236, London 1938.

EPSTEIN, E.: Al Jezireh, in: Journal of the Central Asian Society 27, (1940), S. 68–82.

EUTING, J.: Tagebuch einer Reise in Innerarabien, 1. Teil, Leiden 1896, 2. Teil, Leiden 1914.

FEILBERG, C. G.: Contributions to the History of some Oriental bazaar crafts, in: Nationalmusets Skrifter, Etnografisk Raekke I, København 1941.

FEILBERG, C. G.: La tente noire, (Diss.), København 1944.

FELDBERICHT des Autors (Tagebuchaufzeichnungen von der Expedition zu den Šammar-Ǧerba Februar–April 1962).

FERDINAND, KLAUS: Nomadisme, Nogle økoliske betragtninger med eksempler fra Arabien og Afghanistan, in: KUML 1963.

FERDINAND, K.: Relations between Nomads and settled populations in Afghanistan (Abstract), Moscow 1964.

FIELD, H.: Arabs of Central Iraq, their history, ethnography and physical characters, in: Field Museum of Natural History, now Chicago Natural Hist. Museum, Anthropological Memoirs, vol. 4, S. 1–474, Chicago 1935.

FIELD, H.: The anthropology of Iraq, Part I, no 2: The Lower Euphrates-Tigris-Region, in: Field Museum of Natural History, now Chicago Natural Hist. Museum, Anthropolog. Series, vol. 30, S. 225–426, Chicago 1949.

FIELD, H.: The anthropology of Iraq, Part I: The Upper Euphrates, in: Field Museum of Nat. Hist., now Chicago Nat. Hist. Museum, Anthropolog, Series, vo. 30, S. 1–224, Chicago 1940.

FIELD, H.: The Anthropology of Iraq. Part II, Number 1: The Northern Jazira, Cambridge 1951.

FIELD, H.: The Anthropology of Iraq, 4 vols., 1940, 1949, 1951, 1952, Chicago, first 2 vols. Cambridge, Mass. last 2 vols.

FIELD, H.: The Track of man, Adventures of an Anthropologist, London 1955.

FIELD, H.: Camel brands and Graffiti from Iraq, Syria, Jordan, Iran and Arabia. Suppl. to the Journal of American Oriental Studies, No. 15, Baltimore 1952.

FIELD, H. and GLUBB, J. B.: The Yezidis, Salubba, and other Tribes of Iraq and Adjacent Regions, in: General Series in Anthropology, No. 10, Menasha, Wisconsin 1943.

FLADE, J. E.: Die arabische Vollblutzucht in Polen, in: Archiv für Tierzucht, 1. Bd., Heft 5/6, Berlin 1958.

FLADE, J. E. und FRIEDRICH, W.: Beitrag zum Problem der Trächtigkeitsdauer und zu ihrer faktoriellen Abhängigkeit beim Pferd, in: Archiv für Tierzucht, Band 6, Heft 5/6, Berlin 1963.

FLADE, J. E.: Das Araberpferd, in: Die Neue Brehm-Bücherei, Heft 291, Wittenberg 1962.

FLEEGA, A. N. E.: Die moderne Bewässerung des Iraq, Köln 1957.

FLOR, F.: Haustiere und Hirtenkulturen, in: Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik, Wien 1930.

FOOD and Agriculture Organization of the United Nations: Emerging Diseases of Animals, Rome 1963.

FORDER, A.: With the Arabs in tent and town, London 1902.

FREETH, Z.: Kuwait was my home. London 1956.

GABRIELI, F.: L'Antica società Beduina. Studi di W. DOSTAL, G. DOSSIN,

M. HÖFNER, J. HENNINGER, F. GABRIELI. Instituto di Studi Orientali — Universita, Roma 1959.

GESICHT der Erde, Das, bearb. v. E. Neef, 2. Aufl. Leipzig 1962.

GLEISBERG, H.: Technikgeschichte der Getreidemühle. in: Deutsches Museum, Abhandlungen und Berichte, 24. Jg., Heft 3, München 1956.

GLIDDEN, H. W.: A Note on Early Arabian Military Organization, in: Journal of the American Oriental Society 56, 1936, S. 88–91.

GLUBB, J. B.: The Sulubba and other ignoble Tribes of Southwestern Asia, in: General Series in Anthropology, Nr. 10, S. 14/16.

GLUBB, J. B.: The economic Situation of the Transjordan Tribes. in: Royal Central Asian Journal, Vol. XXV, S. II, 1938.

GOODRICH-FREER, A.: Arabs in Tent and Town, London 1924.

GORELIKOV, S. G.: Irak, ėkonomiko-geografičeskaja charakteristika. Moskva 1963.

GRÄF, E.: Das Rechtswesen der heutigen Beduinen, in: Beiträge zur Sprach- und Kulturgeschichte des Orients, Bd. 5, Walldorf-Hessen 1952.

GROBBA, F.: Irak, in: Kleine Auslandskunde Bd. 10, Berlin 1943.

HAHN, E.: Die Entstehung der Wanderhirten und ihre geschichtliche Bedeutung, in: Zeitschrift für Sozialwissenschaft, 1910.

HANDBOOK of Arabia. Prepared on behalf of the Admiralty and the war office. Vol. I, General, May 1916, Vol. II, Routes, May 1917.

HANDBUCH der Geographischen Wissenschaft, hrsg. v. F. KLUTE, darin: Vorder- und Südasien in Natur, Kultur und Wirtschaft, Potsdam 1937.

HANDWÖRTERBUCH des Islam. Im Auftrag der Koningklije Akademie van Wetenschappen, Amsterdam, Hrsg. v. A. J. WENSINCK u. J. H. KRAMERS, Leiden 1941.

HARMS Handbuch der Erdkunde. Band III, bearbeitet v. K.BRÜNING, 9. Aufl., Frankfurt/M. 1954.

HARTMANN, R.: Zur heutigen Lage des Beduinentums, in: Die Welt des Islams 20 (1938), S. 51–73.

HASSAN, Z. M.: Hunting as practised in Arab countries of the Middle Ages, Cairo 1937.

HEISSIG, W.: Nomaden in der Auseinandersetzung mit der modernen Zivilisation, in: Zeitschrift für Geopolitik XX, 1943.

HENNINGER, J.: Zur Verbreitung des Brautpreises bei den arabischen Beduinen, in: Anthropos 34 (1939), S. 380/88.

HENNINGER, J.: Pariastämme in Arabien. St. Gabrieler Studien, Festschrift zum 50-jährigen Bestandsjubiläum des Missionshauses St. Gabriel, Wien-Mödling 1939.

HENNINGER, J.: Das Eigentumsrecht bei den heutigen Beduinen, in: Zeitschrift für Vergleichende Rechtswissenschaft 61 (1959), S. 6–56, Stuttgart 1959.

HENNINGER, J.: Die Familie bei den heutigen Beduinen Arabiens und seiner Randgebiete. Ein Beitrag zur Frage der ursprünglichen Familienform der Semiten, in: Internationales Archiv für Ethnographie XLII (1943).

HERZOG, R.: Veränderungen und Auflösungserscheinungen im nordafrikanischen Nomadentum, Paideuma, Bd. VI, Frankfurt/M. 1956.

HERZOG, R.: Seßhaftwerden von Nomaden: Geschichte, gegenwärtiger Stand eines wirtschaftlichen wie sozialen Prozesses und Möglichkeiten der sinnvollen technischen Unterstützung, in: Forschungsberichte des Landes Nordrhein-Westfalen, Nr. 1238, Köln u. Opladen 1963.

HESS, J. J.: Von den Beduinen des inneren Arabiens, Zürich/Leipzig 1938.

HESS, J. J.: Die Farbbezeichnungen bei innerarabischen Beduinenstämmen, in: Der Islam, Bd. X, Heft 1/2, S. 74–86, Leipzig 1920.

HILĀLĪ, Taqī el-Dīn al-: Die Kasten in Arabien, in: Welt des Islams, Bd. 22, Leipzig 1940.

HITTI, P. K. A.: History of the Arabs, 7th ed., London 1960.

HOGARTH, D. G.: The Life of Charles M. Doughty, Oxford 1928.

HORNITSCHEK, H.: Ein Beitrag zur Kenntnis der Fettschwanzschafe unter besonderer Berücksichtigung der Fettschwanzschafe des Irak, in: Kühn-Archiv, Band 52, S. 255–307, Berlin 1939.

HUBER, Ch.: Journal d'un Voyage en Arabie, Paris 1891.

HUSSEL, L. u. a.: Lehre und Forschung in der Tropenveterinärmedizin, Leipzig 1963.

IBN KHALDUN: The Muqaddimah. An Introduction to History. Translated from the Arabic by Franz Rosenthal, in three vols., chapter two (vol. I): Bedouin civilisation, savage nation and tribes and their condition of life, including several basic and explanatory statements, S. 249–310, London 1958.

IRAQ Governement, Climatological atlas for Iraq, Bagdhad 1945, Map of Iraq, Baghdad 1947.

JACOB, G.: Das Leben der vorislamischen Beduinen, nach den Quellen geschildert, 2. Aufl., Berlin 1897.

JACOB, G.: Studien in arabischen Geographen, Hefte II, III, IV, Berlin 1882.

JAMALI, M. F.: The New Iraq: Its Problem of Bedouin Education, in: Studies of the International Institute of teachers College, Columbia University, Nr. 16, New York 1934.

JARETT, H. S. (Ed. and transl.): Modern customs among the Bedouins of the Haurán, in: Journal of the Asiatic Society of Bengal, vol. LXII Part. III, Anthropology and cognate Subjects, No II, S. 47ff., 1893.

JAUSSEN, A.: Coutumes des Arabes au pays de Moab, Paris 1908.

JENNINGS-BRAMLEY, W. E.: Sport among the Bedawin, in: Palestine Exploration Fund Quarterly Statement, S. 369–376, 1900.

JETTMAR, K.: Die Entstehung des Reiterkriegertums, in: Handbuch der Weltgeschichte, hrsg. v. A. Randa, S. 342/47.

JETTMAR, K.: Neue Beiträge zur Entwicklungsgeschichte der Viehzucht, in: Wiener Völkerkundliche Mitteilungen, 1. Jg., S. 1–14, 1953.

KÄSELAU, A.: Die freien Beduinen Nord- und Zentral-Arabiens, (Diss.), Hamburg 1927.

KENNETT, A.: Bedouin Justice, Cambridge 1925.

KLENGEL, H.: Halbnomaden am mittleren Euphrat, in: Das Altertum, Bd. 5, Heft 4, Berlin 1959.

KÖNIG, W.: Neun Jahre Irak, Baden 1940.

KÖNIG, W.: Die Achal-Teke. Zur Wirtschaft und Gesellschaft einer Turkmenen-Gruppe im XIX. Jahrhundert, in: Veröffentlichungen des Museums für Völkerkunde Leipzig, Heft 12, Berlin 1962.

KRUMBIEGEL, I.: Kamele, in: Die Neue Brehm-Bücherei, Heft 50, Leipzig 1952.

KUCZINSKY, M.: Steppe und Mensch. Leipzig 1925.

KUPPER, J.-R.: Les nomades en Mésopotamie au temps des rois de Mari, Paris 1957.

LANDBERG, C. DE: Langue des Bédouins Anazeh, première partie, Leiden 1919.

LAYARD, A. H.: Niniveh und Babylon, deutsch v. J. Th. ZENKER.

LAZAREV, M. S.: Krušenie tureckogo gospodstva na Arabskom vostoke (1914–1918), Moskva 1960.

LENCZOWSKI, G.: The Middle East in World Affairs New York 1953.

LITTMANN, E.: Märchen und Legenden aus der syrisch-arabischen Wüste, in: Nachrichten der Akademie der Wissenschaften zu Göttingen, Phil.-Hist. Kl., 1915.

LOFTUS W. K.: Travels and Researches in Chaldaea and Susiana, London 1857.

LONGRIGG, S. H.: Iraq 1900–1950: A Political, Social and Economic History, London 1953.

LONGRIGG, S. H.: Four Centuries of Modern Iraq, Oxford 1925.

LONGRIGG, S. H.: Oil in the Middle East, London 1954.

LUNDBAEK, T. A.: A Sulubba Tent, in: Folk, vol. 4, København 1962.

LUSCHAN, F. VON: The Early Inhabitants of Western Asia, in: Journ. Roy. Anthr. Inst. XLI, S. 221–244, London 1911.

MACFAYDEN, W. A.: Water supplies in Iraq. Government Press Baghdad 1938.

MAǦMŪʻA al-qawānīn wa-anẓima wa al-taʻlīmāt wa al-qarātāt al-tafsīriya al-ḫāṣa bil-iṣlāḥ al-zarāʻī (Gesetz über die Bodenreform), Baghdad 1959.

MAKATSCH, W.: Die Vögel der Erde. Berlin 1954.

MANNINGER, R.: Über die Bedeutung von tropischen Tierkrankheiten in Europa (Übers. aus dem Ungarischen, Masch. Manuskript, Leipzig 1964).

MARX, K.: Das Kapital. Kritik der Politischen Ökonomie, Erster Band, Berlin 1953(a).

MARX, K.: Grundrisse der Kritik der Politischen Ökonomie (Rohentwurf) 1857–1858, Berlin 1953 (b).

MEKKĪ, E. J.: Bedouins and Wandering Tribes of Iraq, Baghdad 1956.

MEKKĪ, E. J.: Al-Bedw wa al-qabāʼil al-raḥāla fi al-ʻIrāq, Baġdād 1957.

MERCIER, L.: La chasse et les Sports chez les Arabes, Paris 1927.

MÖLLER, D.: Studien zur mittelalterlichen arabischen Falknereiliteratur, Berlin 1965.

MONTAGNE, R.: Contes poétiques bédouins (Recueillis chez les Šammar de Ǧezīré), in: Bulletin des Études Orientales 5, 1935, S. 33–119.

MONTAGNE, R.: La civilisation du Désert: Nomadesd' Orient et d'Afrique, Paris 1947.

MONTAGNE, R.: Notes sur la vie sociale et politique de l'Arabie du nord: les Chammar du Nejd, in: Revue des Études Islamiques, vol. 6, S. 61–81, Paris 1932.

MONTEIL, V.: The evolution and settling of nomads in the Sahara, in: International Social Science Journal, Bd. 11, Paris 1959.

MORITZ, B.: Arabien. Studien zur physikalischen und historischen Geographie des Landes. Hannover 1923.

MUḤAMMAD, der Prophet, el-Qurʼān (der Koran) Arabisch und Deutsch, übersetzt von Sāda ud-Dīn, Berlin 1939.

MUSIL, A.: The Middle Euphrates, New York 1927.

MUSIL, A.: The Manners and Customs of the Rwala Bedouins, New York 1928.

MUSIL, A.: In the Arabian Desert, New York 1931.

NIEBUHR, C.: Beschreibung von Arabien. Aus eigenen Beobachtungen und im Lande selbst gesammelten Nachrichten, Kopenhagen 1772, Ausg. 1774 Bd. 1.

NOLDE: Reise nach Innerarabien, Kurdistan und Armenien, Braunschweig 1895.

NYSTRÖM, S.: Beduinentum und Jahwismus – eine soziologisch-religionswissenschaftliche Untersuchung zum Alten Testament, (Theol. Diss.), Lund 1946.

OPPENHEIM, M. VON: Vom Mittelmeer zum Persischen Golf, Bd. I, Berlin 1899, Bd. II, Berlin 1900.

OPPENHEIM, M. VON: Die Beduinen, Bd. I, Leipzig 1939, II, Leipzig 1943, III, Wiesbaden 1952.

PALGRAVE: Narrative of a years journey through central and eastern Arabia, 2 vols., London 1865.

PALGRAVE: Reise in Arabien, Bd. I/II, Leipzig 1867/68.

PASSARGE, S.: Arabische Beduinen, in: Raum und Volk, Gruppe 3, Heft 4, Leipzig 1934.

PAUL, S. C.: The New Royal Persian-English Dictionary, Allahabad (o. J.)

PEARSON, J. D.: Index islamicus 1906–1955, London 1958.

PEDERSEN, J.: Der Eid bei den Semiten. Straßburg 1914.

PERŠIC, A. J.: Chozjajstvo i obščestvenno političeskij stroj severnoj Aravii v XIX. – pervoj treti XX. v. Moskva 1961.

PETERMANN, H.: Reisen im Orient, 2. Ausgabe, Leipzig 1885.

PETERS, J.: Nippur or Explorations and adventures on the Euphrates, 2 vol. London-New York 1897.

PHILBY, H. ST. J. B.: The Heart of Arabia. London 1922.

PHILBY, H. ST. J. B.: Arabian Highlands. New York 1952.

PIEPER, W.: Der Pariastamm der Sleb, in: Le monde oriental, vol. XVII, Fasc. 1, Uppsala 1924.

POLLOG, C. H.: Ibn Sa'ud – Fünfzig Jahre Herrscher in Arabien, in: Atlantis 11, 1950.

PRITSCH, E.: Zum Recht der südpalästinensischen Beduinen, in: Die Welt des Islams 20, 1938, S. 1–50.

PRITZKE, H.: Bedouin Doctor. The adventures of a German in the Middle East. London 1957.

PROCKSCH, O.: Über die Blutrache bei den vorislamischen Arabern und Mohammeds Stellung zu ihr. Leipzig 1899.

PRODUCTION Yearbook 1963, vol. 17, Food and Agriculture Organization. Rome 1964.

RASWAN, C. R.: Tribal areas and migrations lines of the North Arabian Bedouins, in: Geographical Review, vol. 20, S. 494–502, New York 1930.

RASWAN, C. R.: Im Lande der schwarzen Zelte. Berlin 1934.

RASWAN, C. R.: Mœurs et côutumes des Bédouins. Paris 1936.

RAUWOLF, L.: Aigentliche beschreibung der Raiß/so er vor diser zeit gegen Auffgang inn die Morgenländer/fürnemlich Syriam, Iudaeam, Arabiam, Mesopotamiam, Babyloniam, Assyriam, Armeniam ec. nicht ohne geringe Mühe vnnd grosse gefahr selbs volbracht/. . . Frankfurt 1582.

RENNER, H. D.: The Origin of the Food Habits. London 1944.

RICH, C. J.: Narrative of a Residence in Koordistan, vol. 2, London 1836.

RIḌĀ, M.: Šēḫ qabila Šammar, in: Rūz al-Yūssif v. 23. 3. 1959 S. 10/40.

RIHANI, A.: Ibn Sa'oud of Arabia. His People and his Land. London 1928.

RITTER, H.: Mesopotamische Studien III, Arabische Kriegspoesie aus Mesopotamien und dem Irak. in: Der Islam, Bd. XIII, Heft 3/4, S. 268–277, Leipzig 1923.

ROUSSEAU, J.: Voyage de Bagdad à Alep, Paris 1899.

RUPPIN, A.: Syrien als Wirtschaftsgebiet, Berlin 1917.

SACHAU, E.: Reisen in Syrien und Mesopotamien. Leipzig 1883.

SACHAU, E.: Am Euphrat und Tigris. Leipzig 1900.

SCHARIR-ZADE, T.: Grundzüge der Nomaden-Wirtschaft, (Wirtschaftswiss. Diss.) Heidelberg 1931.

SCHICKELE, R.: Untersuchungen über die Formen der Weidewirtschaft in den Trockengebieten der Erde, (Landw. Diss.) Berlin 1931.

SCHWARZLOSE, F. W.: Die Waffen der alten Araber. Leipzig 1886.

SCHWEIGER-LERCHENFELD, A.: Unter dem Halbmonde. Das Bild des ottomanischen Reiches und seiner Völker. Jena 1876.

SELIGMAN, C. G.: The Physical Characters of the Arabs, in: Journal Royal Anthr. Inst. XLVII, S. 214–237, London 1917.

SIMOONS, F. I.: Eat not this flesh. Food avoidances in the old world. Madison 1961.

SINCLAIR, A. T.: Tattooing – Oriental and Gypsy, in: American Anthropologist, New Series, vol. 39, no. 1, Wisconsin 1937.

SMEATON, W.: Tatooing among the Arabs of Iraq, in: American Anthropologist, New Series, vol. 39, 1937.

SMITH, R. W.: Kinship and marriage in Early Arabia. Cambridge 1885.

SONNEN, P. J.: Die Beduinen am See Genezareth. Ihre Lebensbedingungen, soziale Struktur, Religion und Rechtsverhältnisse. Köln 1952.

SOUSA, A.: Irrigation in Iraq; its history and development. Jerusalem 1945.

STEIN, L.: Die Wasserversorgung – ein wichtiges Regulativ im Wirtschaftsleben der Nomaden, in: Wissenschaftliche Zeitschrift der Karl-Marx-Universität Leipzig, Gesellschaftswissenschaftl. Reihe, 8. Jg. (1958/59) Heft 1, S. 145–158.

STEIN, L.: Beobachtungen über entwicklungsbiologische und soziale Besonderheiten bei nordirakischen Beduinenkindern, in: Ärztliche Jugendkunde, 54. Jg. Heft 912, S. 399/414, Leipzig 1963 (a).

STEIN, L.: Zum Problem der Raubzüge (ġazū) bei den Šammar-Ǧerba, in: Annals of the Náprstek-Museum II, Praha 1963 (b).

STEIN, L.: Eine neue Sammlung iraqischer Ethnographika im Museum für Völkerkunde zu Leipzig, Teil I Araber, in: Jahrbuch des Museums für Völkerkunde zu Leipzig, Bd. XX, S. 178/206. Berlin 1964.

STEVENS, E. S.: By Tigris and Euphrates. London 1923.

STEVENS, E. S.: (Lady Drower) Folktales of Iraq. London 1931.

AL-ṬĀHIR, 'Abd al-Ǧalīl 'Alī; The Serifa and Mudhut Dwellers in Baghdad. Baghdad (o. J.).

AL-ṬĀHIR. 'Abd al-Ǧalīl 'Alī: al-bedū wa al-'ašā'ir fī al-bilād al-'arabiya. Kairo 1955.

TERRASSE, H.: Robert Montagne (1893–1954), Hespéris 42 (1955).

THESIGER, W.: Hawking in Arabia, in: The Listener, vol. 42, S. 803–04, London 1949.

THESIGER, W.: Wolves of the desert: the Sa'ar tribe at the watering place, in: Geographical Magazine, vol. 21, S. 394–400, London 1948/49.

TILKE, M.: Orientalische Kostüme in Schnitt und Farbe. Berlin 1923.

TWEEDIE, W.: The Arabian Horse, his country and people. London 1894.

UNGER, E.: Zur Salzsteppe südlich des Sindschargebirges, in: Peterm. Geogr. Mitt. 62, (1916).

VÖGELE, H.-H.: Die Falknerei. Eine ethnographische Darstellung, in: Veröffentlichungen des Geographischen Instituts der Albertus-Universität zu Königsberg, Neue Folge, Reihe Ethnographie, Nr. 1. Neudamm 1931.

WALZ, Zum Problem des Zeitpunkts der Domestikation der altweltlichen Kameliden. in: Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, 101, 1951, S. 29–51.

WARDI, A.: The integration and disintegration of the Bedouin culture. A paper submitted to the Fourth World Congress of Sociology which was held in Stresa, Italy, Sep. 1959. (MS)

WATSON, K. B.: Locusts in Iraq, in: Scottish Geographical Magazine 47, 1931.

WEHR, H.: Arabisches Wörterbuch für die Schriftsprache der Gegenwart. 2. Aufl. Leipzig 1956.

WEISSBACH, F. H.: Beiträge zur Kunde des Irak-Arabischen, in: Leipziger Semitistische Studien, 4. Band, Leipzig 1930.

WELLHAUSEN, J.: Die Ehe bei den Arabern, in: Nachrichten von der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, 1893, S. 431–481.

WERTH, E.: Zur Verbreitung und Entstehung des Hirtennomadentums, in: Der Forschungsdienst, hrsg. v. Findeisen, Heft 4, Augsburg 1951.

WETZSTEIN, I. G.: Sprachliches aus den Zeltlagern der syrischen Wüste, in: Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft XXII, Leipzig 1868.

WETZSTEIN, I. G.: Über das Eigentumszeichen nomadischer Völker, in: Globus, Bd. 32, S. 255–56.

WILKEN, G. A.: Das Matriarchat bei den alten Arabern. Leipzig 1884.

WILLCOCKS, Sir W.: The Irrigation of Mesopotamia. London 1929.

WINKLER, H. A.: The Origin and Distribution of Arab camel brands, in: Suppl. to the Journal of the American Oriental Society, No. 15, Baltimore 1952.

WIRTH, E.: Morphologische und bodenkundliche Beobachtungen in der syrisch-irakischen Wüste, in: Erdkunde, Bd. 12, Bonn 1958.

WIRTH, E.: Agrargeographie des Irak, in: Hamburger Geographische Studien, Heft 13, Hamburg 1962.

WÜSTENFELD, F.: Genealogische Tabellen der arabischen Stämme und Familien. Göttingen 1852/53.

WÜSTENFELD, F.: Die Wohnsitze und Wanderungen der arabischen Stämme, in: Abhandlungen der Königlichen Wissenschaftlichen Gesellschaft zu Göttingen, 14, 1869.

ZAKI, S.: Origins of British Influence in Mesopotamia. New York 1941.

ZEKI, M.: (editor): Iraq Yearbook. Baghdad 1953.

فهرس

الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

دراسة اثنو - سوسيولوجية لقسم من عشيرة شمر المنتشرة في أكثر من قطر عربي وهو «شمر - جربا» التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى المنطقة الواقعة بين سورية والعراق. جمع المؤلف مادتها العلمية خلال إقامته الميدانية عند القبيلة عام ١٩٦٢ حيث عالج فيها طبيعة الحياة البدوية بشكل عام ومشاكلها والمعطيات الطبيعية والمناخية التي تحدد نمط هذه الحياة، وكذلك العادات والتقاليد والتركيب الاجتماعي والقضائي. ثم عالج بداية انتقال هذه العشيرة من حياة الترحال التي تعتمد على تربية الحيوان (الغنم والإبل بالدرجة الأولى) إلى حياة الاستقرار القائمة على ملكية الأرض والزراعة، والمشاكل التي رافقت عملية الانتقال هذه. بالإضافة إلى مادته الميدانية اعتمد المؤلف على عدد كبير من المراجع العربية والأجنبية التي عالجت حياة البدو.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/



سعر النسخة داخل القطر ١٧٠ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٣٤٠ ل.س
٢٠٠٧